

19.7.2017

سنة القراءة الخطرة

كيف استطاع خمسون كتابًا عظيمًا إنقاذ حياتي

آندي ميلر

ترجمة: محمد الضبع



سنــة القــراءة الخطــرة

THE YEAR OF READING DANGEROUSLY

آندي ميلر

Andy Miller

ترجمة:

محمد الضبع

٢٠١٦



سنة القراءة الخطرة

THE YEAR OF READING DANGEROUSLY

- سنة القراءة الخطرة
- آندي ميلر

دار كلمات للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى - ٢٠١٦

دولة الكويت/ محافظة العاصمة

تلفون: ٩٩١١٩٩٣٤ (٠٠٩٦٥)

تويتر: @dar_kalemat

إنستغرام: dar_kalemat

بريد الإلكتروني: dar_kalemat@hotmail.com

مكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2016/1101

الردمك: 978-99966-92-68-0

آندي ميلر ، قارئ ، كاتب ، ومحرر للكتب . ظهرت كتاباته في عدة صحف ومجلات مثل مجلة *The Times* ، *the Telegraph* ، *the Guardian* ، *the Independent* ، *Esquire* ، *the Spectator* ، *Mojo* . كتابه الأول «مصارعة طواحين الهواء : كيف حاولت ترك القلق وحب الرياضة» نشر سنة ٢٠٠٢ .

موقعه الشخصي : mill-i-am.com

تويتر : i_am_mill_i_am@

مما كُتب عن «سنة القراءة الخطرة» :

«مذكرات لا تضاهى . مكتوبة بانتصار . ملتهبة بحبه للأدب . يجعلني هذا الكتاب أتعرف على أحد أفضل تعاريف الحماسة تجاه الجمال . هذا الكتاب ينجح في نقل شيء من المتعة - لا ، الفرحة - التي شعرت بها وأنا أشارك ميلر سنته في القراءة وإعادة القراءة لكتب أحببتها كثيرًا .»

پيتر كونارد ، *Observer*

«مذكرات ممتعة ، عالية بشكل مذهل . ميلر أحد الأشخاص الذين يعتزون بالكلمة المكتوبة ، ولكنه يفعل ذلك دون أي مقدار من ادعاء أهمية الذات أو الغرور كما يحدث مع أغلب الكتّاب في عالم الأدب . وهو صاحب أفضل تعريف قرأته في حياتي لما يجعل

أي كتاب عظيمًا ؛ «إنه الكتاب الذي يفسر الجنون – وغالبًا الذات المجنونة لأي إجابة ، ويجد رغم كل شيء جمالًا وطمأنينة في هذا الانزلاق . إنه القراءة اللذيذة في مجملها .»

ماريا بوبوڤا ، *Brain Pickings*

«فريد من نوعه . كل الكتب المذكورة في هذا الكتاب عليها أن تشعر بأنها محظوظة لأن آندي ميلر قام بقراءتها .»

ستيوارت لي ، كاتب كوميدي

«آندي ميلر كاتب شديد الفكاهة . وكتابه هذا ترنيمة جميلة للقراءة . فصله الذي يتحدث عن هرمان ملڤل ودان براون جعلني أشعر بسعادة غامرة .

ملاحظة : سيجعلك هذا الكتاب تشعر بأنك قارئ جيد .»

مات هيغ ، صاحب كتاب «البشر»

«غالبا ما نستطيع مقاومة قراءة الكتب التي تتحدث عن كتب أخرى ، ولكن «سنة القراءة الخطرة» استثناء لذيذ . أسلوب ميلر الساحر والمذهل يدين ببعض الشيء لجو برنارد ، وديڤيد فوستر والاس .»

إيان فينلايسون ، *The Times*

«لقد أحببت هذا الكتاب . يجب على كل من يحب الكتب أن يقرأه – مثير للجدل ومضحك أيضًا .»

ديڤيد نوبز

«رائع . حرفيًا .»

ليندا غرانت

«محاولة بطولية وممتعة للعودة إلى الكلاسيكيات . . . الحماس هو موطن قوة ميلر في هذا الكتاب ، حيث يتمكن من أن يثور غضبًا أحيانا ويتحدث عن كتاب يدعى «كراوتر وكسامپلر» لجوليان كوپ لدرجة أنه يجعلك تضع «سنة القراءة الخطرة» جانبًا وتذهب للبحث عن هذا الكتاب .»

كلير هارمان ، *Guardian*

«أقدّر هذا الكتاب لخفة ظله وقدرته على التأثير . إنه كتاب مهم لكل من يحب القراءة . إن لم تكن تحب القراءة فلا أظن أن هذا الكتاب سيناسبك ، ولكن كتب دان براون مازالت على رفوف التخفيضات .»

جيني كولغان

«ممتع بشكل كبير . إنه دليل بارع لمساعدة الذات على تنظيم رف الكتب ، يحارب آندي ميلر ضد السماح لاختيارات القراءة أن تكون محكومة بالشهرة الأدبية . لا يجب علينا جميعًا أن نقرأ الكتب ذاتها .»

ألكس كلارك

«في سنة ما قرر آندي ميلر أن يسلك طريقه لقراءة خمسين عملًا من كلاسيكيات الأدب التي لم تسنح له فرصة الاقتراب

منها من قبل . هذا الكتاب يعبر عن ردة فعل خفيفة الظل لكل هذه الكتب . وليس محتوى هذه الكتب هو ما يجعلك تشعر بالأثر ، بل رحلة قراءتها والأفكار التي تتولد خلال هذه الرحلة .»

براندون روبشو ، *Independent*

سنة القراءة الخطرة

كيف استطاع ٥٠ كتابًا عظيمًا (وكتابين غير عظيمين) إنقاذ حياتي

آندي ميلر

ملاحظة المترجم:

هنالك بعض الأسماء والمصطلحات التي تم وضعها بلغاتها الأصلية -الإنجليزية ، الفرنسية ، الروسية- لتسهيل عملية البحث عنها في حالة رغبة القارئ للاستزادة والعودة إلى مصادرها (أسماء صحف ، مجلات ، لوحات ، ألبومات موسيقية) .

إلى ألكس، مع محبة أبيك

تحذير!

الكتاب يحتوي على تفاصيل قد تفسد عليك بعض الأحداث في كتب أخرى .

«أصبو إلى الوصول إلى وطني وأرى يوم عودتي . إنها أمنيتي التي لا تخفق أبدًا .»

هومر ، الأوديسة

«ما الهدف من الخروج من المنزل؟ سوف ينتهي بنا الأمر هنا مرة أخرى مهما حدث .»

هومر سمپسون

كلمة توضيحية

دعوني أبدأ بموقف دفاعي وأتريث هنا قليلًا .

عنوان هذا الكتاب «سنة القراءة الخطرة» . إنها قصة حقيقية للسنة التي قضيتها وأنا أقرأ عددًا من أعظم الكتب وأشهرها حول العالم ، وكتابين آخرين لدان براون . إنني فخور بما حققته في تلك السنة ، وبالطريقة التي غيرت بها تلك التجربة حياتي - لقد غيّرت مسارها تمامًا - ولهذا السبب سأقوم بكتابة عدة مئات من الصفحات لأخبركم بتفاصيل هذه القصة . في البداية لم يكن اسم الكتاب «سنة القراءة الخطرة» . وضعت هذا العنوان أولًا ثم فكرت بتغييره . «قصص ميلر» بدا لي كعنوان مناسب لبعض الوقت . ثم فكرت في «انهض! من الكسل!» ثم «الجسد في المكتبة» ، «اصطياد نمور من الورق» ، «الرجال الحقيقيون لا يقرؤون الكتب» ، «مذكرات متشائم وُلد من جديد» ، «ضد الطبيعة : القيامة» ثم فكرت في «إلى ماذا تحدّق؟» ، «لسنا بحاجة للكلام نحن بحاجة للكلام عن كيفن» (لنحظ بوقت ممتع) . ثم في صباح يوم عصيب قررت أن أسميه «سحقًا للعالم ، أريد ترك كل شيء» . وأخيرًا بطريقة غامضة عادت إليّ الفكرة الأولى من جديد وأطلقت عليه اسم «سنة القراءة الخطرة» ، أو لأخبركم بالعنوان كاملًا : «سنة القراءة الخطرة وخمس سنوات من العيش مع العواقب» .

ولأنه يوجد في العالم العديد من الأشخاص الذين يحملون اسم «آندي ميلر» ، وبعضهم كتّاب أيضًا ، فكرت طويلًا في تغيير

اسمي . وللتأكيد فقط ، هذا الكتاب لم يكتبه آندرو ميلر الروائي الشهير ، ولا آندي ميلر الفائز بجائزة يوڤيل الأدبية للشعر ، ولا آندي ميلر ، كاتب السيناريو التلفزيوني ، ولا أ . د . ميلر ، صاحب «قطرات الثلج» العمل الذي رُشّح للقائمة القصيرة لجائزة البوكر قبل سنوات . ولم يكتبه آندرو ميلر لاعب فريق بوسطن رد سوكس ، ولا آندي ميلر عازف القيتار المعروف ، آندي ميلر النائب العمالي في ميناء إيلزمير وينستون في المملكة المتحدة ، آندريا ميلر المؤسسة لشركة بروكلِن غالم للرقص ، ولا أي من مئات الأشخاص الذين يحملون اسم آندي ميلر على فيسبوك ، بالذات ذلك الذي كتب ضمن قائمة هواياته واهتماماته : «النساء اللواتي يحضرن لي السندويشات» . وكل هؤلاء الذين يحملون اسم آندي ميلر يملكون ما يجعل كلّ واحد منهم فريدًا بذاته ، ولكن أحدًا منهم لا يشبهني . ولذلك قررت أن أحتفظ باسمي وأطبعه على غلاف هذا الكتاب ، لأنه اسم الرجل الذي قام بكتابته ، وللعلم فقط ، فأنا أُفضّل صنع سندويشاتي بنفسي . أما عن هواياتي واهتماماتي الأخرى فسوف تكتشفونها عمّا قريب في صفحات هذا الكتاب .

العمود الفقري لكتاب «سنة القراءة الخطرة» عبارة عن قائمة تحتوي على خمسين كتابًا ، عندما بدأت بالقراءة كانت أقل من هذا العدد بكثير ، ولكنني كنت مستمتعًا جدًا ولم أستطع التوقف . وفي عصر كهذا نجد أنفسنا غير قادرين على مقاومة قوائم قرائية كهذه . ولأننا دائمًا ما نكون في حالة من الاستهلاك للمعلومات وإصدار قرارات وأحكام سريعة بشأن كل شيء ، فلذلك نجد أنفسنا ننجذب باتجاه قوائم الأفضل والأسوأ ، و١٠٠١ شيء يجب أن نفعله قبل أن نموت .

«سنة القراءة الخطرة» وُلد من محاولة صادقة لقراءة عدد من الكتب التي نجحتُ في تفاديها والتهرّب منها لسبعة وثلاثين عامًا قضيتها على هذا الكوكب . وإن نظرت إلى قائمة الكتب الخمسين التي قمت باختيارها ، ستلاحظ تجاهلًا لبعض الروايات أو لبعض الكتّاب ، وذلك لأنني قد قرأتها من قبل ، أو ببساطة لأنني لا أريد قراءتها . ولم تكن هذه محاولة مني لأظهر بشكل غير تقليدي أو استفزازي ، على العكس تمامًا ، حدث كل هذا بطريقة تلقائية ، وكنت أحاول أن أكون صادقًا وعفويًا قدر الإمكان . وعند مرحلة معينة أصبحت أتبع كل ما يخطر لي دون تفكير ، فإن خطر لي قراءة «الرجل الفضي» ، أو «ملحمة جلجامش» ، أو أحد كتب هنري جيمس ، جوليان كوپ ، أو توني موريسون ، فإنني أفعلها مباشرة . ولا توجد رسالة خفية خلف هذه الاختيارات من الكتب . وإن نظرت إلى قائمة الكتب ستجد «قائمة الإصلاح» وسألت نفسك : «أين أبدايك؟ وولف أو ترولوپ؟ مارتينا كول أو جولز ڤيرني؟ هذه ليست رواية سرڤانتس التي كنت سأختارها . . ماذا عن «أوليس»؟ «الحارس في حقل الشوفان»؟ «الفتاة ذات الحلق اللؤلؤي»؟ كيف لهذه القائمة أن تُؤخذ على محمل الجد وهي تخلو من كتّابي المفضلين؟» عندها سأقترح عليك بكل احترام أن تكتب كتابك الخاص بك ، إلا إن كان اسمك آندي ميلر ، وفي هذه الحالة ستكون قد قمت بكتابته فعلًا .

وعلى كل حال ، فقد حاولت تفادي الإيمان السيء . لقد عشتُ هذا الكتاب . ثم فكرت في كتابته لسنوات طويلة . ثم كتبته أخيرًا .

ولذلك فإن «قائمة الإصلاح» عبارة عن مذكرات أكثر من

كونها بيانًا رسميًا ؛ أراها كدفتر للحسابات أكثر من كونها جدولًا للأعمال . أنا لا أحاول إقناعك بقراءة كل الكتب التي سأتحدث عنها هنا - لا توجد حاجة لذلك ، لأنه في مكان ما داخل عقلك ، هنالك قائمة أخرى خاصة بك ، ومحتواها يستند على شغفك ، فضولك ، حماستك ، أو شعورك بالذنب ، وأفكارك ، لا أفكاري . أي نوع من الكتب هذا «سنة القراءة الخطرة»؟ بسبب أننا محدودون بقوانين حقوق النشر والاستخدام العادل ، فلنعتبره عملًا من النقد الأدبي . وهو أيضًا كتاب مذكرات واعترافات . لم أحاول أن أشرح هذه الكتب فقط من خلال علاقاتها بكتب أخرى ؛ بدلًا من ذلك ، حاولت أن أدمج هذه الكتب - أن أُعيد دمجها - بالحياة اليومية العادية التي نعيشها ، هذه الحياة التي أصبحت أقل تواصلًا مع الفرد الذي يعيشها . في هذا الكتاب ستجد ملاحظاتٍ في الحواشي ، مراسلات إلكترونية ، ذكريات شخصية ، تدوينات ، وصفات ، سِير ذاتية ، آراء صارمة ، وبعض النكات . بإمكانك استخدام كل هذا للغش في جلسات القراءة الجماعية مع أصدقائك ، ولكني لا أنصحك بهذا ، لأنك قد تتلقّى بعض النظرات الغريبة . يحتوي هذا الكتاب على لغة بذيئة بعض الشيء وتغريدة واحدة ، أعتذر عنها مسبقًا . (أعتذر عن التغريدة لا عن اللغة) .

سنة ١٩٤٥ ، طُلب من الكاتب مالكولم لوري أن يكتب عن بعض خصائص روايته التي أرسلها للناشر تحت عنوان «أسفل البركان (الكتاب ٣٥)» . وفي رسالته المخادعة المكونة من ٤٠ صفحة ، كتب لوري في وصف روايته :

«يمكن قراءتها ببساطة على أنها قصة ، وبإمكانك تجاوز هذه

القصة إن أردت . ويمكن قراءتها على أنه قصة ستستفيد منها إن لم تتجاوزها . ويمكن اعتبارها سمفونية ، أو أوبرا ، أو حتى حصان أوبرا . إنها موسيقى ساخنة ، قصيدة ، أغنية ، مأساة ، كوميديا ، مهزلة ، وهكذا . إنها سطحية ، عميقة ، ممتعة ومملة ، على حسب الذوق . إنها نبوءة ، تحذير سياسي ، رسالة مشفّرة ، فيلم مستحيل ، وكتابة على الجدار . ويمكن أيضًا اعتبارها آلة : وبإمكانها العمل أيضًا ، صدّقوني ، هذا ما توصلت إليه أخيرًا .»

يمكن اعتبارها آلة : أعجبني هذا الوصف . كل كتاب هو عبارة عن آلة ، وهذا الكتاب أيضًا . عليك أن تقرأه كي تتمكن من اكتشاف كيفية عمله .

ما الذي يجعل أي كتاب عظيمًا؟ يعتمد الحكم على الكتاب وعلى المشغّل للكتاب . أعتقد أن «أسفل البركان» كتاب عظيم ١- لأنه أعجبني . ٢- لأن أغلب ما كتبه النقاد يدعم رأيي عنه . ولكن علينا الانتباه إلى أن تلك العظمة تعيد قياس نفسها دائمًا باختلاف الأشخاص واختلاف الكتب . لبعض القرّاء قد تدل العظمة على إتقان ثقافي جامح ، مثل عظمة تولستوي أو فلوبير ؛ وللبعض الآخر قد تدل على صرخة المتعة ، مثل «يوم ما» لديفد نيكولس : يا له من كتاب عظيم! وقد يدل أحيانا وصفُ «كتاب عظيم» على ركن أساسي من أركان التعاليم الغربية : كتاب كلاسيكي - تعريف الكتاب الكلاسيكي ، كتاب يَفترض الجميع قراءته ، ويعتقدون في أغلب الأحيان أنهم قاموا بقراءته فعلًا - والكتب العظيمة قد تكون مهمة فعلًا ، ولكنها ليس واضحة دائمًا أو ممتعة للقارئ . بعض هذه الكتب مثل «أسفل البركان» ، «أوليس» قد تتطلب قراءة كتب عظيمة أخرى كي يتمكن القارئ من فهمها . وقد تكون صعوبة

بعض الكتب تمثل نوعًا من الماسوشية المزعجة لمجموعة من القرّاء ، بينما تمثل مقياسًا للعبقرية الفنية لمجموعة أخرى . أيًا يكن ، لا أظن أن على الكتاب العظيم أن يكون ممتعًا ليصبح كتابًا عظيمًا . بعض الكتب تصبح عظيمة لأن الجميع يُقبل عليها ؛ وبعضها تصبح عظيمة بناءً على آراء النقاد مع تجاهل آراء العامة . كل هذه الكتب مُدرجة في «سنة القراءة الخطرة» . كل كتاب مذكور هنا بإمكانه أن يعتبر عظيمًا بطريقة أو بأخرى ، إما لأنه وُلد عظيمًا ، حقق العظمة ، تفاجأ بالعظمة وهي تُلقى عليه ، قررت «أوبرا وينفري» أنه عظيم ، أو جاء في المركز الحادي والثلاثين في تصويت مجلة Take a Break أو في مجلة Literary Review لاختيار أعظم الكتب في التاريخ . وينطبق هذا أيضًا على الكتابين غير العظيمين اللذين سأتحدث عنهما لاحقًا . أتمنى أن تكون الفكرة قد وصلت .

مؤخرًا ، عرضت قناة بي بي سي أول حلقة من «حياتي في الكتب» ، والتي يتم فيها مقابلة عدد من الشخصيات المعروفة للحديث عن خمسة كتب شكّلت جزءًا مهمًا في حياتهم . وبعد يوم من عرض الحلقة الأولى ، كنت في محل للبيع الكتب القديمة ، وعثرت هناك على كتاب يدعى «الكتب في حياتي» والذي نشر قبل خمسين سنة ؛ لم أسمع به من قبل ، وأشك أن منتج البرنامج قد سمع به أيضًا . أيًا يكن ، بدا لي أن «الكتب في حياتي» قريب من «سنة القراءة الخطرة» بعدة أشكال . وكما فعلت في هذا الكتاب ، قام هنري ميلر باستعراض قصص قرأها عندما كان طفلًا ، تأثير الروايات على خياله ، لغز الذائقة ، ومأزق الكتب العظيمة . وفي كتابه بعض الرسائل والمذكرات التي أضافها مع نص الكتاب . وهنالك قائمة بأفضل الكتب لديه ؛ وفي الكتاب أيضًا

فصل ساخر أسماه «القراءة في الحمام» . وبحتمية ما صدف أن اسمه الأخير «ميلر» . شعرت بالفزع من التشابه ، واشتريت الكتاب . ونظرت إلى الجانب المشرق ، على الأقل فإن اسمه الأول ليس آندي .

«الكتب في حياتي» عمل هنري ميلر ، صاحب رواية «مدار السرطان» . في مقدمة الكتاب يعرض هنري ميلر جملة بسيطة ليختصر فيها الكتّاب والكتب التي بقيت معه عبر السنوات : «لقد كانوا أحياء ، وكانوا يتحدثون معي!» لا أستطيع التفكير في طريقة أبلغ من هذه لوصف العظمة . سأستعيرها من هنري ميلر بكل امتنان وشكر . إنها تقبض على نوعية الكتب الذي كنت ألهث وراءه خلال سنة القراءة الخطرة ، تلك الكتب الحية التي تحدثت معي بينما كنت أحاول النجاة في حياتي اليومية : أتنقل في الطرقات ، أعمل في المكتب ، أتعامل مع حقيقة أنني أصبحت والدًا ، أشيخ كل يوم . «سنة القراءة الخطرة» يتحدث إذن عن الكتب العظيمة - قراءتها ، كتابتها - وكيف يمكن للحياة أن تعترض طريقها .

كان العقد الأول من القرن الواحد العشرين ، وقتًا رائعًا لأن تصبح عاشقًا للكتب . يحدث أن تسمع عن كتاب جديد من صديقك ، أو في نادٍ للقراءة على التلفاز . ربما قرأت مراجعة شخصٍ ما للكتاب . قمت بشراء الكتاب من سوبرماركت ، أو قمت بشراء النسخة الصوتية منه لتستمع إليها في سيارتك أو في النادي الرياضي . وخلال مشاركتك لكأس من النبيذ مع أصدقائك قمت بمناقشة أفكار الكتاب . ما شعورك تجاه الكتاب؟ هل تتفق مع الكاتب؟ وبعدها بمدة قد تجد أن الكاتب يناقش الكتاب ذاته في

مهرجان أدبي . رفعت يدك من بين الحضور وسألت سؤالًا : أصبحت جزءاً من الكتاب . وإن كانت لديك المعرفة التقنية الكافية ، فبإمكانك فعل كل هذا على الإنترنت . تستطيع تحميل نسخة إلكترونية من الكتاب على جهازك اللوحي ، ثم بإمكانك مشاركة أفكارك حول الكتاب مع مجتمع القرّاء . قمت بكتابة تغريدة ، ثم تدوينة مطولة عن الكتاب بينما تجلس في قطار ، أو تتأمل الطبيعة فوق جبل مرتفع . وانتقل الكتاب بهذه الطريقة من حزمة ورق ملتفة حول نفسها بمساعدة بعض الصمغ إلى رمز سري لفتح قاعدة تفاعلية من التجارب المستندة على الكتب ، وأغلبها تعتمد على أحاديث المستخدمين الآخرين في الفضاء الإلكتروني الواسع . وعند العودة للطريقة التقليدية في القراءة ومقارنتها بما يحدث الآن ، سنجد شخصًا يجلس وحيدًا في غرفته على كرسيه المتحرك ، يراقب أسطر الكلمات حتى انتهاء الصفحة .

باختصار ، كانت هذه هي الفترة من التاريخ التي بدأت فيها الجملة «أنت لست وحيدًا أبدًا برفقة كتاب جيد» تبتعد من كونها وعدًا ، لتصبح أقرب إلى ما يشبه التهديد .

أيًا يكن ، لم يكن الأمر بأكمله نقاشًا محفزًا ، بينما كانت هذه الابتكارات تحفز مجموعة معينة من القرّاء ، كانت المكتبات ومتاجر الكتب تصارع من أجل البقاء . منذ انتشار سلسلة متاجر الكتب الضخمة في ثمانينات القرن الماضي ، بكراسيها المريحة ، ومقاهيها الملحقة ، وجد أصحاب متاجر الكتب التقليدية صعوبة بالغة في البقاء والمنافسة . والآن أصبحت هيمنة سلسلة متاجر الكتب في خطر بسبب متاجر السوبر ماركت ، التي تعرض خصومات هائلة على الكتب الشهيرة ، وبسبب الإنترنت ، إن كان ببيع الكتب أو

بتحميلها مجانًا . بإمكان متجر كتب تقليدي أن يحتوي على عدة آلاف من الكتب ، بينما يحوي الإنترنت كل هذه الكتب بالإضافة إلى ملايين من الكتب الأخرى التي لا يمكن أن يحتويها متجر كتب .

في غضون ذلك ، بدأت المكتبات العامة بفقدان التمويل من السلطات المحلية التي تديرها . ميزانيات الكتب بدأت بالاختفاء . لبعض الوقت ، بدا وكأن هذه المؤسسات بإمكانها أن تنجو كمؤسسات اجتماعية - حيث تم تركيب محطات الإنترنت ، وقام وزراء الحكومة بإلقاء الخطب التي تتحدث عن مكتبات المستقبل ثلاثية الأبعاد «Facebook-3D» .[1] أيًا يكن ، بعد عملية السحق والتقشف التي حدثت بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية ، اعتبرت العديد من المكتبات العامة بمثابة ترف لا يمكن للمجتمع تحمل تكاليفه . تم إخبار أمناء المكتبات بأن خبراتهم غير ضرورية وأن أعمالهم بإمكانها أن تؤدى بواسطة متطوعين دون مقابل . وبدأت عملية إغلاق المكتبات . وانطلقت الاتهامات بالتخريب الثقافي ، وتم رفع بعض الدعاوى القضائية . نجح بعضها وأخفق بعضها . وواجهت المكتبات المدرسية القدر نفسه . وفي ولاية كاليفورنيا المفلسة ، قام المحافظ أرنولد شوارزنيجر باقتراح الاستغناء عن الكتب الورقية في المدارس ، واستبدالها بالكتب الإلكترونية والاتصال الدائم بالإنترنت ، لتصبح بوابة إلى المعرفة ، يقول : «إنه من غير المنطقي والمكلف أيضًا أن نهتم بالكتب الورقية التقليدية ، بينما

---

(١) آندري بيرنهام ، سكرتير الثقافة السابق ، من خطاب في منظمة المكتبات العامة ، ٩ أكتوبر ٢٠٠٨ .

بإمكاننا الحصول على قدر أكبر من المعلومات من خلال الطرق الإلكترونية .»[1]

قبل فترة ليست بالبعيدة ، مكثت مع عائلتي في كوخ قرب الريف . وفي كل صباح كنت أستيقظ لأعمل على مسودة هذا الكتاب -والذي تأخرت في إرساله للناشر- وخلال الظهيرة كنا نخرج في جولة لاستكشاف حياة الريف ، وننطلق بالسيارة إلى أقرب مدينة لشراء بعض ما نحتاجه من المتاجر . لم يكن الكوخ يحتوي على هاتف أو اتصال إنترنت . وفي إحدى الصباحات ، احتجت أن أراجع معلومة كتبتها عن رواية «موبي-ديك» ، ولكنني لم أُحضر نسختي معي ، فقلت لنفسي لا مشكلة سنذهب إلى المدينة المجاورة وسأجد نسخة في أحد متاجر الكتب وأتأكد من المعلومة دون أية مشاكل .

ولكن الرواية لم تكن موجودة على الإطلاق . متجر الكتب الوحيد في المدينة قد أغلق العام الماضي . وعندما ذهبت إلى المكتبة العامة أخبرتني المتطوعة التي تعمل هناك أن الكتاب غير موجود لديهم . سألتها إن كان بإمكاني استخدام اتصال الإنترنت ، فأخبرتني أنه معطل ، وسيتطلب الأمر عدة أيام لإصلاحه . وأخيرًا بعد طول عناء ، في سوبر ماركت على الطريق الدائري ، استطعت القبض على رائعة ملفل «موبي-ديك» . كانت واحدة من ضمن ١٠٠ كتاب كلاسيكي تحتويه لعبة تعمل على جهاز ننتندو دي إس .

لا أعلم إن كنت قد حاولت قراءة «موبي-ديك» على جهاز

---

(١) سان خوسيه ، أخبار ميركوري ، ٧ يونيو ٢٠٠٩ .

ننتندو دي إس من قبل ، ولكني لا أنصحك بالمحاولة أبدًا . الشاشتان اللتان تعملان بشكل خلّاق حين تشغيل لعبة سوبر ماريو أو باتمان ، لا تعملان بالتناغم ذاته حين تحاول أن تقرأ رواية ملقل عليهما ، النص يبدو كشبح ؛ وطفلي ألكس يحوم حولي كل عدة دقائق محاولًا الحصول على لعبته التي أخذتها منه .

يجب أن أعترف أن هذه القصة تدل على إمكانية حصولك على نسخة من «موبي-ديك» في أي مكان على الطريق العام . ربما تكون أيضًا دليلًا على قدرة الكتاب الفائقة على التأقلم . ولكن أهم من هذا كله ، هو دلالة القصة على تحول الكتب العظيمة إلى كتب هامشية في المستقبل . بالتأكيد «موبي-ديك» تستحق أن تكون أكثر من مجرد محتوى فضي على شاشة . أشعر بهذا حين أرى الكتب مكدسة فوق بعضها في السوبر ماركت ، كالصناديق ، أو علب البيرة ، أو قوالب الفحم ، وكنت مصدومًا لتذكري أنه لا يوجد شيء مميز بشأن الكتب إلا إن استثمرنا فيها ووضعنا فيها الجهد والقيمة ، وخلقنا الأماكن للاحتفاء بها .

القراءة كنيسة واسعة . ولكنها تظل كنيسة .

أظن أنه كان من سوء حظي وحسنه في الوقت ذاته أنني انشغلت بكتابة هذا الكتاب عن الكتب خلال ثورة من السعار الثقافي . هنالك عدد من القوى المتنافسة تهدد بتغيير الطريقة التي عرفنا بها القراءة ، ماذا نقرأ وكيف نقرأ -الإنترنت ، متاجر الكتب ، المكتبات العامة ، الحكومات . وقد أهدانا العقد الأخير المدونات ، أندية الكتب ، مهرجانات الأدب ، كل الأحاديث في الشبكات الاجتماعية . قد نعتبر هذه الإضافات تقدمًا ، ولكنها ليست التجربة الأصيلة ذاتها . إنها ليست القراءة .

لقد أهدرت الكثير من الحبر في محاولة الحديث عن الأشياء التي لا يمثلها الكتاب . خلال هذه السنة منحتني تجربة القراءة البطيئة لخمسين كتابًا عظيمًا -وكتابين غير عظيمين- حياتي من جديد . كل الأفعال التي أصفها في الكتاب كانت بسبب إلهام مقطع رائع قرأته ، وبسبب محادثة طويلة خضتها مع نفسي . كنت وحدي أمثل «Facebook-3D» الخاص بي ؛ عدد الأصدقاء : واحد . وأريدك أن تضع في اعتبارك عندما تقرأ هذا الكتاب أنه دفاع مستميت عن عنصرين أساسيين أظن أنهما يواجهان الخطر الأكبر بسبب رغبتنا في القراءة أمام الجميع وبصوت مرتفع : الصبر والعزلة .

لأنك إن توقفت وفكرت بالأمر للحظة ، فستكتشف أن كل ما تبقى هو وقت مستقطع .

I

«الكتابة تجلب راحة مؤقتة . إنها تتبع الأثر ، وتحسب التخوم . إنها تعير لمسة من التماسك ، فكرةً واقعية . غريبٌ يفاجأ بضباب قاسٍ ، وأمامه المؤشر الغريب . الفوضى أبعد من عدة أقدام . انتصار هزيلٌ ، في الحقيقة .

يا له من تباين مع المطلق ، معجزة القراءة! حياة كاملة من القراءة بإمكانها أن تشبع كل رغباتي ؛ لقد عرفت ذلك عندما كنت في السابعة من عمري . ملمس العالم مؤلم ، غير ملائم ، غير قابل للتغيير ، أو على الأقل هكذا يبدو لي . فعلًا ، أظن أن حياة كاملة من القراءة ستكون أفضل حيواتي .

حياة كهذه لم تمنح لي .»

ميشيل ويلبك
أيًا يكن

«بإمكاني إن كنت محظوظًا ، أن أبدأ بالرثاء العميق المتصل بكل فن حقيقي بسبب الخرق بين قيمه الأبدية والعالم المشوش - هذا العالم طبعًا ، بالكاد يمكن لومه بسبب اعتبار الأدب رفاهية أو لعبة ، إلا إن كان يمكن أن يستخدم كدليل مستخدم معاصر .»

ڤلاديمير نابوكوف
محاضرات حول الأدب الروسي

الكتاب الأول

المعلم ومارغريتا – ميخائيل بولغاكوف

حياتي عادية جدًا . إنها كئيبة تمامًا كحياتك .

هذا هو السر . صباح كل يوم من أيام الأسبوع ، يوقظنا المنبه عند ٤٥ :٥ صباحًا ، إن لم يوقظنا طفلنا قبل هذا الوقت ، والذي يفعلها في بعض –معظم– الأحيان . عمره ٣ سنوات . عندما انتقلنا إلى هذا المنزل قبل سنة ، اشترينا مشغل أسطوانات وراديو لغرفة النوم . ولأنه من النوع الرخيص ، كان مشغل الأسطوانات انتقائيًا تجاه ما يريد تشغيله . وعندما يعمل –نادرًا ما يحدث ذلك– كانت أول أغنية نبدأ بها اليوم هي «I Start Counting» الأولى على قائمة Fuzzy-Felt Folk ، وهي مجموعة من أغاني الفولك للأطفال . (لعدة أسابيع بعد شرائنا لمشغل الأسطوانات ، جربنا عدة نغمات للمنبه ، من فرانك سيناترا ، ستووغس ، حتى إبراهيم الأب ، وأغنية السنافر . ولكن سرعان ما تحولت متعة اختيار نغمة جديدة كل ليلة إلى عقبة حالت بيننا وبين ما نشتهي – أن نخلد للنوم .) «I Start Counting» أغنية رقيقة وخفيفة على الأذن ، تشبه جولة في باص يأخذك إلى بلاد الصباح ، ومشغل الأسطوانات المتقلب يبدو معجبًا بها . لذلك قررنا أن نستقر عليها .

«هذه السنة ، السنة القادمة ، أحيانًا ، أبدًا .»

ولكن في بعض الصباحات يفشل مشغل الأسطوانات في

إيقاظنا ، ويبدأ الراديو بالعمل بدلًا عنه . في هذه الصباحات نستيقظ عند الساعة ٤٥ :٥ صباحًا ، ولكن ليس على صوت ناعم لأغنيتنا المحببة «I Start Counting» ولكن على الصوت العنيف للبرنامج الإذاعي «الزراعة اليوم» بأعلى درجة ممكنة ، وعلى صراخ طفلنا قليل الصبر ، والذي قد استيقظ قبلها ببعض الوقت ليسأل : «هل حان الصباح؟» مرة بعد أخرى من خلف قضبان سريره . ونحن مستلقيان على السرير كالحُطام . شخص محظوظ في مكان ما يقوم بحلب بقرة الآن .

أتعثر بالدرج لأنزل وأعد كأسًا من الشاي . وبينما أنتظر الماء ليغلي ، أضع قطعة من الخبز لطفلي ، وأتناول بعض الفيتامينات بسرعة ، زيت السمك للبشرة الجافة ، وبعض الكالسيوم (بالإضافة إلى فيتامين دي) لأجل العظام . حبوب الكالسيوم عبارة عن محاولة لترميم ما أفسدته حميتي التي التزمت بها قبل أربع سنوات ، لأنني أردت أن أخسر بعض الوزن قبل ولادة ألكس ، وأحد الأعراض الجانبية لها ، غير الخسارة الدرامية للوزن ، هي الحكّة التي كنت أصاب بها في ساقي عند انخفاض الكالسيوم لدي . اختفى الألم منذ فترة ، ولكني بقيت محافظًا على حبوب الكالسيوم كعادة لم أستطع التخلص منها . في تلك الفترة كان عملي يشعرني بالبؤس . لوقت طويل جدًا كنت أتناول الكثير من الطعام ، أشرب النبيذ مع الغداء ، والبيرة في البار بعد انتهائي من العمل ، ووصلت إلى أن أصبحت لأول مرة رجلًا بدينا في بداية الثلاثينات من عمري بوجه بدين . ولكنني تجاوزت تلك المرحلة وخسرت بعض الوزن ، لهذا السبب ، ولقلة نومي ، نجحت أخيرًا في الحصول على وجه نحيل . معارفي الذين لم يروني لبعض الوقت ،

كانوا يسألونني إن كنت على ما يرام : «هل كنت مريضًا؟» أحب تلقي هذا السؤال .

أصبح الماء ساخنًا ، أصبه على كيس الشاي Twinings ليقع في الكوب الذي يحمل شكل قطة زرقاء ، والذي ابتعته من سوق كامدن في بداية التسعينات ، بعد أن التقيت بزوجتي تينا ، والتي أحبت ذلك الكوب لأسباب عاطفية وأخرى متعلقة بحجمه المثالي والملائم لشرب الشاي صباحًا .(١) أحيانا أضع الكوب والشاي على طاولة المطبخ قبل أن أذهب للنوم ، حتى أجدهما في انتظاري عندما أستيقظ ، وأحيانا لا أضعهما . أحرك كيس الشاي ، وأعصره بحافة الكوب للأسفل . ثم ألقي به في الحاوية ، أصب الحليب قليل الدسم ، أحرك الشاي قليلًا ، وأضع الملعقة جانبًا حتى أستطيع استخدامها لاحقًا بعد ساعة لتناول نصف قطعة فاكهة - عنصر آخر نجى من حميتي السابقة . لحظة ، أظنني مازلت محافظًا على حميتي . لم أعد أشرب البيرة ، وبالكاد أتناول بعض الكعك ، الشوكولاتة ، البسكويت .

إن كانت القراءة عن هذه الحمية ، تضعف من عزيمتك ، حاول أن تعيشها كواقع .

أحضر الشاي لزوجتي في فراشها . إن كان صباحها جيدًا ، ستكون تنتظرني هناك لكي تأخذ كوب الشاي الساخن مني ، ولكن أحيانًا حين آتي إلى غرفة النوم بكوب الشاي في يدي ، أجدها قد عادت إلى النوم مرة أخرى ، وعلي أن أوقظها ، وأفاوضها حتى تتمكن سن الاستقرار في وضعية جلوس على السرير . هذا

(١) الكوب أزرق اللون ، والقطة بلون الزنجبيل .

الأمر يثير غضبي . مازلت أقوم بهذا الواجب الصغير لثلاثة عشر عامًا ؛ بالتأكيد فإنه من المسموح لي أن أتذمر إلى درجة معينة ، لأنها تنعم بدقائق من النوم اللذيذ ، بينما أقوم أنا بالنزول وإعداد الشاي لها ، ولا يجعلها هذا تتعب نفسها وتنهض لكي تجلس على السرير؟ خلال هذه المعركة اليومية الصغيرة ، يكون ألكس طفلي ذو الثلاث سنوات قد نجح في التسلق إلى السرير ، وهكذا تتوقف كل محاولة للاسترخاء . تستلقي العائلة في السرير ، مكتملة العدد . إنها أفضل دقائق اليوم .

في تلك اللحظات ، يتوجب علينا اتخاذ بعض القرارات ، بناءً على جدول عملي وعمل زوجتي ، ومَن يتوجب عليه أن يذهب إلى لندن اليوم . أنا وتينا لدينا جدول عمل مرن ، يُمكننا من العمل من المنزل خلال بعض أيام الأسبوع . فأعتني أنا بألكس يوم الخميس ، وتعتني هي به يوم الإثنين . وفي أيام الثلاثاء ، الأربعاء ، والجمعة ، نضعه في الحضانة من السابعة والنصف صباحًا وحتى الخامسة والنصف مساءً . ووالدة تينا تساعد في إيصاله وجلبه من الحضانة ، وكذلك تساعد في غسيل وكي الملابس . وندفع لها مقابلًا ماديًا كل شهر نظير عملها . أيًا يكن ، بدفعنا لهذا المقابل المادي ، أصبحت والدة تينا تمانع القيام بأي من مهامها كجدة خارج نطاق الاتفاقية التي عقدناها . نادرًا ما نصل أنا وتينا إلى المنزل بعد يوم طويل من العمل ، لنفاجأ بأنها قامت بصنع بعض الكعك أو الحلويات .

أيًا يكن ، يذهب أحدنا لعمله في لندن ، أو يذهب كلانا . إن كنت أنا من سيذهب ، أحاول أن أجد الوقت الكافي لتناول الفطور ، وهو الفطور ذاته الذي أتناوله كل يوم ، ما عدا يوم الأحد ،

نصف قطعة جريب فروت ، كأس من عصير البرتقال ، قطعة من خبز البر ، وبعض «المارمايت» ، وكوب من القهوة السوداء المركزة . أما يوم الأحد ، فأشرب قهوتي ، وأتناول قطعة كروسان ساخنة ، ومربى فراولة لذيذ . وبعد ستة أيام من التقشف ، خلطة الأحد المفاجئة من السكر ، الكافيين ، والسعادة ، تقذف بي إلى حالة من قمة النشوة . وهذه اللحظات هي الأكثر امتلاءً بالحياة بالنسبة لي طوال الأسبوع . لمدة نصف ساعة كل شيء يبدو ممكنًا .

قيل عن الفيلسوف لوفيغ فيتغنشتاين أنه لم يكن يمانع أي طعام يتناوله طالما كان الطعام المتكرر ذاته ، ورغم هذا أتخيل أن فيتغنشتاين نادرًا ، إن كان قد فعلها من الأساس ، ما قام بوضع غدائه في صندوق ليأخذه معه للعمل . إن كنت سأعمل في لندن ، دائمًا آخذ معي : سندويش لحم ، طماطم ، رقائق بطاطس ، وتفاحة ، وأتناول كل هذا على مكتبي .[1] وإن كنت سأتناول الغداء في مطعم مع زميل لي أو عميل ، أجهز غدائي نفسه وأحمله معي ، لأتناوله بعدها بـ١٢ ساعة وأنا في القطار خلال عودتي إلى المنزل في نهاية اليوم . وعندها يكون مذاقه بائسًا بالتأكيد . لماذا أستمر في فعل هذا؟ لأنني لا أملك الطاقة الكافية للتفكير في ابتكار أطعمة أخرى ، حتى مع علمي أن هذا الطعام الذي أعده ، قد يتسبب في اختناقي يومًا ما .

(١) أحيانًا أشعر أنني مثل نيتشه في كتابه (هذا هو الإنسان) ، وأشعر بأنه من الملائم الحديث عن العادات الغذائية . مثل ذوقه تجاه الزيت الثقيل الخالي من الكاكاو ، لأنه مقتنع بأن كل شيء يهمه يحتوي على فائدة بالتأكيد .
ميشيل ويلبك ، أعداء عموميون .

(لمعلوماتك فقط السيدة ميلر لا تتناول فطورها ، ونادرًا ما تعد سندويشاتها بنفسها ، وتضع موزة في حقيبتها ، وتحتفظ بصندوق من الشوفان سريع التحضير في درج مكتبها .)

أحدنا ، أو كلانا نغادر المنزل عند الساعة ٣٠ :٦ صباحًا ، بالتأكيد قبل ٣٠ :٦ صباحًا . وكلانا يفضل قطار الساعة ٤٤ :٦ صباحًا ، والذي تديره شركة قطارات ساوثيسترن . المحادثات في محطة القطار قليلة أو معدومة ، لأن أغلب الركّاب نائمون . أما قطار الساعة ٠٣ :٧ صباحًا فيتوقف بك عند محطة ڤيكتوريا عند ساعة الذروة ، بينما يمتلئ قطار الساعة٢٢ : ٧ صباحًا عند محطة كاثام ، التي تمتلئ بالبشر في ذلك الوقت . ولكن لقطار الساعة ٤٤ :٦ صباحًا عيوبه أيضًا . كلانا نأخذ هذا القطار ونحن خائفان من الجلوس بجانب امرأة تلتحق بالقطار عند محطة سيتنغبورن وتنجح في وضع مناكيرها كل يوم بفرشاتها حتى وصولنا إلى محطة راينهام ، ثم تبدأ بوضع كريم اليدين حتى محطة غيلنغهام ، ثم زيت المساج حتى محطة روتشستر . وعندما تنتهي من كل هذه الإضافات ، تنعس وتنام لبرهة بفمها المفتوح حتى وصولنا إلى محطة بروملي ساوث ، حيث تغادر القطار . ولهذه المرأة اسم مستعار أطلقناه عليها أنا وتينا ، «السيدة أتريكسو» . وإن جلست بجانبي أقوم بإرسال رسالة إلى تينا قائلًا : «آه ، أتريكسو!»

يصل قطارنا للمدينة . يتبع ذلك ركوب الباص أو ركوب الأمواج . ثم العمل . والعمل يستمر طوال اليوم ، وأحيانا أكثر .

بينما يستمتع ابني في هذه اللحظات بوقته في الحضانة ، ويحظى بيوم مرتب ومليء بالأنشطة المسلية بصحبة عدد من الأطفال وفتيات شابات للاعتناء بهم تتراوح أعمارهن بين الثامنة

عشرة والخامسة والعشرين . بإمكان ابني أن يلعب the Duplo . أو بإمكانه تقمص شخصية «دكتور هو» لبعض الوقت . ربما يخبر إحدى الفتيات عما حدث في آخر عيد للأم . لا نعرف تمامًا لأننا لسنا معه الآن . في الغالب يستمتع بتناول إفطاره ، غدائه ، وشايه بينما يجلس على طاولة صغيرة برفقة أصدقائه . بالتأكيد السبب الوحيد الذي جعله يصادق هؤلاء الأطفال هو أنه مجبور على الذهاب للحضانة وقضاء ساعات طويلة فيها لثلاثة أيام كل أسبوع . إنهم أشبه بالزملاء بالنسبة له . وفي نهاية اليوم يجلس الجميع – الأطفال والمراقبات– أمام شاشة التلفاز ليشاهدوه حتى يصل أهالي الأطفال لأخذهم .

ساندويش ، حمام دافئ ، قليل من مشاهدة التلفاز ، سرير ، قصص ، نوم . ومكالمة هاتفية من الأب أو من الأم لتمني ليلة سعيدة للطفل قبل أن يخلد للنوم .

الروتين اليومي كل ليلة للأب والأم يتبع نمطًا متكررًا ، بنصف زجاجة نبيذ وربما بعض الطعام المطبوخ ، وأحيانًا يكون الطعام مطبوخًا من الصفر . يخلد الأب والأم للنوم عند العاشرة مساءً ، إلا في حالة حدوث شيء خلال اليوم يستحق التفكير بشأنه ، يتعلق بالعمل ربما ، مشادّة كلامية في المكتب مثلًا .

وهكذا يمضي الأسبوع . عطلات نهاية الأسبوع وأيام العائلة أقل صرامة ولكنها ماتزال تحتفظ بترتيبها ونمطها وواجباتها – إنهاء بعض الأعمال الورقية ، الذهاب للحلاق ، التسوق كل أسبوع ، زيارة من بعض الأصدقاء وأطفالهم ، رحلات طريق طويلة لزيارة العائلة . بإمكان هذا أن يكون ممتعًا ولكنه يعيق عفوية الأمر . بالإضافة إلى أننا لا نملك الوقت الكافي . ويأتي يوم الإثنين معلنًا

بداية الأسبوع مرة أخرى ، لنبدأ بالعدّ مجددًا . «هذه السنة ، السنة القادمة ، أحيانًا للأبد .»

أفترض أننا عائلة سعيدة . بالتأكيد نحن نحب بعضنا . منذ ثلاث سنوات وأنا وزوجتي نعمل في الوقت نفسه . وخلال هذه السنوات الثلاث قرأت كتابًا واحدًا فقط . «شفرة دافنشي» لدان براون .

إنه يوم الخميس ، وفي يوم الخميس أتكفل بالاعتناء بألكس . لذلك قمت بوضع المناديل المبللة وبنطلون إضافي لأخذ الحيطة ، وبعد الغداء اتجهنا معًا إلى برودستيرز .

برودستيرز تقع على بعد نصف ساعة في الساحل الشمالي للمكان الذي نعيش فيه . بالنسبة لأب يعتني بابنه في يوم الخميس ، تعتبر برودستيرز اختيارًا جذابًا للزيارة ، فهناك الخليج يحصر الشاطئ الرملي المليء بالأراجيح والألعاب . هذه دار سينما صغيرة وقديمة . وعلى ممر المشاة الموازي للشاطئ تجد آيس كريم موريلي الشهير . والمنحدر الطويل الذي يصل بين المحطة والبحر يضمن بالتأكيد قيلولة قصيرة لكل من يقطع هذه المسافة على كرسيه المتحرك .

أيًا يكن ، هذا يوم خميس في نهاية شهر نوفمبر . السينما مغلقة . الأراجيح والألعاب قرب الشاطئ مغطاة في الشتاء ، والبحر شديد العواصف والطقس بارد جدًا . المطر الذي حيانا عند المحطة ، أصبح أكثر غزارة بينما كنا نقطع طريقنا في الوحل باتجاه المدينة ، في مواجهة الريح ، لنتوقف للاحتماء قرب عتبة باب متجر خيري كي نتمكن من إخراج أغطية المطر البلاستيكية .

في محل آيس كريم موريلي ، نحن الوحيدان اللذان نتناول

الآيس كريم . ويبدو أننا الزبونان الوحيدان أيضًا تحت سن الستين . وحولنا ، مجموعة من المتقاعدين يشربون قهوتهم ويحاولون ألاّ ينظروا إليّ . من خلال خبرتي خلال السنوات القليلة الماضية اكتشفت أن الناس يرتاحون أكثر في التلفاز لفكرة الأب وابنه الصغير من ارتياحهم لها في الواقع ، لأنهم يبدأون بالقلق . هل الأم ميتة؟ هل نحن أمام حالة خطف؟ في الربيع والصيف ، يمتلئ هذا المكان بالحياة ، الكثير من العائلات التي جاءت لقضاء الإجازة ، ويمتلئ أيضًا بالأطفال الذين يرقصون أينما توجد موسيقى . أما اليوم فيبدو خليج الفايكنغ مختفيًا من وراء نوافذ ضبابية .

نغادر محل آيس كريم موريلي ونسير على الممر المحاذي للماء باتجاه متحف تشارلز ديكنز . همم ، في وقت آخر . ولكن عند الزاوية على شارع ألبيون وجدت متجر ألبيون لبيع الكتب . دفعت عربة طفلي ألكس بسرعة وأنا أصعد الدرج ، ثم وضعت قدمي أمام الباب الثقيل لأبقيه مفتوحًا ، وعندما تمكنا أخيرًا من الدخول حاول العثور على زاوية نستطيع اللجوء إليها كي لا نعترض طريق أحد ، برغم أن المتجر كان خاليًا . وعلى الشارع نفسه هنالك متجر ألبيون آخر ، ضخم ، كئيب بطريقة ساحرة ، إنه المكان المناسب لأب مثلي ، أستطيع أن أنسى هنا كل علاقة لي بالعالم الخارجي ، ولكنه ليس مسليًا على الإطلاق بالنسبة لطفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات . بينما قرر ألكس أي كتب «مستر مِن» سيأخذ ، كنت أتفقد بعض العناوين على الرف . هنالك قسم لفن الطبخ ، وقسم عن تاريخ مدينة برودستيرز ، وقسم لدان براون ، بكتبه الثلاثة حتى الآن : «شفرة دافنشي» ، «ملائكة وشياطين» ، وكتابان آخران ، بالإضافة إلى كتب أخرى عديدة تناقش أعماله مثل «حل شفرة

داڤنشي» .[1] وعلى رف الروايات بين ميف بينتشي و«مسيرة الحاج» ، كنت متفاجئًا عندما وجدت «المعلم ومارغريتا» لميخائيل بولغاكوف . أخذت الكتاب - من الحجم الصغير ، ٣,٩٩£ ، قيمة جيدة . القطة المبتسمة على الغلاف تجعل ألكس يضحك ، بعدها آخذ الرواية مع ما اختاره ألكس ، «السيد صغير» .

حان الوقت لنذهب إلى المنزل . وفي طريق العودة الطويل والمرتفع على التل إلى محطة برودستيرز ، يبدأ أخيرًا المزيج الساحر من نسيم البحر والأيس كريم الذي قام ألكس بتناوله بجعله يشعر بالنعاس . نجد مكانًا لنا في القطار قرب دورة المياه ، لينام ألكس ، وأجد نفسي وحيدًا دون أي شيء أفعله في النصف ساعة القادمة ، لذلك بدأت بالقراءة .

«السيد صغير كان صغيرًا جدًا . ربما كان أصغر شخص قد رأيته في حياتك بأكملها .»

لا ، من الأفضل أن أنتظر حتى يستيقظ ألكس وأقرأ له هذا الكتاب ، سأنتقل للكتاب الآخر .

«عند ساعة الغروب من يوم ربيعي دافئ تمت رؤية رجلين في ساحة برك البطريرك . . .»

لاحقًا في تلك الليلة ، بعد قراءة قصة السيد صغير لثلاث مرات متتالية ، وبعد أن خلد ألكس للنوم في غرفته ، خاطرت بقراءة صفحات إضافية من «المعلم ومارغريتا» . الرجلان في ساحة برك البطريرك في موسكو كانا ميخائيل ألكساندروفتش برليوز ،

---

(١) أعلم أن الدم المقدس والكأس المقدس نشرت قبل شفرة داڤنشي بوقت طويل . ٤ الكتاب برتقالي ، القطة سوداء .

المحرر لمجلة ثقافية رفيعة ، والشاعر إيڤان نيكولايتش پونريوف ، «الذي كان يكتب تحت الاسم المستعار بِزدومني» . وقبل أن تتسنى لهم الفرصة حتى للمزاح مع بعضهما تظهر شخصية ثالثة :

«فقط في تلك اللحظة تجمد الهواء الحار وحاك من نفسه رجلًا - رجلًا شفافًا بجسد غريب . وعلى رأسه الصغير كان يرتدي قبعة فارس ، أما بنطاله فكان مصنوعًا من الهواء . كان طول الرجل سبعة أقدام ، ولكنه كان نحيلًا جدًا عند كتفيه ، بجسد هزيل ، ووجه خُلق ليتعرّض للسخرية .»

بدت هذه الشخصية ، «كان يتمايل من اليسار إلى اليمين . دون أن يلمس الأرض» ، وكأنها الشيطان . ولكنه تجلّى لاحقًا وعبر عن هويته ليختفي الشيطان . ثم بعد ذلك بفترة قصيرة ، التقى برليوز ، وبِزدومني ببروفسور مجهول الهوية ، ولا نعلم من أي بلد جاء . يخوض ثلاثتهم محادثة محيرة وغامضة . وعند نهاية الفصل الأول تنتقل الأحداث بشكل مفاجئ إلى روما في عصر السيد المسيح ، وقصر حاكم روما بيلاطس البنطي . هاه؟

لا أستطيع بصراحة فهم ما حدث . ولكن شفافية الدهشة التي أشعر بها من قراءة كتاب كهذا بعد فترة طويلة من عدم القراءة تعتبر بحد ذاتها مكافأة مجزية . إنني أقوم بأمر صعب - لقد أحسنت .

«سوف يُقطع رأسك!» يقوم البروفسور بإبلاغ برليوز خلال خوضهما في حديثهما الطويل ، «سوف تقطع رأسك امرأة روسية ، عضو في الكومسومول .» (لا أعلم أبدًا ماذا يعني الكومسومول .) وبعد الانعطاف المحير في روما في الفصل الثاني ، وعندما يعود المحرر والشاعر إلى مكان المشهد الأول عند ساحة برك البطريرك يقرران أن

البروفسور رجل مجنون – «كانت عينه اليسرى الخضراء تدل على رجل مجنون ، وكانت عينه اليمنى السوداء ميتة دون مشاعر على الإطلاق» . ينطلق برليوز ليترك بِزدومني يراقب هذا المعتوه ، ليبحث عن هاتف يمكنه من خلاله الاتصال بالسلطات . («يصرخ البروفسور : «ألا تريدني أن أبعث بتلغرام إلى عمك في كييف؟» مفاجأة أخرى – كيف استطاع هذا الرجل المجنون أن يعرف بوجود عمه في كييف؟»)

ثم يحدث أمر آخر :

«يركض برليوز باتجاه الحاجز الدوّار ليدفعه وبمجرد مروره من خلال الباب كان على الرصيف وأوشك على تجاوز خط الترام ليرى أمامه فجأة ضوءاً أبيضًا وأحمرًا يلمع في وجهه ، لتعمل إشارة الرصيف بالكلمتين «توقف! طريق الترام!» ثم يدخل الترام إلى المشهد ، ليسلك طريق يرمولايفسكي ويصل إلى برونايا . وعند التحاقه بالخط الرئيسي أضيئت مصابيحه ، وأصدر ضجيجًا وبدأ بالتسارع .

برغم أن برليوز كان يقف بأمان ، إلا أنه قرر أن يأخذ حيطته ويتراجع خلف السور . وضع يده على الحاجز الدوار وعاد للوراء . أخطأت يده الحاجز وانزلقت قدمه على الحصى كما ينزلق أحدهم على الثلج . وهكذا انزلق باتجاه خط الترام وأصبح برليوز على الأرض . وأصيب رأسه إصابة بالغة بسبب الحصى ، ليلمع القمر الذهبي بغموض على مرأى بصره . كان يملك الوقت الكافي فقط ليلتفت ويضم قدميه نحو معدته بحركة مسعورة ، وعندما أكمل التفاتته رأى وجه سائقة الترام ، بيضاء وفوق ربطة عنقها تبدو ملامح الهلع على وجهها ، لتتجه نحوه بسرعة لا تقاوم . لم يحدث

برليوز أي ضجيج ، ولكن كان الشارع من حوله يضج بأصوات النساء اللواتي كن يصرخن . أمسكت السائقة بالمكبح الكهربائي ، اندفعت المركبة إلى الأمام ، تجاوزت القضبان الحديدة وباصطدام له رنين تحطمت كل النوافذ الزجاجية . في تلك اللحظة سمع برليوز صوتًا يائسًا : «أوه ، لا .!» وثانية للمرة الأخيرة التمع القمر أمام عينيه ولكنه تحطم إلى شظايا واتجه إلى السواد .

اختفى برليوز من النظر أسفل الترام وتدحرج جسم دائري ، مظلم على الرصيف ، حتى استقر بحركة بطيئة .

كان رأسًا مقطوعًا .»

فوقل يخبرني أن كومسومول تدل على اسم شهير للجناح الشاب من الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي وليس شبكة ترام موسكو المحلية .

هذا هو مفترق الطرق ، حيث تتخذ حياتي مسارًا مختلفًا . هذه هي اللحظة التي قررت فيها أن أنهي قراءة هذا الكتاب - رأس مقطوع يتدحرج على الرصيف . علي أن أعرف ماذا سيحدث لاحقًا .

ميخائيل بولغاكوف ولد في كييف سنة ١٨٩١ وتوفي في موسكو سنة ١٩٤٠ وحسب علمي أنه لم يزر برودستيرز قط في حياته - لم يزر متحف ديكنز في ظهيرة يوم حار ، لم يطلب ميلك شيك من محل موريلي . ولكن لنتظاهر أنه قام بكل هذا . تخيل أنه ذهب إلى متجر ألبيون للكتب في شارع ألبيون ووجد ، كما وجدت أنا ، نسخة من كتاب يدعى «المعلم ومارغريتا» ، ووجد اسمه على غلافها . لعدد من الأسباب سوف يصاب بالدهشة .

Мастер и Маргарита، تترجم عادةً «المعلم ومارغريتا» ، ولكنها

لم تنشر بهذا الاسم حتى توفي بولغاكوف، لأنها كانت ممنوعة من النشر. ولسنوات عديدة كانت متاحة كساميزدات (نوع من الكتابة والنشر يمارسه المنشقون عن الاتحاد السوفيتي سرًا)؛ وفي حالة حيازة نسخة منها قد يتعرض صاحبها إلى السجن. وحتى في أول ظهور رسمي لها سنة ١٩٦٦ كانت تحت الرقابة؛ ولم تنشر أول نسخة كاملة منها حتى سنة ١٩٧٣ ومع ذلك فهي متاحة الآن للشراء باللغة الإنجليزية أيضًا. «Боже мой»[١] .

سبب آخر سيجعل بولغاكوف يندهش عندما يعثر على روايته باللغة الإنجليزية في متجر كتب صغير، وربما يضطر للخروج للشارع قليلًا ليتنفس، ويشعل سيجارة بيده المرتجفة - « Я нуждаюсь в дыме »[٢] أنه حتى عندما توفي بولغاكوف لم يكن الكتاب قد اكتمل تمامًا. أول مسودة من الرواية تم إلقاؤها في موقد سنة ١٩٣٠، بعد أن علم بولغاكوف أن مسرحيته «عصابة من المنافقين» منعت من قبل السلطات السوفيتية (والتي لم تهتم بالتأكيد للعنوان). وبعد خمس سنوات من العمل تخلص من مسودة ثانية سنة ١٩٣٠، ثم بدأ بمسودة ثالثة في السنة ذاتها، وبدأ بنحتها وتعديلها، ووضع بعض اللمسات، حتى شهر إبريل من سنة ١٩٣٦، عندما أرغمه المرض على ترك عمله. وبعدها بأسابيع قليلة، انتهت صلاحية بولغاكوف. كانت Мастер и Маргарита قد انتهت بمجهود زوجته، إلينا سيرجييڤنا؛ وكانت هي من قضت

---

(١) يا إلهي!

(٢) إنني بحاجة إلى سيجارة!

خمسة وعشرين عامًا من حياتها وهي تحاول نشرها .

«Елена, моя ething любовь, есть кое-что, что мы должны обсудить ..»[١] .

هل قرأت «المعلم ومارغريتا»؟ لا يمكن إنكار حقيقة أن الجزء الأول من الكتاب كان غامضًا ويمتلئ بالنكات التي تهزأ بالسوفييت أفرادًا ومؤسسات في الحقبة الأولى ، ومعظم هذه النكات لا يمكن أن يفهمها سوى سكان موسكو من الجيل الذي عاش في بداية القرن التاسع عشر وشهد على أحداث التاريخ الروسي . ثم ينتقل الكتاب للحديث عن روما وبيلاطس البنطي . إنه كتاب من النوع الذي يجب عليك أن تثق في كاتبه حتى تتمكن من إنهائه .

إليكم ملخص حبكة الرواية . يهبط الشيطان في موسكو ، متنكرًا كساحر . تحيطه حاشية شيطانية : ساحرة ، خادم ، تابع أمين شديد له ناب بارز ، وقطة ضخمة قادرة على الكلام تدعى بيهموث ، مخططة كنمر . تترك العصابة الشريرة وراءها أثرًا من الخوف والدمار ينتشر في المشهد الثقافي والسياسي لمدينة موسكو . أحيانا يكون هذا مسليًا على نحو بشع ، أو ربما مخيفًا ؛ وأظنه دائمًا ما يشمل الوصفين معًا . وفي هذا الملجأ المجنون نتعرف على المعلم ، كاتب محبط قام بكتابة رواية عن المسيح وبيلاطس البنطي (آه ، فهمت الآن!) تم رفضها لأسباب تافهة . فكانت ردة فعله أن قام بحرق مسودة الرواية ، وانعزل عن العالم ، لدرجة أنه قام بالصدود عن حبيبته مارغريتا ، والتي كانت تؤمن بأعماله .

بالتأكيد ، كان جزء السيرة الذاتية والاستذكار المفصل هو أكثر ما أعجبت به ، أما الأهداف الشيوعية التي كانت تسعى هذه

---

(١) إيلينا ، حبيبتي ، هنالك شيء علينا أن نناقشه .

الرواية لتحقيقها ظلت غير واضحة بالنسبة لي . وعودة للقصة ذاتها ، الوعد بالرأس المقطوع كان بطيئًا كي يتم استيعابه . وبالنسبة لي لو لم أكن أشعر بالحنين للعودة لقراءة الكتب ، لما أكملت الرواية ؛ في الأيام الأولى كنت مجبرًا لفعل ذلك بأكثر من مجرد عنادي . إنه مجرد كتاب ؛ وأنا أحب قراءة الكتب ؛ ولن يستطيع هذا الكتاب أن ينال مني . وكلما قرأت أكثر ، كلما فهمت أكثر- أو بالأحرى ، فهمت أنني لست مطالبًا بالفهم . إن تركت الكتاب كما هو ، سيحملني بدلًا من أن أحمله .

«المعلم ومارغريتا» تبدأ ككابوس يمشي على قدمين . وتشبه في صرامة كابوسها هذا رواية «أليس في بلاد العجائب» ، ولكنها أقسى ، وأبشع - تحدق فيك بعين ميتة ، ساخرة ، برؤوس مقطوعة ، وقطة لا تدل ابتسامتها المؤذية إلا على السحر الأسود . ولكن كي يترسخ الكابوس ، على القارئ أن ينام ثم يستيقظ في مكان آخر .

بالعودة إلى الواقع ، بالرغم من أنه كان علي البقاء مستيقظًا . أقرأ في رشقات نارية قصيرة (خمس عشرة دقيقة ، أو عشرين دقيقة) ، خلال استراحات الغداء أو خلال وقت البرنامج التلفزيوني للأطفال «تيكّابيلا» . لم تكن هذه الطريقة جيدة لقراءة الكتاب . لأنه كان من الصعب الاتصال بالكتاب خلال قيامي بمهام أخرى ، رسائل إلكترونية علي إرسالها ، سندويشات علي إعدادها ، أو تنين بنفسجي أشاهده على التلفاز مع طفلي يغني أغنية عن الصداقة . كان الأمر صعبًا ، ويتطلب عددًا من التضحيات . النبيذ ، التلفاز ، والمحادثات ، كانت كلها مؤجلة . كان الأمر يتطلب شيئًا من الأنانية والمكر . «سأذهب إلى مكتب البريد ،» كنت أدعي ذلك أحيانًا في أكثر ساعات اليوم ازدحامًا

بالأعمال ، «لن أتأخر .» وفي الطابور المشهور بعدم تحركه في مكتب البريد ، أتمكن من قراءة بعض الصفحات .

وفي بداية النصف الثاني من الرواية ، تتحول مارغريتا إلى ساحرة بأمر من الشيطان . وتقبل دعوته لحضور حفلة الربيع الشهيرة خاصته . هنا عند هذه النقطة تحديدًا تبدأ مارغريتا بالتحليق ، وتبدأ الرواية معها بالتحليق . ترتفع مارغريتا محلقة عارية عبر روسيا - تمر بالمدن والجبال والأنهار - متحولة ، منتشية وحرة . وبينما هي محلقة ، يرتفع بولغاكوف بكلماته في الكتابة ، وأشعر بالقوة المذهلة للكتب من جديد ، تحملني فوق قطار الساعة ٤٤ :٦ صباحًا وفوق السيدة أتريكسو ويديها . كيف استطعت العيش من قبل دون هذه المتعة؟

رواية «المعلم ومارغريتا» تتحدث عن الكثير من الأشياء ، بعضها غامض ، وبعضها أقل غموضًا . بالنسبة لي ، في هذه المرحلة في حياتي ، وجدت أنها رواية تتحدث عن الكتب ؛ وأنا أحب الكتب . ولكنني فقدت قدرتي على قراءتها .

وبعد انتهاء الاحتفال ، كان على مارغريتا أن تتمنى أمنية من الشيطان . طلبت منه فقط أن يعيد المعلم من منفاه . ثم : «أرجوك أعدنا معًا إلى قبو المعلم في ذلك الشارع قرب أربات ، أشعل المصباح مرة أخرى واجعل كل شيء يعود كما كان في السابق .»

«بعد ساعة كانت مارغريتا جالسة ، تبكي برقة من الصدمة والسعادة ، في القبو في المنزل الصغير على أحد الشوارع في أربات . وبالنسبة للمعلم ، كل هذا قد حدث قبل تلك الليلة اللعينة من فصل الخريف في السنة قبل الفائتة . على الطاولة ، مغطاة بقماش مخملي ، وقفت مزهرية بها زهر الليلك ومصباح مظلل . وأمامها

مسودة الكتاب المتفحمة ، وبجانبها كومة من النسخ السليمة . كان المنزل صامتًا . وفي الغرفة الأخرى يرقد المعلم مرتديًا ملابس النوم ، يتنفس بشكل طبيعي غير مسموع . أمسكت مارغريتا المسودة برفق كما يمسك أحدهم بقطته المفضلة ، وبدأت بتفحصها من كل زاوية ، لتتوقف الآن على صفحة العنوان ، الآن على النهاية .»

ولكن بالتأكيد اتفاق كهذا مع الشيطان له عواقبه . الحياة لا تبقى كما هي . كي يعيش المعلم وتعيش مارغريتا للأبد ، على ذواتهما القديمة أن تموت . عليها أن تبقى في صف الشيطان ، وسيتمكن المعلم من أن يصبح حرًا ليجوب الأكوان :

«ولكن ماذا عن الرواية ، الرواية!» كانت مارغريتا تصرخ في وجه المعلم ، «خذ الرواية معك ، أيًا كانت وجهتك!»

«لا حاجة لذلك ،» أجابها المعلم . «أستطيع تذكرها كاملة عن ظهر قلب .»

«ولكنك لن . لن تنسى أي كلمة؟» سألته مارغريتا ، بينما كانت تقترب من حبيبها وتمسح الدم من جبهته المصابة .

«لا تقلقي . لن أنسى أي شيء بعد الآن ،» أجابها المعلم .

استغرقتني رواية «المعلم ومارغريتا» خمسة أيام تقريبًا حتى انتهيت منها ، ولكن سحرها استمر لفترة أطول بكثير . في الموت ، يصبح المعلم وكتابه ذاتًا واحدة . لم يعد الكتاب عنصرًا جامدًا ، لم يعد مجرد كومة من الورق المتفحم ، بل تحول إلى شيء يعيش في قلب المعلم ، يجسده ، ويسمح له بالسفر إلى أي مكان في أي وقت . الصفقة التي تعقدها مارغريتا مع الشيطان ، تمنح المعلم الأبدية . وهذه هي الطريقة التي استطاعت أن تنتقل فيها رواية «المعلم ومارغريتا» في رحلة عبر القرن من قارئ ، إلى قارئ ، إلى

متجر برودستيرز للكتب . بعض أجزاء هذا الكتاب ، وبعض أجزاء من بولغاكوف ، مازالت حية ، وانتقلت إليّ الآن . سر «المعلم ومارغريتا» ، والذي يبدو أنه ينجح في التأثير في عدد لا يحصى من البشر الذين لا يعرفون أي شيء عن المكائد البيروقراطية لفترة ستالين المبكرة : الكلمات مركباتنا ، رحلاتنا الجوية ، وأوطاننا في الوقت نفسه .

وهذا ما لا تحصل عليه عندما تقرأ دان براون .

وهكذا بدأت سنة القراءة الخطرة . نجحت رواية «المعلم ومارغريتا» في إعادتي للحياة من جديد . الآن ، لو كان بإمكاني اكتشاف الفراغات في طاحونة الحياة اليومية - أو صنع الفراغات - أعلم أنني أستطيع البقاء هناك . هل سأتمكن من الحفاظ على الشرارة حية في العالم الحقيقي ، تساءلت؟ نعم! لأنه فعلك لهذا سيعني حقًا أن لا تنسى أي شيء ثانيةً . كل ما احتجته هو كتاب آخر ؛ كانت هذه صفقتي . لم تكن هذه مجرد قراءة للمتعة ، بل كانت قراءة لعزيزتي الحياة . ولكن ، عندما أنظر للوراء الآن ، ربما كان علي التوقف للتفكير . مع من بالتحديد قمت بعقد هذه الصفقة؟

«قام المعلم -ثملًا بفكرة الرحلة القادمة- بإلقاء كتاب من حقيبة الكتب على الطاولة ، ليدفع به نحو القماش المحترق قرب الطاولة ، ويندلع فيه اللهب .»

الكتاب الثاني

مدل مارش - جورج إليوت

«كان يملك ذاتين بداخله ، وكان على هاتين الذاتين أن تتعايشا معًا بسلام ، وأن تتحملا العوائق المتبادلة . من الغريب أننا مع تبديل سريع للرؤية نستطيع أن نرى أبعد مما نحن مولعون به الآن ، حتى ونحن في المرتفعات نلمح السهل الواسع ، ونرى ذاتنا المستمرة تنتظرنا هناك .»

مدل مارش ، الكتاب الثاني

هنالك حلقة كلاسيكية من المسلسل الكوميدي «هانكوك»[(١)] تدعى «The Bedsitter» ، حيث يقوم توني هانكوك بمحاولة عابثة لتطوير ذاته ، فيقرر أن يقرأ كتاب برتراند رسل «معرفة إنسانية : حدودها وأهدافها .» وبعد قراءة عدة جمل ، وأحيانا عدة كلمات ، كان عليه أن يضع الكتاب جانبًا ليتناول قاموسًا ضخمًا بحثًا عن معنى كلمات رسل (إن كان هذا ما يقصدونه ، لماذا لا يستخدمون الكلمات ذاتها؟) . بعدها بوقت قصير ، ينال منه اليأس والإحباط : «لا ، إنها مسؤوليته . إنه المخطئ ، يا له من كاتب فاشل .

(١) كان يسمّى في السابق نصف ساعة هانكوك . تم تغيير اسم المسلسل سنة ١٩٦١ بعد مغادرة سِد جيمس .

الكاتب الجيد هو من يستطيع أن يضع أفكاره بشكل واضح ، بطريقة بسيطة وقابلة للفهم للجميع . إنها مسؤوليته . هو كاتب سيء . لن أضيع وقتي في قراءته .» (يلقي هانكوك بكتاب رسل على الأرض ويلتقط كتاب آخر .) «آه ، هذا عنوان جذاب - أيتها السيدة لا تسقطي للوراء» ؛

بعدها بخمسين سنة ، يظهر مشهد مماثل في منزلنا . كنت مستلقيًا على السرير ومعي نسخة جميلة من كتاب جورج إليوت «مدل مارش» ، وكنت أستكشف هانكوك الذي بداخلي .

إليوت (من المقدمة) : من يهتم بما يكفي لمعرفة تاريخ الإنسان ، وكيف يتصرف المزيج الغامض أسفل التجارب المختلفة للزمن .

هانكوك (من المسلسل) : لا ، لا ، علي أن أعرف هذا . إنه مكتوب بلغتي ، علي أن أعرف عمّ يتحدث هذا الرجل .[١]

إليوت : يشعر البعض أن هذه الحيوات المتخبطة ترجع إلى

---

(١) كان جورج إليوت اسمًا مستعارًا تختبئ خلفه امرأة ، اسمها الحقيقي ماري آن إڤانز ، ولأجل التأثير الحقيقي للقصة ، تركت الضمائر كما هي . لأعطي انطباعًا يوحي أن هانكوك يعتقد أن جورج إليوت رجل وليس امرأة . ها ها! أعتذر عن هذه الحواشي المزعجة والمعرقلة لسلاسة القراءة ، ولكن عشّاق جورج إليوت ، توني هانكوك ، برتراند رسل ، يعشقون الحواشي ، ومن المهم التأكيد لهم أن ما يقرؤونه صحيح ، لدرجة جعلتني أضحي ببداية متناسقة وسلسلة لهذا الفصل ، فقط كي أكسب ثقتهم . وكي لا يعتقد الخبراء والنقّاد أنني لم أعرف أن جورج إليوت امرأة ، بالتأكيد فإن جورج إليوت كان امرأة! وعلى طريقة الخبراء لا شيء يعرف دون الإقرار به .

التشويش غير المريح والذي أبدعت به القوة العليا طبيعةَ النساء .

هانكوك : إنه بشر مثلي ، يستخدم الكلمات ، كلمات من لغتي ذاتها ، متاحة للجميع . يجب أن أركز الآن أكثر .

نجحت بصعوبة في قراءة مقدمة «مدل مارش» . ثم عدت لقراءتها مرة أخرى . كانت تتكون من ثلاثة مقاطع فقط ، لذلك أخذت جولة سريعة حول الغرفة وقرأتها لمرة ثالثة . لا ، لم تكن سهلة على الإطلاق . بالكاد أستطيع فهم كلمة واحدة . ولكن ، خلافًا لحالة هانكوك لم أملك نسخة من كتاب آخر مثل «أيتها السيدة لا تسقطي للوراء .» كي أهرب إليه . لذلك كان علي أن أعقد صلحًا مع «مدل مارش» .

بالتأكيد فإن المشكلة لم تكن في «مدل مارش» . بغض النظر عن فتحي المفاجئ مع رواية «المعلم ومارغريتا» ، وكمية الثقة التي منحتني إياها قراءتها ، أدركت بسرعة أنني بالغت في تقدير نفسي . كانت «المعلم ومارغريتا» عقبة بحد ذاتها ، أما «مدل مارش» فإنها تعطي الانطباع الكامل بأنها ٦٨٨ صفحة من العقاب القاسي . في فترة سابقة ، كنت قد اتخذت عادة قراءة مثل هذه الكتب التي تمتلئ بالإسهاب والتوضيح . ولكنني كنت طالبًا حينها ، أحمل الكثير من الغرور والحنق . بعد عقدين من الزمان ، فقدت لياقتي تمامًا ، أصبحت أتنفس بصعوبة ، أعرج بالكاد . وكان هذا الكتاب أكثر مما أستطيع احتماله .

في تلك الأيام ، عندما كنت طالب أدب إنجليزي في الجامعة ، كان من الممكن لي أن أقرأ عددًا من الكلاسيكيات كل أسبوع . وفي المقابل ما أستطيع قراءته في أسبوع الآن يبدو أشبه بالتالي :

٢٠٠ رسالة إلكترونية (تقريبًا)

نسخ قديمة من صحيفة «ميترو»
مجلة NME الموسيقية
جداول في برنامج إكسل
صفحات المراجعة في صحف يوم الأحد
أفكار مقترحة لمشاريع جديدة في العمل
فواتير، كشوفات حسابات بنكية، بريد
الملاحظات المدونة على أغلفة الأسطوانات
كلمات متقاطعة، سودوكو
تعليمات تسخين وجبة من السوبر ماركت
بطاقات بريدية
والكثير من الأشياء التافهة على الإنترنت

من بين كل هذه الأشياء، كانت السودوكو أكثرها تعذرًا للتفسير. يا لها من مضيعة للوقت! كم أكرهها. ورغم هذا أستطيع قضاء رحلة قطار كاملة وأنا أصارع شبكة صغيرة فيها، ساعة كاملة لم تجلب لي سوى القليل من السعادة أو ربما لا شيء، حتى في تلك المناسبات النادرة التي أكسب فيها اللعبة. أرفف متجر WHSmith في محطة ڤيكتوريا كانت مليئة بألعاب التعذيب العقلية: سودوكو، سن دوكو، كود دوكو، كيلر سودوكو.. بصفتي أعرف طالبًا سابقًا قام بكتابة أطروحة تتكون من ١٠ آلاف كلمة عن الهندسة الميكانيكية ليكون الرد عليه: «كل هذا لا يعني شيئًا، لأن كل ما كتبته ليس إلا هراءً.»[(١)]

(١) قد تكون جامعتنا تعتبر نفسها جامعة تقدمية، ولكن هذه الجملة جعلته يرسب في المادة (لأنه تفوّه بالحقيقة).

لذلك ، بتقبلي تمامًا لحقيقة أنني لست في لياقة عقلية كافية لإنهاء لعبة برين تيزر من المستوى المبتدئ حتى ، لماذا شعرت بأنني مجبر على محاولة إنهاء «مدل مارش» ، والتي تعد واحدة من أعلى القمم في الرواية الإنجليزية؟

عندما وصلت إلى منتصف الثلاثينات من عمري ، قبل أن نرزق بطفلنا ، بينما كان مايزال مجرد فكرة لطيفة في المستقبل القريب ، بدأت أحس ببداية مخاض لشعور ما . كان ذلك الشعور : قريبًا في يوم ما ، سوف أموت . في السابق ، استمتعت بالاكتئاب بشأن حقيقةً فنائي ، لأنني كنت شابًا ولم يكن الموت هاجسًا قريبًا بالنسبة لي . الآن ، أيًا يكن ، رزقنا بمولود . ولكن هذا جعل الأمر أكثر سوءًا .

لقد سمعت عن العديد من الأشخاص الآخرين الذين تعاملوا مع أزمة منتصف العمر بإقامة علاقات مع فتيات مدارس أصغر منهم ، أو بصبغ شعورهم بألوان فرائحية ، أو بالمشاركة في ماراثون لجمع التبرعات ، «وفعل الخير للمجتمع» . ولكني لم أرد أن أفعل أيًا من هذه الأشياء ؛ كنت فقط أريد البقاء وحيدًا . حزني لأجل الأشياء التي لم أتمكن من تجربتها كان ضئيلًا ، ومملًا ، لكنه ربما كان غير وقور أيضًا . ويبدو أن حزني يجد لنفسه مكانًا في خيبات الأمل الصغيرة ، الأنشطة اليومية التي لطالما أردت القيام بها ، ولكن لسبب ما انتهت نصف حياتي دون أن أقترب من إنهائها . مازلت لا أعرف كيف أعزف القيتار . لم أسافر إلى نيويورك ، لم أتعلم قيادة السيارة ، أو شوي دجاجة - الحلم المستحيل! حتى أزمة منتصف عمري كانت مخيبة للأمل .

أخبرت نفسي أنني أملك الكثير من الأشياء التي تستحق

الشكر . لدي عائلة تحبني ، وأعيش في منزل قرب البحر ، والذي قد يكون ملكي خلال ثلاثين سنة ، تمكنت من كتابة عدة كتب ، عرفت باريس ، تعلمت قيادة الدراجة ، عزف البيانو ، وطريقة طبخ البطاطس على الطلب . ولكني لم أكن مقتنعًا تمامًا .

إحدى المسلمات التي وجدت نفسي أشكك فيها كانت إيماني بالفن . منذ طفولتي ، لم أشك ولو للحظة أن الكتب العظيمة ، الموسيقى الخالدة ، أو الأفلام العبقرية ، هي شروط مسبقة لوجود كامل ومتوازن . وجود الفن في حياتي منذ مراهقتي وحتى بلوغي كان دائمًا ، لدرجة عدم قدرتي على تصور غيابه حينها . إن احتجت إلى الصوم عن الطعام لأجل شراء أسطوانة مهمة أو رواية ، كنت أمتنع عن الطعام . ولكن مؤخرًا بدأت بسؤال نفسي ما إن كان هذا الولاء يحمل أي معنى يتجاوز الوجود الحسي لما كنت أملكه من كتب وأفلام قمت بتخزينها أخيرًا في صناديق يعلوها الغبار الآن .

مهما اختلطت اعتقاداتي الروحية في الماضي ، ومهما مشيت على أطراف أصابعي على خط العلمانية المعاصرة ، لم يسبق لإيماني بالفن أن تداعى بهذا الشكل . بإمكان الثقافة أن تأتي في أشكال عديدة ، عالية ، منخفضة ، أو في منطقة وسطى : موزارت ، عرض الدمى ، إيان ماك إيوان . القليل فقط منها كان عظيمًا بكل معنى الكلمة ، وأغلبها سيء ، ولكنها بأكملها كانت ضرورية لاستمرار الحياة ، لنكون على أحياء بشكل كامل ، لنصوّب باتجاه الأيام اللانهائية ، المرقمة ، ونصنع منها المعنى .

مؤخرًا ، وبالرغم من أنني أشعر بأنني فاشل . إلا أنني خلال تفكّري في أكوام الأسطوانات وأشرطة الفيديو ، برامج المسرح القديمة ، ومجلات القصص المصورة ، مرتديًا قميصًا لفرقة موسيقية

قد تكون انفصلت منذ زمن، بدت كل هذه الأشياء تمثل الجانب المعاكس تمامًا للتنوير الذي وعدت به من الأساس. وكانت مثلي تقترب من الزوال. رأيت أنني فهمت الأمر بطريقة خاطئة. لقد خلطت الفن بالتسوّق.

الكتب على سبيل المثال. لدي الكثير منها. هاهي مكدسة على الأرفف، وملقاة على الأرض، متراكمة قرب السرير، وتكاد تسقط من صناديقها. «موبي-ديك»، «حيازة»، «البحث عن الزمن الضائع»، شعر إيميلي ديكنسون، عدد من كتب ڤسنر، «الطفل في الزمن»، ستة روايات أخرى لإيان ماك إيوان ومجموعتان قصصيتان. كانت هذه الكتب تؤثث الغرفة، ولكنها أيضًا أعاقتنا عن الحركة. واكتشفت أنني لم أقرأ الكثير منها. وكما قال شوبنهاور قبل مئة وخمسين سنة، «سيكون من الجيد شراء الكتب فقط إن تمكنا من شراء الوقت الكافي لقراءتها؛ ولطالما اختلطت فكرة شراء الكتب بامتلاك محتواها.»[١]

مع الوقت أصبحت هذه الكتب تركيزًا للحاجة لفعل شيء ما. كانت أشبه بالعتاب - أموال ضائعة، وقت مبدد، أولويات مشوشة. علي أن أضع قائمة، فكّرت. سوف تحتوي هذه القائمة على أهم الكتب التي أشعر بالخجل لأنني لم أقرأها - أكثر الكتب صعوبة، الكلاسيكيات، من مكتبة ميلر المخادعة - ثم سأبدأ

---

(١) من كتاب عن القراءة والكتب. وبرغم أنه كتب قبل مئة وخمسين سنة، مازالت هذه المقالة لشوبنهاور تملك الكثير لتخبرنا به. وأيضًا بالنسبة لفيلسوف ألماني من القرن التاسع عشر، شوبنهاور كان مضحكًا جدًا على عكس التوقعات.

بقراءتها . كنت أبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا . عشرة كتب ربما ، عشرة كتب قبل عيد ميلادي الأربعين . نعم ، عشرة كتب في خمس سنوات ؛ كتاب واحد كل ستة أشهر ؛ كان هذا يبدو كهدف سهل التحقيق ، ومتدهور بشكل غامض ، خاصةً عندما تذهب للعمل طوال اليوم ، وتكون غير قادر على قيادة السيارة للذهاب للسوبر ماركت لشراء دجاجة لا تعرف كيفية طبخها ، لأنك لم تتعلم القيادة ولا الطبخ ، لأنك كنت مشغولًا خلال سنواتك الماضية بالتسوق وشراء ما لا تحتاجه . ممتاز! الكتب أولًا ، دروس قيادة السيارة لاحقًا .

وخلال السنوات اللاحقة لهذه الخطة ،لم أفعل أي شيء غير تهنئة نفسي بوضعها . فكرت بالقائمة قليلًا ، وتحدثت عنها كثيرًا . في الحانات ، في كل الحفلات التي حضرتها ، على طعام الغداء ، كنت أشرح الفكرة بكل زهو ، وأضع عنوان أو عنوانين من الكتب في القائمة لجذب الانتباه : «المعلم ومارغريتا» ، «مدل مارش» . وفي كل مرة يرد أحدهم بنبرة عدم تصديق : «لم يسبق لك أن قرأت هذه الكتب؟»

وهكذا مرت سنتان ونصف . ورزقنا بمولود . اقتربت من سن الأربعين ، ولم أقرأ أي كتاب من الكتب التي كان بإمكاني قراءتها ،لقد خسرت . لم أتمكن من كتابة القائمة حتى . لم تكن هناك قائمة من الأساس . إنها مجرد فكرة حماسية في عقلي ، تقترب من الواقع أحيانًا لتظهر على شكل ضحكة خفيفة أطلقها ، بإمكان محتوياتها أن تخضع للتعديل حسب الظروف أو طلبات المستمعين . ولكن كل هذا لا يهم ، لأن القائمة كانت مجرد هراء أتفوّه به طوال الوقت .

ثم حدث شيئان .

كنت أتحدث مجدداً عن القائمة مع صديق قديم من الجامعة ، بذلك الأسلوب المخادع الساخر الخاص بكل الرجال الذين كانوا طلابًا في الثمانينات ، ومازالوا يشعرون بداخلهم أنهم طلاب حتى الآن .

«مضت سنتان ونصف ،» قلت له . «تبقت سنتان ونصف فقط . لن أتمكن من فعلها! لن أقرأ (مدل مارش) على الإطلاق!»

«لا .» قال لي صديقي . «لن تقرأها .»

كان يعني ما قاله حرفيًا . لم يكن يخادعني ، أو يجاريني في الكلام . كان يعلم أنني لن أتمكن من قراءتها ، كان متأكدًا من هذا ، استناداً على معرفته بشخصيتي ، وفهمه لعائلتي وعملي ، وتقديره لدرجة الإرهاق والتعب التي وصلنا لها جميعًا .

وعلمت أنه على حق .

(علي أن أضيف أيضًا أنه عندما ناقشنا هذه الفكرة لأول مرة ، ذهب صديقي واشترى نسخة من «مدل مارش» ، وقرأها ، واستمتع بها أيضًا . ربما كان دافعه لفعل هذا هو أنني أخبرته -كذبًا- أنني اشتريتها ، قرأتها ، واستمتعت بها .)

الشيء الثاني الذي حدث كان متعلقًا بلعبة السودوكو التي تحدثت عنها في السابق .

في مكان ما قرب غيلنغهام في إحدى مساءات نو؟مبر الرطبة ، بينما كنت عالقًا بين المحطات ، أدخل الأرقام في صندوق ، وبعد يوم طويل في العمل قمت فيه بإدخال أرقام مشابهة على برنامج إكسل ، شعرت فجأة بسؤال يهجم علي : لماذا أضيع حياتي بهذه الطريقة؟ كانت الكلمات هي شغفي ، وليست الأرقام .

وهكذا ارتفعت أمامي ، كأنها صرخة ، توقف! ، أشباح كل منتجات الثقافة التي كنت أستهلكها في الأسابيع والأشهر الماضية : المكملات الثقافية ، مجلات الروك القديمة ، أوراق مصورة وملخصات ، مجلة پرايڤت آي ، وراديو تايمز ، وصفات طبية وشروحات ، مطبوعات وجداول بيانات وسودوكو ، سودوكو ، كيلر سودوكو .

شيء ما كان يجب أن يتغير ، وكان علي أن أغيره .

لذا عندما ذهبت مع ألكس إلى برودستيرز في اليوم التالي ، كانت رواية «المعلم ومارغريتا» على رف متجر ألبيون للكتب تنتظرني في مصادفة مثالية . كانت هذه هي فرصتي لفعل الصواب . لقد كانت رحلة جامحة ، ملهمة ، وباعثة للإيمان ، وعندما انتهيت منها أردت أن أجرب رحلة أخرى . بالإضافة إلى أنني أصبحت شخصًا قد قرأ «المعلم ومارغريتا» . شعرت بأنني قد قمت بإنجاز يستحق التقدير .

«مدل مارش» ، كان الكتاب التالي الذي قررت مهاجمته . ولكن «مدل مارش» كان كتابًا أكبر حجمًا ، وأكثر عمقًا من «المعلم ومارغريتا» . إن كان الكتاب الأول أشبه بجولة في معرض ، فقد كان الكتاب الثاني يشبه الذهاب إلى جبل الفضاء في عالم ديزني . لقد كان اختبارًا هائلًا للأعصاب ، وكان اختبارًا أردت التخلص منه قبل النهاية .

إن كانت «الحرب والسلام» تعتبر أكثر رواية تتميز بصعوبة قراءتها في الأدب الروسي ، وتعتبر «البحث عن الزمن الضائع» النظير الأطول لها في الأدب الفرنسي ، فإن «مدل مارش» تمتلك سمعة كافية لأن تجعلها النظير الإنجليزي لهما . قد لا تكون «مدل

مارش» ممنوعة مثل رواية جيمس جويس «استيقاظ فينغانز» أو أسطورية مثل رواية «كلاريسّا» ، ولكنها تشغل مكانة خاصة ككتاب يفرز الأوزان الثقيلة من غيرها . لهذا السبب وحده ، لطالما كانت «مدل مارش» في قائمتي الوهمية ؛ وأظن أنه من المعيب لخريج أدب إنجليزي أن لا يقرأ ما وصفتها ڤيرجينيا وولف بأنها واحدة من الروايات الإنجليزية القليلة التي كتبت للبالغين . أتذكر أنني شاهدت حلقة في قناة بي بي سي الثانية للكاتب سلمان رشدي في برنامج «اختبار الكتاب» ، حيث تمكن رشدي من تذكر بعض الأسطر من أغنية للفنان بوب ديلان ولكنه فشل في التعرف على أسطر من رواية «مدل مارش» ، واعترف لاحقًا بعدم قراءته لها من الأساس ، ليتسبب في دهشة الحضور في الحلقة .[1] هل التقطت في تلك اللحظة من مراهقتي هذه العادة السيئة؟

بعد مضي أسبوع ، وبعد انتصاري الصعب على مئة صفحة تقريبًا من «مدل مارش» ، علمت أنني في مأزق . اكتشفت أن هناك العديد من المهام التي أردت إنجازها فجأةً - تنظيف الفرن ، أي شيء يخلصني من عذاب قراءة هذا الكتاب . ولكن يبدو أن هنالك مشكلة . مَن كل هؤلاء الأطباء والسيدات والكهنة ، وماذا كانوا يقولون لبعضهم؟ ولم أكن فقط أشعر بالضجر من قراءة «مدل

---

(١) قمت بارتكاب غلطة تمثلت في ظهوري على برنامج تلفزيوني للأسئلة ، واعترافي بأنني لم أقرأ مدل مارش . لا أظن أنني سأسامح نفسي على هذا أبدًا . وعندما اكتشفت أنني وضعت نفسي في مأزق ، ذهبت للخارج واشتريت الكتاب ، وأخطط لقراءته . لقد سمعت أنه كتاب جيّد . سلمان رشدي ، في حديث مع جون هافيندن ، ١٩٨٣ .

مارش» ، ولكنها تركتني أشعر بالاكتئاب . لم أكن مستعدًا لهذه المهمة التي أدّاها آخرون بسهولة واضحة . ربما كنت مزيفًا وغبيًا . ولحسن حظي ، عند هذه المرحلة أعدّت زوجتي تينا تدخلًا سريعًا . برغم أنها راضية عن الأعمال التي أقوم بها كتنظيف الفرن ، وتسديد فواتير الهاتف ، بالترتيب ذاته - إلا أنها لاحظت أن القراءة كانت مهمة جدًا بالنسبة لي . لقد انتبهت لمعاناتي مع «المعلم ومارغريتا» ، لذلك ذكّرتني بأن علي أن أدع الكتاب يقوم بالمهمة . وماذا يعني إن لم أفهم بعض الأسطر من كتاب ضخم كهذا؟ يكفي أن أشعر بلذة الإيقاع على الأقل لبعض الوقت .

«هل قمت بقراءة «مدل مارش»؟ سألتها . «لا يوجد أي إيقاع من الأساس ، فقط الالتباس والتشويش . أو كما ستعبّر كاتبة «مدل مارش» ، في هذا النموذج من التاريخ الفقير ، لن يكون ظلمًا تصور حالة من انعدام الإيقاع ، حيث يكذب انعدام الإيقاع في حديثه عنّا ، ها هو التشويش يعود مرة أخر . إلخ»

«أوه ، يكفي ، توقف عن كونك مولودراميًا ،» قالت لي . «فقط افعل كما فعلت ، اقرأ خمسين صفحة كل يوم ، ولا تفكر كثيرًا .»

هل تمكنت من فهم عبقرية زوجتي؟ هل أصبح الأمر واضحًا بالنسبة لك أيها القارئ؟ لا يعود سبب نجاحها لنبلها أو طيبة قلبها ، أو إلى أنها قد اعتلت قمة «مدل مارش» وكانت تريد لزوجها أن يتبعها بلطف . لا . كان سبب نجاحها هو أنها كانت تتبع نظامًا . خمسون صفحة كل يوم . لم يكن ذلك مشوقًا ، لم يكن حماسيًا ، ولكنها كانت خطة ناجحة . هكذا تستطيع منح الوقت للكتب ، ومنح الوقت للاستمرار في الحياة . لقد كانت هذه الخطة مفتاحًا للأساطير ، ومفتاحًا للفرن النظيف .

وهكذا تقبّلت حقيقة أن الأيام الأولى من «مدل مارش» ستكون عملًا روتينيًا . بدأت بعد الخمسين صفحة كل يوم ، وكأنني أقوم بواجب مدرسي . ومع الوقت ، بدأت السحب بالانجلاء ، وأشرقت الشمس على زاوية خيالية على غرب ميدلاندز . ومثل «المعلم ومارغريتا» كانت هنالك غواية ما في «مدل مارش» جعلتني أبدأ بالخضوع ؛ ولكن بينما كان بولغاكوف يستخدم السحر والإشارات الكبيرة ، فإن إليوت كانت تستخدم غواية فكريّة ، لعبة بطيئة من التقدّم والإحباط . جمل مختارة بعناية جعلتني شيئًا فشيئًا أعتاد على الإيقاع . لن أتظاهر بأنني فهمت كل المسائل المتعلقة بمشروع قانون الإصلاح ، يونيو ١٨٣٢ ، والذي تتشكل ثيمة الرواية حوله ، ولكني استوعبت طبقات الشخصيات ودوافعها ، والأسئلة الأخلاقية التي على الشخصيات مواجهتها ، وأعتقد أنها طموحة فعلًا وراقية . وعندما تحوّلت زاوية الرواية من دوروثيا إلى كاساوبون في بداية الفصل التاسع والعشرين - «ولكن لماذا دوروثيا دائمًا؟» هل تعتقد أن وجهة نظرها هي الوحيدة الممكنة فيما يتعلق بهذا الزواج؟» - ثم يتبع هذا مقطع رفيع وحكيم ومعقد إلى درجة أنني لا أستطيع وصفه إلا بكلمة واحدة : عبقري .

(كما يحدث في كرة القدم ، سأخبرك بأن تنظر بعيدًا إن لم تكن تريد أن تعرف ماذا سيحدث .)

خلال الفترة التي سيموت فيها كاساوبون في المنزل الصيفي ، ممتعضًا ووحيدًا ، كان عقلي مسلوبًا لهذا الكتاب . لم أصدق إلى أي درجة كنت مستمتعًا به .

وفي رحلة استغرقت سبع ساعات بالطائرة إلى أدنبرة ، بالكاد استطعت رفع رأسي من هذا الكتاب ، رحّبت بخبر تأخير الرحلة

في المطار، وكنت ممتنًا رحلة أخرى في مطار هيثرو، جلست في البرد في المحطة لمدة نصف ساعة حتى أكتشف نهاية دوروثيا بروك وول لاديسلاو، قبل أن أسير إلى المنزل مبتهجًا. أعني أنني كنت مبتهجًا بمعنى الكلمة. شعرت بيقين لا يشوبه شك أنني كنت في حضرة فن عظيم، وأن قلبي استجاب وكان مفتوحًا لتلقيه. بالإضافة إلى أنني أصبحت شخصًا قد قرأ «مدل مارش» و«المعلم ومارغريتا». تمكنت من الإطاحة بكتابين حتى الآن.

نحن نعيش في عصر أصبح الرأي فيه عملة. نواجه ضغطًا مستمرًا لنصرّح بآرائنا «أعجبني هذا الشيء» أو «لم يعجبني»، لنطلق آراءً سريعة ونلصقها على بطاقاتنا الائتمانية. ولكن عندما نواجه شيئًا لا يمكن الحكم عليه في لحظة واحدة، ولم يكن هذا الشيء مصممًا من الأساس لينظر إليه مرة واحدة، فإن عبارة «لم يعجبني» ربما تكون عبارة غير ملائمة. لم تعجبك «مدل مارش»؟ لا يهم. لقد كُتبت هذه الرواية قبل أن نُولد، وستبقى بعد أن نموت. بدلًا من هذا علينا أن نملك التواضع الكافي لأن نقول: لم أتمكن من فهمها. أحتاج للمحاولة من جديد.

تعلمت أن أحب «مدل مارش». تذكرت أيضًا قيمة المثابرة. تذكرت معنى أن أصمم على إنهاء شيء بدأته. في نهاية الأسبوع التالي، قمت بوضع اللمسات الأخيرة على القائمة. كتبت أسماء الكتب على ورقة، وشهدت زوجتي تينا عليها ووقعتها. وعمّدناها وأطلقنا عليها اسم «قائمة الإصلاح». ثم جلسنا لتناول غداء يوم الأحد المميز مع العائلة، والذي قمت بإعداده للجميع.

بطاطا مطبوخة.

حاشية

لم تكن هذه نهاية «مدل مارش» . بل كانت واحدة من الروايات التي بقيت معي لعدد من السنوات - كانت تلاحقني . وكانت المواعيد النهائية لقراءتها تنتهي وتبدأ من جديد ، ولم أزل بعيدًا جدًا عن إنهاء علاقتي بهذه الرواية ، أتذكر كاساوبون ومفتاحه لكل الأساطير ، حجّة دوروثيا البائسة لزوجها : «كل هذه الصفوف من المجلدات - هل ستتخاذل الآن عن فعل ما كنت تتحدث عنه دائمًا؟ - هل ستفشل في اختيار أحدها للبدء في الكتابة .»

لذلك أشعر بالامتنان والشكر ، إن كنت ما تزال تقرأ هذه الكلمات ، أنني نجحت إلى حد ما ، وأنني لم أغادر مكتبي حتى تمكنت من إنهاء مهمتي ؛ وأشعر بالامتنان أيضًا لأني وتينا -على عكس عائلة كاساوبون- ما زلنا متزوجين .

الكتب من ثلاثة إلى خمسة

مكتب البريد - تشارلز بوكوفسكي
البيان الشيوعي - كارل ماركس وفريدريش إنجلز
المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة - روبرت تريسل

«لنأخذ الآن أجور الأعمال .»

البيان الشيوعي

«لقد تنازلوا عن كل شيء يجعل الحياة جيدة وجميلة فقط لأجل أن يستمروا في معاناتهم المجنونة للحصول على مال لن يصبحوا أبدًا متحضرين بما يكفي للاستمتاع به . لقد علموا أن المال الذي حصلوا عليه كان مشوبًا بعرق إخوتهم من الرجال ، ومبتلًا بدموع الأطفال الصغار ، ولكنهم كانوا صمًا وعميًا ، بقلوب قاسية وليدة للطمع . تخلّوا عن كل فكرة نبيلة أو ملهمة ، لقد زحفوا على الأرض القذرة ، ومزقوا الزهور للحصول على الديدان .»
المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة

«هذا هو العمل المناسب لي ، أوه نعم نعم نعم .»
مكتب البريد

كنت أجلس في مطعم Tiny Tim's Tearoom وأقرأ «البيان الشيوعي» ، بينما كنت أنتظر أن تنتهي أمي من التسوق .

«هل تريد شيئًا آخر؟» سألتني النادلة . «فقط الفاتورة ، لو سمحتِ ،» أجبتها .

«حسنًا أيها الرفيق ،» قالت لي . دفعت ثمن كعكتي البرجوازية وذهبت أنتظر في الخارج .

لم تكن النسخة التي معي حمراء صغيرة ، بل كانت نحيلة ، عصرية ، بغلاف ورقي ، تنتمي لسلسلة تحت عنوان «أفكار عظيمة» . ويبدو على الغلاف اقتباس بارز من البيان : «لترتعد الطبقات الحاكمة من ثورة شيوعية . لا تملك البروليتاريا شيئًا لتخسره غير أغلالها . وأمامها عالم لتكسبه . إلى كل الرجال العاملين في كل بلدان العالم ، توحدوا!» وهكذا وقفت حاملًا الكتاب في الشارع ، كان من الصعب ألاّ أظهر وكأنني أريد إيصال رسالة ما . حاولت أن أتبنى طقسًا من الحياد الفاتن وألاّ أنفجر بالحماسة الثورية .

وصلت أمي ، ولمحت غلاف الكتاب في يدي ، لتطلق تعليقاتها المدخرة للحظات خيبة الأمل المميزة كهذه .

«أوه آندرو ،» قالت لي . أخفيت الكتاب في جيبي . في الحقيقة ، أحببت فكرة أن يعتقد الآخرون أنني شيوعي . لم أعترض حتى عندما قالت لي النادلة «أيها الرفيق» . آخر مرة جرّبت فيها شعورًا كهذا كان في الثمانينات عندما كنت مراهقًا .

في تلك الفترة ، كانت قبعة البحّارة الزرقاء التي أرتديها ، وشارة لينين التي أضعها ، تجعلني أتلقّى العديد من التعليقات الجارحة . ولكن هذا انتهى . لقد ماتت الانشقاقات الآيدولوجية القديمة . لم يعد أحد يهتم الآن للإساءة إليك بسبب هذا .

تختبئ في جيبي بجانب نسخة «البيان الشيوعي» قائمة الكتب التي اعتمدتها مع تينا ، كنت أحملها معي إلى كل مكان كأنني الفيل دومبو وريشته .

قائمة الإصلاح

المعلم ومارغريتا – ميخائيل بولغاكوف
مدل مارش – جورج إليوت
مكتب البريد – تشارلز بوكوفسكي
البيان الشيوعي – كارل ماركس وفريدريش إنجلز
المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة – روبرت تريسل
البحر ، البحر – آيرس مردوخ
حلف البلداء – جون كينيدي توول
اللامسمّى – صامويل بيكيت
عشرون ألف شارعًا أسفل السماء – باتريك هاميلتون
موبي–ديك – هرمان ملفل
آنا كارنينا – ليو تولستوي
عن عبودية الإنسان – سومرست موم
كبرياء وتحامل – جين أوستن

وخلال وضعي للمسات الأخيرة على هذه القائمة ، حاولت ألّا أفكر كثيرًا في كتب أخرى يجب أن تدخل القائمة ، وسمحت لقلبي أن يفعل ما يشاء . كنت فقط أريد قراءة كتب أريد قراءتها . وهنا كانت بقعة الحبر ، ومخطط القلب . ماذا قالت القراءة؟ ماذا قالت القراءة عني؟

ولكن هنالك استثناء وحيد ، كانت هذه جميعها روايات –

ست منها بريطانية ، ثلاث أمريكية ، روايتان من روسيا ، واحدة من إيرلندا ، وواحدة من ألمانيا . ثلاث نساء ، وأحد عشر رجلًا . نجحت في اختبار التوزيع الجغرافي ، وفشلت بانحيازي إلى الرجل ، أظن أنني بحاجة لتحسين هذا لاحقًا .(١)

كانت هذه كتبًا أخبرت الجميع بأنني قد قرأتها ، بينما الحقيقة هي أنني لم أقرأ منها شيئًا .

كانت هذه كتبًا تنتمي لكتّاب لا أستطيع الادعاء بأنني مطّلع على أعمالهم ، باستثناء بيكيت ، وأوستن (بالكاد أتذكر إيما عندما كنت طالبًا) ، ولم يمنعني هذا من التظاهر بالإطلاع على أعمالها ، خاصةً أمام نفسي .

كنت قد بدأت بقراءة بعض هذه الكتب ولكني لم أستطع إنهاءها . على سبيل المثال ، أعلم يقينًا أنه في السادس عشر من يونيو سنة ١٩٩٢ ، فقط بعد عدة صفحات ، توقفت عن قراءة «اللامسمّى» ، وضعت فاتورة تسوّق كفاصل للقراءة في تلك الصفحة اللعينة . عليك أن تستمر ؛ لا أستطيع الاستمرار ؛ لم ، أتمكن ، من الاستمرار .

(١) هذا يسبب الصداع . لقد قمت بتقسيم الكتب ولكن إن وضعت جنسية الكاتب في الحسبان ، فإن هذا سيعطي نتائج مختلفة تمامًا . مكتب البريد مثلًا ، إنها رواية أمريكية ، لكاتب ألماني ، بمعايير شديدة جدًا . سومرست موم ، كاتب يكتب قصصًا إنجليزية ، ولكن ولد وعاش أغلب حياته في فرنسا وتوفي هناك . كان كل من مردوخ ، تريسل ، وبيكيت ، إيرلنديًا من دبلن ، ولكن هل يمكن اعتبار كتبهم كتبًا إيرلندية؟ لا أعلم ، لا أعلم كيف يمكن تصنيف هذه الكتب . لا عجب أن شخصًا من TLS (بروتوكول طبقة المنافذ الآمنة) سوف يتواصل معي قريبًا .

كانت هذه كتبًا ، لمدى بعيد أو قريب ، من النوع الذي يمكنه أن يعرّف الشخص الذي أريد أن أكونه . لقد عكست الذوق الفطري الرفيع الذي يمكن لرجل مثلي أن يمتلكه ، دون أي جهد يذكر . إن سألتني إن كنت أحب أعمال پاتريك هاميلتون ، على سبيل المثال ، فسأرد عليك بالإيجاب . وأكثر من هذا ، لطالما اعتبرت نفسي «أحد معجبي پاتريك هاميلتون» - مع إغفال حقيقة أنني لم أقرأ أي شيء له تقريبًا . كان من السهل جدًا الإبقاء على هذين الموقفين المتناقضين ؛ لم يكن أحدهما يقتضي إلغاء الآخر . بدا لي أمرًا حتميًا أن أصبح أحد معجبي پاتريك هاميلتون ، فقط أحتاج لإيجاد الوقت لقراءة كتبه ، فلماذا أتعجّل وأتراجع عن هذه الهوية؟ ولم أكن مستعدًا للتنازل عن إعجابي به حتى وإن قرأت له كتابًا ولم يذهلني . هنالك دائمًا كتابٌ آخر قد أتمكن من قراءته في مرحلة غير معلومة من المستقبل ، ليؤكد لي على رأيي العالي في پاتريك هاميلتون ، برغم أنني حتى اليوم لم أقرأ له أي شيء يماثل التوقعات العالية التي وضعتها له . ومع هذه التوقعات التي تلوح في الأفق ، تراجع احتمال قراءة پاتريك هاميلتون وأصبح أبعد من السابق . لقد كنت ضحية ثقتي بنفسي .

وبإمكاني قول المثل عن بقية الكتب في القائمة . لأنني قد زوّرت علاقة وهمية معها ، افترضت معرفتي بها ، أتذكر أصدقائي حين أقرأ هذه العناوين ، أتذكر العديد من المحادثات التي استخدمت فيها هذه الكتب لتلميع أفكاري ؛ ولكني لم أملك وراء هذه العناوين سوى الفراغ ، وذكريات كان من المفترض أن تشعرني بالسعادة ، لا أن تشعرني بوخزات من الإحراج ، والشعور بالذنب حتى ، لأنها أظهرت نفاقي على حقيقته . أخيرًا ، وصلت لهدنة مع

هذه الكتب ، وأصبح الأمر أشبه بدفع دين متأخر لسنين طويلة .

لطالما اعتبرت نفسي قارئًا جيدًا . هل يمكن لأحد أن يعتبر نفسه قارئًا جيدًا دون أن يقرأ «مدل مارش» ، «موبي-ديك» ، و«آنا كارنينا»؟ غالبًا لا . مهما يكن ، كان القائمة بداية لي . أصبحت «مدل مارش» و«المعلم ومارغريتا» ورائي الآن . بدا ممكنًا بالنسبة لي أن أنتهي من كل هذه الكتب في الأسابيع القليلة القادمة . وستصبح جزءاً من نسيج حياتي . مجرد التفكير في هذا كان منعشًا ؛ وأكثر من ذلك ، كان مريحًا . بإمكاني التوقف عن التظاهر أخيرًا .

ماركس وإنجلز على سبيل المثال . عندما كنت في السابعة عشرة من عمري ، نظّمت مدرَستنا رحلة لمدة أسبوع إلى برلين . كان هذا قبل سقوط الجدار بعدة سنوات . سكنّا في فندق في غرب برلين ، وفي الليل ذهبنا إلى الحانات وأماكن الترفيه قرب Kurfürstendamm ، لأكون دقيقًا ، ذهب الجميع برفقة المدرسين . وكنت أنا متشددًا حينها ولم أذهب . بقيتُ في غرفتي وقرأت «صخرة برايتون» .

في مناسبتين ، قمنا بالعبور إلى شرق برلين ، والذي كنت أفضله على الغرب المنحط . نعم لقد كان الشرق صارمًا ومكبوتًا ، ولكنني كنت مكبوتًا أيضًا . أتمنى لو استطعت تذكر المزيد عن هذه الرحلة . بالكاد أستطيع تذكر شوارع طويلة تزدحم بالمنازل الرثة ، والسيارات المتطابقة . كل شيء يبدو وكأنه منزوع المظهر في بداية الستينات من القرن الماضي .

لو كنت سائحًا ، فإن السلطات الألمانية كانت ستلزمك بتحويل ٢٥ مارك ألماني على الحدود . ولا يسمح لك أن تحمل المال

هذا معك عندما تعود إلى الغرب في نهاية رحلتك . بطريقة أخرى ، يجب عليك أن تجد شيئًا لتنفق عليه المال في شرق برلين . في ساحة ألكسندر ، قام زملائي بشراء البيرة ، ومثلجات الفراولة . أيًا يكن ، كنت مأخوذًا بمتجر الكتب والموسيقى في المدينة ، ووجدت هناك ٤ أشرطة كاسيت للبيتلز وپينك فلويد ، والعديد من كتب كارل ماركس مترجمة إلى الإنجليزية . لم تكن تلك النسخ عصرية أو صغيرة . كانت ضخمة ، أشبه بالطوب ، ليظهر العنوان فقط على أغفلتها ، محاطًا بخطوط برتقالية أعلى وأسفل ، وكأن مصمم الغلاف يحاول بصعوبة مضاهاة تصاميم دار بينغوين التي رآها قبل عدة عقود . اشتريت نسخة من «رأس المال» وكتابًا آخر يدعى «العائلة المقدسة» ، ونجحت في إخفائهما في حقيبتي عندما عدت في نهاية اليوم .

أنا متأكد بأنني مؤمن بقراءتي لهذه المجلدات الماركسية الضخمة ؛ بالتأكيد لم أتكبّد عناء شراءها فقط كي ألاحظ ردة فعل والدتي تجاهها . وبمناسبة الحديث عن والدتي ، فإنها أصيبت بالذهول عندما رأتها لدرجة أنني شعرت بالرضا ولم أشعر بالحاجة لقراءتها . لقد كانت إكسسوارات لتصور يساري نصف متشكّل عن العالم ، لم أرد أن أعمقه أبدًا . بالإضافة إلى أنه في أحد اجتماعات المدرسة ، قام أحد المدرسين بإخبار والدتي أنني وصديقي المفضل ماثيو فريدمان كنا شيوعيين . (كان سبب هذه السمعة نقاش خضناه في المدرسة ، وغامرنا باقتراح أنه قد يوجد تبرير لإضراب العمال الشهير آنذاك .)

وهكذا بعد مضي عشرين سنة ، عندما رأتني والدتي أقف في إحدى زوايا المدينة حاملًا نسخة من «البيان الشيوعي» ، اعتبرت أن

هذا دليل آخر على رفضي التام لأن أنضج . وبالإضافة إلى ذلك آندرو ، من قال أنها على خطأ؟

بالتأكيد ، في ذلك الوقت كما الآن ، برغم كوني سعيدًا لأنني ظهرت بصورة الشيوعي ، لم تكن لدي أي نية أن يتحول الأمر لحقيقة . لم يكن هذا بسبب مواقفي السياسية ، بل لأنني سأكون مطالبًا بالبحث عن القواعد الشيوعية أولًا ، ثم تطبيقها بصرامة ، وسيتوقع الجميع مني ذلك في المستقبل . لذلك بدلًا من هذا العناء ، اخترت أن أصبح باتجاه ليبرالي ، يساري متوسط ، وأخبرت نفسي بنصف الحقيقة : لقد كنت أكثر حماسة في شبابي ، وأصبحت لينًا مع مرور الزمن . في هذه النقطة كنت أنتمي لأبناء جيلي ، الذين قضوا ثلاثة عشر عامًا يبكون انعدام الاشتراكية في حكومة العمل الجديد ، ورغم هذا فإن أغلبهم قد عبروا جسر المثالية في شبابهم ليتجهوا نحو النفعية ، والواقعية السياسية ، وينشغلوا بأعمالهم ومدارس أطفالهم .

وبترك هذه الرحلة ورائي ، وجدت أنه من الصعب جدًا قراءة «البيان الشيوعي» في سن السابعة والثلاثين ، ولو قرأته في السابعة عشرة من عمري لكان ذلك أسهل بكثير ، ليس بسبب صعوبة فلسفة الكتاب ، ولكن لأنه كان معبرًا عن الحياة في تلك الفترة . النظرة الكئيبة للعالم التي يقدمها الكتاب ، ربما بدت رومانسية بالنسبة لي آنذاك ؛ أما الآن فبدت وكأنها الحياة ذاتها التي أعيشها .

وقبل «البيان الشيوعي» ، كان علي قراءة «مكتب البريد» لتشارلز بوكوفسكي . آه ، بوكوفسكي . عندما كنت في بداية عشريناتي ، بدا وكأن جميع من أعرفه يقرأ بوكوفسكي – كل الرجال ، علي القول – يقرؤون بوكوفسكي . هؤلاء الرجال كانوا

يستمعون إلى موسيقى فرقة Go-Betweens ، ويشربون بيرة غينس من الكؤوس ، وكانوا يحبون بوكوفسكي كما تحب الفتيات الصغيرات الأحصنة الخيالية . من وصفهم لأعماله ، وما يعجبهم فيها ، بدا بوكوفسكي وكأنه الكاتب الذي لا فائدة من الإعجاب به ، لأن الكل معجب به . لذلك لم أتكبّد عناء قراءته .

وبعد كل هذه السنوات ، أنهيت «مكتب البريد» أكثر من يوم بقليل . الأنا العالية التي يتحدث بها بوكوفسكي ، هنري تشيناسكي ، ساعي بريد بديل ، ثمل ، مقامر ، وأبله ، أحيانا ما يوصل البريد ، ثم ينتهي الأمر بالنسبة له . كان أسلوب بوكوفسكي في الكتابة عبارة عن شظايا قاسية . وكان من الواضح أن رواياته الأخرى تتحدث عن قصة مشابهة ، إن لم تكن مطابقة تمامًا لها . وعلى عكس القول القديم ، إن قرأت جميع كتب بوكوفسكي فإنك ستكون قد قرأت كتابًا واحد له ؛ كانت جميع كتبه بطاقات بريدية مرسلة من المكان ذاته ، مخربشة حتمًا بيد مرتعشة .

وبصفته كاتبًا عن العمل ، كان «مكتب البريد» أكثر كآبة من «البيان الشيوعي» ، الذي عرض على الأقل خلاصًا محتملًا ، يتمثل في الدمار الكامل لجهاز رأس المال . بينما كان خلاص هنري تشيناسكي للمشكلة ذاتها في الشراب ، المراهنة على الأحصنة ، والنساء . ومن اللطيف التفكير بأن هذا الأخير قد يكون خيارًا ممكنًا ، ولكن تشيناسكي كتب في الصفحات الأولى : «بدأ الأمر سهلًا . تم إرسالي إلى محطة غرب آڤون ، وكان الأمر أشبه بالكريسمس بفرق بسيط ، هو أنني لم أمارس الجنس . كل يوم أتوقع أن أمارس الجنس ، ولكني لا أحصل عليه .» وعلى نحو تصويري على الأقل ، هذا ينطبق أيضًا على العالم الذي وجدت نفسي فيه .

كان العمل يفترس عقلي . لقد كنت أملك عملًا جيدًا في شركة ناجحة ، ولكنني أكاد أسمع كل يوم صوت بكاء سونيا من المشهد الأخير في مسرحية «الخال ڤانيا» .[1] ولم تمنحني رواية «مكتب البريد» ، أو كتاب «البيان الشيوعي» كثيرًا من العزاء . كانت «مكتب البريد» أشبه ببرشور عطلة إن قارنتها بالكدح وانعدام الأمل الموجود في «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» ، في ٦٠٠ صفحة ، كانت الرواية تجسد الإهانة التي يتعرض لها العمّال بطريقة تجعل الألم يلاحقك ، ويسحقك لشدة وضوح تفاصيله .

«المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» رواية أساسية ومهمة لتاريخ اليسار البريطاني ، لما تقوله وتمثّله . وعلى جدار البيت في هاستنقز حيث كتبت ، في شقة أعلى متجر للدراجات ، هنالك صفيحة معدنية زرقاء مكتوب عليها : «روبرت نونان ، ١٨٧٠-١٩١١ كاتب مثل روبرت تريسل ل «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» ، رواية الطبقة العاملة الأولى .» إنها قصة سنة من حياة مجموعة من عمّال الطلاء والديكور وعائلاتهم في هاستنقز . إنهم المحسنون في العنوان ، وإحسانهم تعبير ساخر ؛ إنهم يهبون مهاراتهم

---

(١) «الخال ڤانيا ، علينا أن نستمر بالتقدم . لا نملك أي خيارٍ آخر! كل ما نستطيع فعله هو أن نستمر بالحياة . عبر الأيام اللانهائية . سوف نتجاوزها . مهما كانت عواقب القدر . سوف نعمل لصالح الآخرين حتى نصبح مسنين ، لن تكون لنا راحة حتى نموت . وعندما يحين الوقت ، سوف نرحل دون أن نشتكي وسوف نتذكر أننا بكينا ، وأننا عانينا ، وأن الحياة كانت مُرّة ، ولكن الرب سوف يرحمنا!» . أنتون تشيخوف ، الخال ڤانيا ، الفصل ٤ .

وطاقاتهم لنظام يخلّد ظلمهم - «خدعة المال العظيمة» ، كما ذكرت في الرواية . وإلى أوساطهم يأتي فرانك أوين ، مفكر واشتراكي ، والذي يحاول أن يرفع زملاءه العمّال من سباتهم المظلم . روبرت نونان كان عاملًا جيدًا ، وكان عضوا فاعلًا في الاتحاد الديموقراطي الاشتراكي (أحد رواد حزب العمّال) . أيام الأحد من كل أسبوع ، كان غالبًا ما يتحدث إلى الناس ويعظهم من على منبر مؤقت في شاطئ سانت ليونارد .

بالنسبة للحزب اليساري ، «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» كانت توثيقًا وثنيًا . خلقت الدراما من صراع الطبقات في «البيان الشيوعي» بطريقة محلية نجحت في أن تتصل بملايين العمّال حول العالم . وأفضل من هذا ، كانت قد كتبت من عامل طلاء وديكور حقيقي - الشخصيات والمواقف تبدو حقيقية ، لأنها كانت حقيقية . (لم أخترع شيئًا . لا توجد مشاهد أو حوادث في القصة لم أكن قد شهدتها بنفسي أو أملك الأدلة لإثباتها .) وأكثر من هذا ، كان الكاتب ناشطًا ملتزمًا أراد لكتابه أن «يشير إلى ما أؤمن بأنه العلاج الوحيد ، ولأسمي هذا العلاج - الاشتراكية» وقبل خمسين سنة من ظهور أي من الروايات الاشتراكية الأخرى ، تمكن هذا الكتاب من منح قرّائه تصورًا قريبًا لحياة الطبقة العاملة .[1]

أيًا يكن ، لم يكن الكتاب بأكمله عبارة عن جمعيّات صديقة ، وضحكات للندامى خلال قرعهم للكؤوس . كان تصوير

(١) توجد مخطوطة رواية المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة بالإمكان تصفحها على الموقع الإلكتروني www.unionhistory.info/ragged/ragged.php .

تريسل لقدرة الإنسان على ارتكاب الأخطاء، لطمعه وخيانته صارمًا. كنت مذهولًا تحديدًا بشخصية فرانك أوين، والذي يبدو وكأنه يقضي أغلب وقته في الرواية وهو يمر بحالة من الغضب والإحباط من مراوغة رؤسائه وفشل زملائه في فهم «خدعة المال»، برغم محاولاته المتكررة لشرحها لهم خلال استراحات الشاي. إن كانت «مكتب البريد» تدوينًا لشهادة تصف حياة العمل لرجل لا يملك أية مبادئ، مشوش ولا مبالي، فإن «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» تصف معاناة رجل يحاول على مبادئه في نظام متوقف، أن تعرف أسباب تعاستك تمامًا، دون أن تتمكن من تغيير أي شيء سوى الوعظ، والتبجّح.

بدأنا بشكل جيد. وكلما تقدّمت في الرواية، خمسون صفحة كل يوم، لاحظت وجود مشكلة - الكتاب كان طويلًا جدًا. بدأت بالقراءة في يوم ثلاثاء؛ وفي يوم الجمعة لاحظت أنه لم يحدث شيء جديد في الحبكة، وأغلب الأحداث كانت يوم الثلاثاء. كانت هذه علامة إنذار، لأن هذه الرواية كانت أشبه بالقطعة التي تثبت أعلى الباب لمنعه من الاصطدام بالجدار، وكان حجم الخط في هذه النسخة صغيرًا. وبهذا المعدل، لن أصل إلى أي نتيجة إلا بعد أسابيع. وهكذا تستمر الرواية وتستمر. تمامًا كعجلات الرأسمالية، ولكن إن كنت أريد هذه العجلات الرأسمالية، فبإمكاني أن أجدها في عملي.

«إنها رواية أقل برجوازية بشخصياتها وحبكتها (مع وجود خطر التزييف الذي قد تواجهه الحبكة)، من رواية تتحدث عن عمليات مستمرة في حياة العمل.» هذا ما كتب في مقدمة الرواية وربما كان صحيحًا. ولكنه بدا وكأنه منظور لمّاع بالإمكان وضعه على قصة

تحمل الكثير من التكرار والسكون ، وأحيانًا الإجهاد والغطرسة التي يتحلّى بها بطلها فرانك أوين . بالتأكيد فإن الرواية من منظور الاشتراكيين الحقيقيين تعتبر عنصرًا قابلًا للشك ، دمية في يد البرجوازيين لا تقدم سوى انعكاسًا لقيم هذه الطبقة الفاسدة (وربما يذهب بعض الاشتراكيين لاعتبار جبال الكتب التي اشتريتها دون أن أقرأها كدليل على هذه الظاهرة) . الحبكة تضحية ضرورية في سبيل خلق فن لا يخضع للقوانين البرجوازية . ولكن برغم طيبة هذه النوايا ، إلا أنها قد تنتج العديد من الروايات المملة .(١)

كانت مسودة نونان الأصلية تقترب من ربع مليون كلمة ، ثلاثة أضعاف الكتاب الذي تقرأه الآن . كان من المستحيل إيجاد أي ناشر يوافق على اعتماده . توفي نونان سنة ١٩١١ دون أن يرى روايته مطبوعة . وبعد وفاته قامت ابنته كاثلين ببيع حقوق الكتاب للناشر غرانت ريتشاردز بحوالي ٢٤ باوند . وسنة ١٩١٤ ، تم نشر أول طبعة من «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» ، وقد تم حذف ١٠٠ ألف كلمة من المسودة . كان سعرها يقدر بـ٦ شلن ، أكثر بكثير مما يستطيع عامل بسيط تحمّله . وكانت ردود الأفعال تجاه

(١) في نهاية الستينات من القرن الماضي أعلن المخرج الفرنسي جان-لوك غودار أن صناعة الأفلام الفرنسية برجوازية بأكملها وأنه لن يعمل إلا على تلك إخراج تلك الأفلام التي تعكس مبادئه الماويّة . وكانت نتيجة هذا الإعلان عدة أفلام بغض النظر عن رأي أي شخص فيها بوصفها فنًا سينمائيًا -وأعتقد أنها كانت رائعة جدًا- إلا أنها تمثل بروباغاندا شنيعة . لم يتم بث هذه الأفلام على شبكة London Weekend Television ولكن يمكن مشاهدة بعضها على يوتيوب .

الرواية إيجابية . ظهرت طبعة ثانية للرواية بعد أربع سنوات ، أقل بـ٦٠ ألف كلمة عن الطبعة الأولى . وأصبحت رواية نونان تقريبًا ثلث حجمها الأصلي . وفي سنة ١٩٥٥ قام عضو حزب العمال فريد بول بإعادة نشر الرواية كاملة دون أي حذف بالتعاون مع ناشر الحزب الاشتراكي لورانس وويشارت .

وبعد توالي هذه الأحداث ، بدا الناشر الأصلي غرانت ريتشاردز وكأنه وغد . لقد استغل ابنة رجل ميت . وقلّص من حجم الرواية ، ليس مرة واحدة ، بل مرتين ، برغم أنها أصبحت من أكثر الروايات مبيعًا آنذاك . ولكن لنتوقف قليلًا ، لو لم يلاحظ ريتشاردز قوة الكتاب ، لبقي الكتاب في صندوق معدني أسفل سرير كاثلين نونان . أعلن ريتشاردز عن إفلاسه سنة ١٩٠٥ ، بالإضافة إلى أن تقليصه لعدد كلمات الرواية كان بهدف جعلها في متناول القارئ ، ولتصبح إحدى الملاحم الشهيرة للطبقة العاملة ، كالتي كتبها سومرست موم أو أرنولد بينيت ، وكان يحاول أيضًا جعل الكتاب أقصر لأنه لم يستطع تحمل تكلفة طباعته كاملًا . بطريقة أخرى ، من البداية ، لقد فعل غرانت ريتشاردز كل ما بوسعه كناشر ليضمن أن تصل كلمات تريسل إلى أكبر عدد ممكن من القرّاء . لا يمكن لأحد آخر أن يخاطر بهذه الطريقة . وقام ريتشاردز بتعديل النص ، ليس لأنه يريد تغيير رسالته التي تعبر عن صوت الطبقة العاملة ، ولكن لأنه سعى لنشر هذه الرسالة - ولأن الكتاب كان بحاجة للمراجعة والتعديل . كانت الرواية في نسختها الأصلية أطول من اللازم ، وتحتوي على الكثير من التكرار .

وأنا لا أقول بأن أحد هذين الرأيين صحيح والآخر خاطئ . أعتقد أن التاريخ يحتمل أكثر من وجهة نظر واحدة ، تمامًا كما أن

للكتاب الواحد تفسيرات وقراءات عديدة . وبصفتي كاتبًا وليبراليًا فإنني أميل بعاطفتي للرأي الذي يقول ؛ أحترم تصور الكاتب لعمله ، ولكن يعود فضل شهرة هذه الرواية وتحولها لكنز وطني إلى غرانت ريتشاردز . ولأربعين سنة ، كان النص الذي انتقل من يد إلى يد ، وتجمّع لقراءته العمّال في المناجم والورش ، وانتشر بواسطة اليسار البريطاني حديث النشأة ، برفقة «البيان الشيوعي» ، كان النص الأقصر الذي أخرجه ريتشاردز . وفقط حينما أصبحت الرواية في قلب الشعب البريطاني ، تأكد لورانس وويشارت من إمكانية إخراج النسخة الكاملة وطباعتها ، لحتمية الربح بسبب سمعة الكتاب الهائلة .

نسخ «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» التي تباع الآن في المكتبات ، هي النسخة الكاملة غير المشذبة ، وأعتبرها مسودة غير جاهزة للطبع . ورغم هذا فإن فكاهة الرواية وعاطفتها تتغلب على هذه النقطة . لقد انتهيت من قراءة الرواية ، وأحببتها ، ولكني شعرت أنه لا يوجد فرق كبير إن بدأت بقراءتها من المنتصف أو من البداية ، أو حتى إن اخترت صفحة عشوائية وأتممت القراءة منها . ربما يأتي شخصٌ ما في المستقبل ويعيد تحريرها ، وربما تخسر تأثيرها إن حدث ذلك .

في هذه المرحلة ، علي أن أعلن عن سبب اهتمامي بتفاصيل قضية النشر والطباعة ، لأنني وغد أيضًا مثل غرانت ريتشاردز . وإن كنت قد اعتبرت مسألة طباعة هذه الرواية على منحى شخصي ، فلأنها مسألة شخصية بالنسبة لي . قد تعلم ، أو لا تعلم أنني كاتب قمت بكتابة ثلاثة كتب ، ولكني أخشى أن أخبركم بأن هذا ليس مجرد تعاطف بين الكتّاب .

عندما كنت أقرأ «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» ، وكنت أصارع لإنهاء «قائمة الإصلاح» ، كنت أملك وظيفة أذهب إليها ، كـأغلب الكتّـاب . وكـانت تلك الوظيـفـة هي التي تسـببت في تعاسـتي . هل كنت عامل ديكور؟ لا . ساعي بريد؟ لا . أصابعي كانت بيضاء ومدللة لم تحمل الأغراض الثقيلة أبدًا . صحفي إذن؟ لا .

كنت محررًا للكتب . عدة مرات في الأسبوع ، لقد عملت مع دار نشر في لندن وجلست أمام أكوام من الأوراق ، تتزايد كل يوم ، وكنت أحاول اختيار الجيد من السيء ، لمعرفة ما يستحق النشر ، وما يستحق النسيان ، ما يمكن إنقاذه بشيء من التعديل ، وما يمكن إلقاؤه في سلة المهملات . أنا كاتب . كل يوم ، لأجل المال ، أحمل أقدار الكتّاب الآخرين في يدي . لقد كانت نوبة مزمنة من العزلة .

«الطبقة المالكة والطبقة العاملة تعبران عن الانفصال الإنساني ذاته . ولكن الطبقة المالكة تتعامل مع انفصالها بشكل مختلف ، لأنه يشعرها بالقوة ، وتجد فيه مظهرًا من مظاهر الوجود الإنساني . بينما تشعر الطبقة العاملة بأنها مسحوقة ، وهكذا ترى في انفصالها ضعفًا ، وتجد أنه تعبير عن وجود لا إنساني .»

أوه فريد ، أوه كارل . فقط لو كان الأمر بهذه السهولة .

الكتاب السادس

البحر ، البحر - آيرس مردوخ
(الكتـاب الإضـافي الأول - الطبخ مع پومـيـان - إدوارد دو پوميان)

«لقـد كنت مـذعورًا هذا الصبـاح في المطبخ عندمـا رأيت مـا ظننت أنه عنكبـوت ضـخـم يتـحـرك من مـوضع حـفظ اللحـوم . لأكتشف أنه أحد أكثر الضفادع جاذبية .»
البحر ، البحر

«لا يوجد أدنى شك أن المجتمع الإنجليزي أصبح أكثر انفتاحًا في مـا يتـعلق بعـادات الطعـام ، ويبـدو أن تناول الحلزون أصبح مملًا عندما يقارن بتناول النحل ، الجنادب ، والنمل المغطى بالشوكولاتة ، وأعـتـقـد أن هذه المأكولات تبـاع بشكل منتشـر في أكبـر متـاجـر إنجلترا .»
الطبخ مع پوميان

كيف أصبحت كـاتبًا؟ لقد كنت أملك ورقة وأقلام رصاص . كنت أملك مـذكـرة وأفكارًا . كنت أملك برنامج تحـرير على الكمبيوتر «أمستراد ٩٥١٢» . ولكنني لم أعرف أي شخص تمكن من اتخاذ الكتابة عملًا يدر عليه المال ، ولم أكن أعلم كيف انتقلت

من مجرد شخص يجلس أمام شاشة فارغة ، لشخص يشرب كوكتيل بيلينيز مع الكاتبة الشهيرة جينيت وينترسون . وهكذا ، حصلت على عمل في متجر للكتب . وقّعت عقدًا للعمل لمدة ستة أشهر ، وبقيت هناك لخمس سنوات .

لأكون دقيقًا ، لقد كانت سلسلة من متاجر الكتب . خلال تلك الفترة ، عملت في ثلاثة فروع مختلفة ، وكان آخرها فرعًا أنيقًا في غرب لندن . وبعد عدة سنوات هناك ، سُمح لي بإدارة قسم الروايات في الطابق الأرضي ، مسؤولية أحببتها . لقد كان منظرًا رائعًا ، رف بعد رف من الكتب الجديدة ؛ العديد من الروايات الفائزة بجوائز عالمية . وكان علينا –بطلب من المدير– أن نحقق ما يسميه «المخزون المثالي» ، ومعنى ذلك أن لا ينفد أي كتاب لدينا . وهكذا كل يوم ، كنت أجوب أرفف الروايات كدوريّة ، أتجول ذاهبًا عائدًا ومعي قائمة الناشرين والمخزون ، أفتش عن أي نقص محتمل لأكمله . وخلال هذه العملية المتكررة ، تمكنت من تشرّب أسماء العديد من الكتّاب الذين لم أسمع بهم من قبل . وأصبحت أيضًا أكثر دراية بالزوايا الخفية لكتب أشهر الكتّاب . على سبيل المثال ، لم تعد موريل سپارك بالنسبة لي هي صاحبة «ريعان شباب الآنسة جين برودي» فقط ، بل أيضًا «الصورة العامة» ، «الاستيلاء» ، «الحقوق الإقليمية» . وبدأت سريعًا بالتعرف على أعمال الآنسة ريد ، هوبرت سيلبي جونيور ، وليسا سانت أوبين دي تيران ، ولا أعرف عن هؤلاء سوى أسمائهم بالطبع . وكنت هنا قد تعلمت كل ما أحتاجه لأظهر كمثقف مطّلع على الكتب وليس في الجامعة ، تعلمت الأسماء والعناوين الفخمة . كان هذا المتجر بالنسبة لي مدرسة لتعليم من يريدون تعلّم الهراء .

وخلال العملية اللامنتهية من الركض وراء «المخزون المثالي» ، كنت أنظر بعطف إلى أولئك الكتّاب الذين لا تباع أعمالهم . وكان أحبهم بالنسبة لي أعمال آيرس مردوخ . لا يريد أحد شراء أي من كتبها ، ما عدا «البحر ، البحر» ، والذي فاز بجائزة البوكر سنة ١٩٧٨ . وشهرة أمثال ڤيرجينيا آندروز ، لويس بيرنيريز ، جيلي كوبر ، أو روبرتسون داڤيس ، شكّلت تهديدًا مستمرًا لعروض المئة سنت . ولكن في كل مرة أصل فيها إلى نهاية قائمة أسماء الكتّاب تحت حرف «M» وفي يدي قائمة المخزون ، أكون متأكدًا تمامًا أنني سأجد كتب آيرس مردوخ مكدسة ، «الأمير الأسود» ، «هنري وكاتو» ، «رأس مقطوع» . ومن الآثار الجانبية لهذا العمل هو أنه يمنحك طلاقة عالية - أو معرفة سطحية لأعمال السيدة آيرس مردوخ .

التقيت بزوجتي لأول مرة في ذلك المتجر . والتقيت أيضًا بموريسي ، دستين هوفمان ، والأميرة ديانا .[1] ولأنني كنت في

(١) اشترى موريسي نسختين من كتاب لبروس فوكستون وريك بكلر . قلت له لا أظن أن هذا اختيار جيد ، ابتسم ورد علي هذا الكتاب ليس لي .

الأميرة ديانا في الفترة التي كانت فيها منفصلة عن الأمير تشارلز ، وحين كانت تظهر بشكل متكرر في ماكدونالدز وهارڤي نيكلز لتثبت استقلاليتها واعتمادها على نفسها ، جاءت إلى المكتبة التي كنت أعمل بها واختارت كتابًا عن تربية الآباء السيئة وآثارها النفسية على الأطفال الذين يعانون من مشاكل في التغذية . حذرنا رئيسنا في العمل فورًا من الحديث إلى الصحافة عمّا رأيناه ، ولكني أتحدث عن هذا الآن لأول مرة . وخلال عملية شرائها للكتاب ، حاول أحد المصوّرين التقاط صورة لها بينما كانت تأخذه مني . =

دوائر الناشرين الاجتماعية ، تمكنت من لقاء العديد من الكتّاب ، من بينهم آيرس مردوخ . في إحدى أمسيات حفل البوكر ، قرأتْ آيرس مردوخ مقاطع من روايتها «البحر ، البحر» ، أمام مجموعة من الحاضرين . كانت السيدة آيرس جذابة ، بشعرها الأبيض ، وابتسامتها الشيطانية ، ويبدو أنها جاءت للمناسبة وهي ترتدي الشباشب .

«أحب أعمالك ،» أخبرتها ، برغم أنها كانت جملة معتادة يقولها الجميع للكتّاب للتقرب إليهم ، ولكنني كنت أعني ما قلته .

كل هذه الذكريات عادت إلي عندما بدأت قراءة «البحر ، البحر» . أيًا يكن ، تلك المشاعر من النوستالجيا ، الشعور بالذنب ، الندم ، أو ربما الكبرياء؟ - اختفت جميعها وكأنها غُسلت بدلو بارد من الحيرة . برغم أن كتابتها كانت مشرقة وواضحة ، والمشاهد إنجليزية مطمئنة ، ومحلية ، ولكن هذه الرواية كانت واحدة من أكثر الروايات التي أصابتني بالحيرة على الإطلاق . لقد كان كتابًا غريبًا .

كان الراوي مخرج مسرحيّ متقاعد يدعى تشارلز آروبي . تبدأ القصة عندما ينتقل من لندن إلى بلدة على حافة البحر الشمالي ،

= في صباح اليوم التالي قام رئيسنا في العمل بإرسال رسالة إلى قصر كينسنغتون ليؤكد لهم أن ما حدث لا علاقة له بمتجر الكتب وأنه بإمكان الأميرة ديانا العودة في أي وقت تشاء لشراء الكتب دون أي انتهاك لخصوصيتها .

أما هوفمان فلم يفعل أو يقل أي شيء يستحق الذكر ، ولم يختر كتابًا حتى . ولا أقصد بهذا أن أنتقده ولكنني أصف الحقيقة فقط .

ويسكن في منزل آيل للسقوط يدعى «شْرف إند» حيث قرر أن يكتب مذكراته - الكتاب الذي نقرأه - «نادمًا على حياة من الكبر والغرور . سوف أترك السحر ، وأصبح متبتلًا» . وهكذا يبدأ بالحديث عن كل مرة ذهب فيها إلى السباحة ، كل فكرة ، وكل وجبة . «الطعام موضوع عميق ، ولا يستطيع أي كاتب أن يكذب عندما يتحدث عنه .» هذه الصفحات المبكرة من «البحر ، البحر» كانت شفافة إلى درجة كبيرة . بانتقاله إلى الشاطئ بحثًا عن التغيير العميق لحياته ، وكتابته لقوائم الطعام والشراب بكل تفصيل : كان هذا الرجل مهرجًا .

أيًا يكن ، تفلت الرواية بعد هذا وتقع في ما يشبه الجنون ، بينما يستمر هوس آروبي بذاته بالتضخم . يبدأ برؤية ، أو بتخيل رؤية ، وحوش من العمق . تزوره أعداد متوالية من الأصدقاء والمعارف من لندن . ويبدأ بالانغماس في تجديد حب قديم لفتاة من طفولته تدعى هارتلي ، والتي تعيش بالمصادفة في قرية قريبة مع زوجها . هل يحدث هذا فعلًا ، أم لا؟ كان زواجها متصدعًا وتعيسًا ، يخبرنا آروبي ، ولكن لا نعلم إن كانت هذه هي الحقيقة . كانت هارتلي تريد من آروبي أن يتركها وزوجها وشأنهما . ويظهر ابنها بالتبني فجأة هكذا . ثم باستخدام الابن كطُعم ، يختطفها آروبي . وخلال كل هذه الأحداث ، يلقي آروبي بهذا الجنون على القارئ في شكل حوار داخلي يتشكل من مجموعة من الرؤى الفلسفية ، لنحصل على مجموعة من اللوحات المرسومة بدقة للبحر ، البحر ، وأوصاف دورية لعدد من الوجبات الفظيعة .

إنها الوجبات التي وجدتها من أكثر الأشياء إرباكًا في الرواية . وكما ذكرت سابقًا ،لم يكن الطعام إحدى نقاط قوتي . لدي بعض

الحماسة تجاه الأشياء التي تبقيني على قيد الحياة ، ولكن معرفتي بها كانت محدودة ؛ لم يسبق لي أن تعلمت الطبخ بطريقة جيدة . لذلك عندما تعرفت على قوائم طعام آروبي المتعالية («كنت أتخيل أن الكتاب الوحيد الذي سأنشره سيكون كتاب طبخ») ، لقد كنت في حيرة لأعرف معنى كل هذا . هل كان هذا طعامًا فاخرًا أم أنه مجرد خطأ ، على سبيل المثال في صفحة رقم ٢٧ يقول :

سباغيتي مع قليل من الزبدة والريحان المجفف . («الريحان بالطبع هو سيد الأعشاب .»)

كرنب ربيعي مطبوخ ببطء مع قليل من الشبت .

قطع بصل مغلية مقدمة مع نخالة ، أعشاب ، زيت الصويا ، طماطم ، وبيضة واحدة .

شريحة أو شريحتان من لحم البقر المعلب . («اللحم ليس سوى عذر لأكل الخضروات معه .»)

قارورة من الريتسينا .

وفي حضرة «قائمة الإصلاح» ، وكوسيلة لفهم الكتاب ، شعرت بأنه علي على الأقل معرفة إن كانت هذه الوجبات قابلة للأكل أم لا . فانطلقت بدراجتي إلى السوبر ماركت وملأت سلّة بكل هذه المكونات ، أحضرتها معي للمنزل وبدأت بإعدادها بأقصى ما أستطيع من قدراتي المحدودة . السباغيتي كانت جيدة ، أما الكرنب ولحم البقر المعلب ، فقد كانا كرنب ولحم بقر معلب ، لكن إعداد البصل كان كارثيًا . أحمد الله على وجود شراب الريتسينا .

حاولت مرة أخرى بعد عدة أيام بغداء تطلب بعض الإعدادت :

شوربة العدس
نقانق تشيپولاتا مقدمة مع قطع بصل مطبوخة ، وتفاح مطبوخ ببطء في الشاي
مشمش مجفف وكعك وبسكويت
بوجوليه

«قطع المشمش الطازجة هي الأفضل بالتأكيد ،» يتحدث آروبي ، «ولكن المشمش المجفف ، المنقوع لمدة ٢٤ ساعة ، والمجفف بطريقة جيدة ، تشكل رفقة من الجنة لأي نوع من البسكويت أو الكعك . ويرتفع المشمش المجفف لأقصى درجات روعته حين يقدم مع أي شيء يحتوي على اللوز ، وربما بعض النبيذ أيضًا . لست صديقًا رائعًا للخوخ ، ولكني أظن أن المشمش هو سيد الفواكه .»

جففت المشمش طوال الليل ، وطبخت التفاح في الشاي ، كما في التعليمات ، ولكن النتيجة لم تكن من الجنة ولا من الخيال – بل كانت مقززة – ومرة أخرى أصابني الصداع بسبب شربي لقارورة من النبيذ وقت الغداء . أظنه كان تحديًا للشراب ولكن على طريقة تشارلز آروبي ، بعواقب غير لطيفة للمعدة .

بالطبع كانت هذه التجارب مجرد مزحة ، ولكنها لم تقرّبني أبدًا من الغوص في معنى الوجبات ، أو حتى من الرواية التي أردت الاقتراب منها من الأساس «البحر ، البحر» .

في نهاية ذلك الأسبوع ، كان لدينا ضيف ، صديق قديم يدعى ريتشارد . كان على معرفة بتينا منذ أيام الدراسة . وكان ريتشارد يحب أن يأكل الكثير من الطعام اللذيذ ، وكان صاحب ذوق رفيع . فماذا تقدم لرجل كهذا؟ فكرت في طبخ بعض قطع

البصل على طريقة آروبي ولكني غيرت رأيي سريعًا . وبدلًا من ذلك فعلت ما أفعله دائمًا عندما يزورنا ريتشارد ، قمت بشراء الكثير من النبيذ والجبن ، لأدعه يشرب ويأكل دون أي تدخل مني .

وهكذا جلسنا على طاولة الطعام في المطبخ ، وبينما كنت أطلق العنان لقارورة نبيذ أخرى ، أسند ريتشارد ظهره للكرسي وجذب كتاب طبخ من الرف القريب منه جوار النافذة .

ثم سأل بينما كان يتصفّحه ، «أهذا كتاب جيد؟» وبعدها بدقيقة قال ، «يا إلهي ، إنكم تعتنون بكتبكم جيدًا ، جميع كتب الطبخ التي نملكها مغطاة ببقع الطعام . يبدو هذا الكتاب وكأنه لم يُفتح من قبل .»

ودون قصد ، كان ريتشارد يحوم حول شيء ما . كتب الطبخ التي نملكها تبدو نظيفة لأننا لم نستخدم أيًا منها على الإطلاق . قبل عدة سنوات عندما وُلد ألكس ، كنت قد قررت أن آخذ على عاتقي مسؤولية تعلّم الطبخ . اشتريت وقتها عصّارة وأدوات قياس مكونات الطعام ، وبدأت وتينا بالذهاب معًا إلى أسواق الفلاحين ، والجزّارين ؛ وبالتأكيد فقد اشتريت العديد من كتب الطبخ ، أكثر بكثير مما كنا نحتاج ، وأغلبها بقي على الرف ليعطي المطبخ بعض الديكور . وفعلا لقد تعلمت طريقة إعداد بعض الأطباق البسيطة ، دون أي براعة ، دون أي سرعة بالتأكيد . مهما يكن ، لم يخطر لي قبل هذه اللحظة أن شهيتي لزخارف فن الطعام ، كانت أكثر بقليل من مجرد طريقة أخرى أمارس فيها التسوق . وكما يقول پاسكال : «قلب الرجل أجوف ، ومليء بالرائحة .» آه حسنًا . لقد كنت سطحيًا ولكنني على الأقل كنت أحاول باستمرار .

«أهذا كتاب جيد؟» كانت الإجابة البسيطة ، السهلة لسؤال ريتشارد البسيط «نعم .» لأنني كنت أملك كل الأسباب التي تجعلني أفترض بأنه كتاب جيد ، عدا أنني تأكدت من ذلك بنفسي بعد استخدامه في الطبخ . ولكن ماذا يمكن أن تضيف التجربة الشخصية إلى هذا التقييم؟ لقد كنت أفتقر إلى الخبرة التي تؤهلني لإطلاق حكم كهذا . وحتى لو كنت جربت استخدام الكتاب ، فستكون إجابتي متعلقة برأيي في الكتاب ، ولم يكن هذا سؤال ريتشارد على الإطلاق . ولكن نزاهتي المولودة حديثًا ، قفزتْ من «قائمة الإصلاح» ، ومن كأس النبيذ ، ودفعتني لإطلاق اعتراف كامل : «لا أعرف . لقد كان في قائمة أفضل كتب الطبخ على مر العصور ، أظنك تعرف هذا الكتاب ، لقد كان في السوبر ماركت قبل عدة سنوات . لم أقرأه . لم أنظر إليه حتى . لقد اشتريت كتبًا أخرى أيضًا ، ولم نستخدمها أبدًا . إنني دجّال .»

ثم قلت لريتشارد : «تناول المزيد من الجبن .»

رد ريتشارد : «حسنًا ، أظن أن هذا الكتاب مليء بالهراء .» ثم أعاد الكتاب إلى الرف ، «هل لديك أي جديد تعمل عليه الآن؟»

أخبرته بالحقيقة ، لقد كتبت القليل منذ أن وُلد ألكس . ولكن أخبرته عن مشروعي مع الكتب .

قال ريتشارد : «أهذه قائمة الكتب التي ذكرتها في آخر مرة التقيت بك؟» ثم أضاف : «وعدة مرات قبلها أيضًا .»

قلت : «نعم ولكني جاد هذه المرة .» وأخبرته بالكتب التي قرأتها من القائمة .

كان ريتشارد ضيفًا مثاليًا يستمع لي بلباقة بينما كنت أتحدث عن روعة هذا الكتاب أو ذاك ، ليحرك رأسه سلبًا أو إيجابًا ليخبرني

إن كان قد قرأ هذا الكتاب من قبل أم لا . ولكن عندما وصلت للحديث عن كتاب «البحر ، البحر» أوقفني فجأة كالصاعقة .

«اللعنة!» صرخ ريتشارد ، لتسيل بعض قطرات النبيذ حول كأسه . «إنني أحب ذلك الكتاب!»

لكنني قلت : «لا أظن أنني تمكنت من فهم الكتاب .»

سألني : «هل انتهيت منه؟»

قلت : «ليس بعد ،»

رد علي : «إنه عظيم ،» ثم بدأ يتحدث بقناعة تامة لخمس عشرة دقيقة عن روعة الرواية التي سببت لي الصداع ولم تمنحني سوى قدرًا ضئيلًا من المتعة . جلستُ أستمع له وأنا أشعر بأنني ثمل بعض الشيء ، ولكن ما فاجأني ليس ثقته العمياء بعظمة هذه الرواية ، بل المتعة الهائلة التي كان ينطلق منها عندما يتذكر هذه الرواية . ريتشارد يعمل كصانع أفلام وثائقية . لقد رأى في حياته العملية العديد من المناظر البشعة ، وشهد على أسوأ ما يمكن للبشرية أن تصل إليه . ولكن يبدو أن الكتاب جدّد شبابه . بإمكانك أن ترى ريتشارد وهو يقبض على حماسته خلال حديثه عن رواية «البحر ، البحر» .

ثم قلت له : «ولكن الوجبات ريتشارد ، ماذا عن كل هذه الوجبات في الرواية؟» ثم رد علي وهو يضحك : «أوه ، إنها مضحكة ،» وبالتأكيد فقد كانت الوجبات مضحكة ولكنني لم أكن أعتقد أنه من المسموح لي أن أعتبرها مضحكة .

وهكذا بعد أن فتح لي ريتشارد هذا الباب ، فتحت جميع أبواب الرواية لي . حتى هذه اللحظة لم أعلم أنه من المسموح لي اعتبار أي شيء في هذه الكتب مضحكًا . لقد كنت أقرأ الأدب ،

والأدب لا يثق بالفكاهة ، بمنطق أن ما يجعلك تضحك بشدة عليه أيضًا أن يجذبك بطريقة أكثر خشونة . ولكن «البحر ، البحر» ، خاصة في فصولها الأولى ، مضحكة بطريقة بارعة . لذلك عدت لقراءتها من البداية وضحكت كثيرا بسبب تشارلز آروبي . لقد شعرت بشعور رائع وأنا أستمتع بهذه الفكاهة .

شيء آخر جعلني أبتسم في الرواية ، هو اكتشافي عدم اتفاق أي معلق على الوجبات في «البحر ، البحر» . بدأت بالبحث على الإنترنت لأجد المراجعات في الصحف حول هذه الرواية ، لأجد اختلافات واسعة ، إحدى الصحف اعتبر الوجبات مقززة ، وصحيفة أخرى وصفتها بالريفية ، وثالثة وجدتها رائعة . وفي موقع ما تم اختيار بعض الأطباق من الرواية لتُوصف بأنها «منعشة وعضوية .» وفي صحيفة the Independent وجدت هذه الملاحظة : «قائمة الطعام المقززة كان قد تم اقتراحها من قبل زوج آيرس مردوخ ، جون بايلي ، الذي فاجأ الجميع حين تظاهر بأن هذه الأطعمة كانت لطيفة» .

ارتحت حقًا عندما اكتشفت أنه لا توجد إجابة صحيحة فيما يتعلق بهذه الرواية : لحم رجل ما ، هو عذر رجل آخر لتناول الخضروات . ما يجعل هذه الرواية متماسكة هي شخصية الكاتبة وانشغالاتها ، أكثر من التطبيق الملتزم لشكل الرواية . إنها رواية مضحكة ، روحانية وجنسية أيضًا ، فلسفية ، ومخيفة . وأجمل ما فيها ، هي الطريقة التي تحمل بها أكثر من معنى واحد في الوقت ذاته ، لتطلق شيئًا مميزًا لكل من يلتقطها ويقرأها . يكتب آروبي ، «إننا جميعًا متكلفون ، نعرف تمامًا كيف نضخم من أهمية ما نشعر بأنه ذو قيمة .» لقد أخذت مردوخ مكونًا من مطبخها ، مزحة ،

وخلطتها بكل دهشتها ، غرابتها ، ذكائها ، وروحها في الكتاب ، تمامًا كالمعلّم الذي عاش في روايته .

«البحر ، البحر» كانت رواية محررة بطريقة عملية أيضًا . لأنني حاولت إعداد أطباق آروبي الكريهة بنفسي ، بإمكاني تخيل محاولتي للطبخ من جديد . سيكون من اللطيف إعداد عشاء لذيذ لشريكتي في ليلة ما . ولكن من أين أبدأ؟

أحد كتب الطبخ التي اشتريتها عندما كنت في قمة حماستي لهذا المشروع يعود لثلاثينات القرن الماضي ، كتاب كلاسيكي يدعى «الطبخ مع پوميان» ، أعده الفرنسي إدوارد دو پوميان وكتبه بلغة فخمة بشكل مبالغ فيه ، مثل تشارلز آروبي ، ولكن الفرق بينهما أن پوميان يتحدث بطريقة جادة ، أم آروبي فقد كان مجرد شخصية خيالية في رواية . خذ هذا المثال من حديث آروبي :

«لم تكن المطاعم هي التي جعلتني أدرك حقيقة الأساطير الكاذبة حول (المطبخ الرفيع) ، بل حفلات العشاء . وحتى أن هذا النوع من الطعام يمنع الضيافة ، لأن كل من لا يجيده سيتردد حتمًا لدعوة عشّاقه ، خوفًا من الفشل في إتقانه . من الأفضل أن يتم تناول الطعام مع الأصدقاء الذين لا تؤثر فيهم هذه الاعتبارات الاجتماعية ، أو بمفردك وهو الأفضل دائمًا . أكره حفلات العشاء المزيفة ، المزدحمة بالقبلات ، والألفة المصطنعة .»

يبدو هذا صحيحًا ، أليس كذلك؟ قارن الآن بين هذه الشخصية الخيالية التي تدعى آروبي ، بالشخصية الأخرى الحقيقية تاريخيًا «پوميان» :

«أولًا ، يوجد ثلاثة أنواع من الضيوف : ١ . الذين تحبهم . ٢ . الذين تضطر لضيافتهم . ٣ . الذين تبغضهم . لكل هذه الأنواع

المختلفة ، بإمكانك أن تعد لهم على الترتيب ، عشاءاً رائعًا ، وجبة عـادية ، أو لا شيء على الإطلاق ، وللنوع الأخيـر من الضـيـوف بإمكانك أن تشتري طعامًا جاهزًا . لأنه من الصعب جدًا إعداد الطعام لشخص تبغضه . لأنك مهما فعلت ، سوف تتعرض للانتقاد ، لذلك من الأفضل أن تشتري طعامًا جاهزًا وتدع المورد يتحمل النقد بدلًا منك .»

حسنًا ، مَن بإمكانه أن يتناقش مع هذين الرجلين ، خاصةً وأنهما قد عبرا عن آرائهما بطريقة متسلطة؟ ألا يبدو پوميان وكأنه هو الشخصية الخيالية بعيدة الاحتمال وليس آروبي؟ هذا طبّاخ شهير يقترح أن بعض الضيوف لن تلائمهم سوى الوجبات الجاهزة ، بينما لو كان جيمي أوليڤر -الطباخ الشهير- في مكانه ، فإنه على العكس تمامًا ، سوف يعد طبقًا لذيذًا من الپاستا لألد أعدائه .

«لأجل الوصول إلى عشاء ناجح ، على طاولة الطعام أن لا تضم أكثر من ثمانية أشخاص . عليك أن تعد طبقًا واحدًا جيدًا ، وقم بالتركيز على هذا الطبق بشكل كامل . سوف يستمتع ضيوفك به حتمًا لأنك استخدمت كل مهاراتك في إعداده .»

بحثت في كتاب «الطبخ مع پوميان» عن طبق يحقق هذه الشروط . سيكون هناك شخصان على الطاولة ، وأحدنا لا يأكل السمك ، لذلك سنستبعد Codling à la Basquaise ، ماذا عن Poulet Flambé à l'Estragon؟ لا ، هذا طبق صعب . Blanquette de Veau؟ لذيذ ، ولكنه صعب أيضًا . استقريت أخيرًا على إحدى وصفات آروبي ، شرائح لحم مع الراوند .

٣ شرائح لحم
حزمة من الراوند
زبدة
قطعتان من السكر

«قدِّم طبق شرائح اللحم المحاطة بحساء الراوند. هذا طبق جيد.» هكذا كتب بوميان. لقد أحببنا شرائح اللحم، وحساء الراوند، ربما ليس في الطبق نفسه والوقت نفسه. من الواضح أن الوجبة كان يجب أن تعد بوفرة، وهكذا لا يوجد أي شيء في الوصفة يدل على ضرورة إضافة أي طعام آخر كطبق جانبي -بطاطا أو فاصوليا خضراء أو أي شيء آخر-. وهكذا اتصلت بتينا وهي في عملها وأخبرتها أنني سأقوم بإعداد العشاء الليلة، وقلت: «سيكون عشاء مميزًا.»

ردّت علي بكل توازن: «حسنًا».

لاحقًا، بعد أن وضعت ألكس في السرير وقرأنا قصة «نحن ذاهبون لصيد دب معًا» («لا نستطيع القفز عليه. لا نستطيع المرور من أسفله. أوه لا! علينا أن نمر عبره!»)، ثم بدأت بمراسم إعداد طعام العشاء. فتحت قارورة النبيذ. غامرت بوضع حزمة كاملة من الراوند. ثم جلست للعمل.

«لا أريد لأحد أن يدخل!» كنت أنادي بهذه الجملة كلما سمعت أقدام أحدهم قرب الباب الأمامي. لم تكن الأشياء تسير على ما يرام في المطبخ.

أخيرًا، وبعد تأخير دام أربعين دقيقة، حلّقت سحابة من الدخان والزيت فوق المطبخ، ومروحة الطرد تزمجر بأعلى طاقة لها،

وكـان سطح الطاولة مليـئًا بالبـقع التي لا تزول . جلست تينا إلى الطاولة . وعلى طبقها كانت شريحة لحم محترقة قليلًا ، وشيء من الراوند الوردي اللامع .

«ما هذا؟» سألتني تينا .

«هذا طبق جيد ،» أجبتها .

«البطاطا؟ أو . . .؟»

«لا ، هذا كل شيء .» كـان الراوند يلمع بشكل لا يفـتح الشـهية على الإطلاق . «هنالك المزيد منه ، لقـد استـخدمت كل فنون الطبخ لأجل تحضير هذا العشاء .»

«أعلم أنك وريتشـارد معـجبـان بكتاب آيرس مردوخ ،» قـالت تينا ، وهي ترفع شـوكـتـهـا . «ولكـني كنت أعـمل طوال اليـوم . هل بإمكانك في المرة القادمة أن تعدّ طعامًا حقيقيًا؟»

لم تبـدو تلك اللحظة مناسبـة لتصحيح خطأ زوجتي . تناولنا عشاء يوميان . حقيـقةً لم يكن الطعـام سيئًا . ولكن لم يعد أحد ليملأ طبقه من جديد .

الفرق بين التجربة الحقيـقية والمتخيلة لهذا الطبق كـان أحد زخارف كتابة مردوخ . كيف بإمكاننا أن نفرق بين الطبق «المقرف» ، و«السـاخر» ، «والريفي»؟ يبدو أننا وحـدنا أمام هذه الأحكام . لحل هذه الأحجية علينا أن نعود إلى معرفتنا التراكمية وخبراتنا المشتركة - وربما كتاب جيد .

في ذلك الأحـد ، وضـعت التـصـرفـات الصـبـيـانيـة جـانبًا وأمسكت بالكتـاب الذي أخـذه ريتـشـارد من الرف قـبل أسـبـوع ، أعـددت طعـام الغـداء يوم الأحـد ، ولأول مـرة في حيـاتي ، قـمت بشوي دجاجة . وبرغم من أنها كـانت جافة ، وصلصة اللحم جاهزة

اشتريتها من السوبر ماركت ، إلا أننا أخبرنا أنفسها أنها كانت رائعة ، لأنها كذلك . كان اسم الكتاب «دجاجة مشوية وقصص أخرى» .

ويبدو أن الإصلاح كان قابلًا للانتقال .

الكتب من سبعة إلى تسعة

كونفدرالية البلداء - كينيدي toول

اللامسمّى - صامويل بيكيت

عشرون ألف شارعًا أسفل السماء - باتريك هاميلتون

«تمكن إغناطيوس من إسقاط كل ما على المكتب سريعًا من مقالات المجلة وألواح الطبخ بمسحة واحدة ذكية لكفّيه . وضع مجلدًا جديدًا ليكتب على غلافه السميك بقلم تلوين أحمر (مذكرات صبي كادح ، أو ، من أعالي الكسل) .»

كونفدرالية البلداء

«لم يكن بوب سريع التأثر بالبريق الباهت لحقيقة أن الأشخاص الذين كان يمر بهم في الشارع موجودون فعلًا . لقد راقب وجوههم ، حتى أنه حدق في أعينهم ، ولكنه لم يكن يملك أي مفهوم عنهم سوى أنهم كائنات صعبة التفسير تتحرك في هذا المكان الواسع للتسلية في روحه - لندن .»

جرس منتصف الليل ، عشرون ألف شارعًا أسفل السماء

«جرعة هائلة من الهواء كريه الرائحة ثم نذهب ، سوف نعود في ثانية . إلى الأمام! يقال هذا قريبًا . ولكن أين الأمام؟»

اللامسمّى

نصف دزينة من العناوين في قائمة الإصلاح وبدأ نمطاً ما بالظهور . أبدأ بكتاب ؛ وبعد فترة من الحيرة أو الملل ، يثبت إصراري فعاليته ، ليفسح الطريق بعد عدة أيام عصيبة لانتصار مستحق ومتعة هائلة ، تتحول بسرعة إلى إحساس بالإنجاز ، ولكن الكتاب رقم سبعة خالف هذا النمط . أحسست بالمتعة من أول صفحة تقريبًا .

«كونفدرالية البلداء» إحدى أعظم الروايات الأمريكية في الخمسين سنة الأخيرة . نشرت سنة ١٩٨٠ ، بعد عقد من انتحار كاتبها ، جون كينيدي توول ، أو كما كان يعرف بين أصدقائه وعائلته كين . «كل من قرأ هذه الرواية أحبها . لأول مرة ، يصبح الجميع على صواب ،» كتب غريل ماركوس في مجلة رولنغ ستون . وفازت بجائزة البوليتزر للرواية في السنة اللاحقة .

بطل «كونفدرالية البلداء» الشخصية البغيضة إغناطيوس جاي ريلي ، ناقم بدين ، يرتدي قبعة صيد خضراء ، ويبلغ من العمر ثلاثين سنة ، ومايزال يعيش مع والدته السكّيرة في نيو أورلينز . يزدري ثقافة البوب ؛ وكتابه المفضل لبوثيوس «عزاء الفلسفة» . إغناطيوس شخص كسول لم يسبق له أن عمل في حياته ؛ عندما يستمني يتذكر ذكريات طفولته مع ريكس ، «الكلب الضخم والمخلص الذي كان معه في دراسته للمرحلة الثانوية» . إنه مراوغ ، متعجرف ، ومهووس بذاته . يعاني من عقدة مريعة تتمثل في إيمانه بأفضليته على الجميع .

وبالمصادفة ، العديد من الأشخاص الذين أعرفهم من محبي هذه الرواية هم كتّاب أيضًا . إنها رواية مبنية بشكل رائع ، وتحمل أسلوبًا كتابيًا فريدًا من نوعه ؛ وهي مليئة أيضًا بالمرارة وكراهية العالم وكل ما فيه . وأكثر من هذا ، لقد قتل كاتبها نفسه وهو مديون لعدد من الناشرين ، وهذا يؤكد على الحقيقة الدائمة المتمثلة في أن جميع الناشرين إما خبثاء أو حمقى .

تجربة إغناطيوس في الرواية هي أن يحصل على عمل ، كما كتب على غلاف مذكراته . يذهب للعمل في بنطال المصنع . يدفع عربة نقانق ، يلتهم بعضها وهو يسير في طريقه . كين توول عمل في هذين الوظيفتين أيضًا في حياته . وعاش مع والدته في منزلها وآمن بأنه عبقري . إن كان إغناطيوس عبارة عن بورتريه شخصي لجون كينيدي توول ، فإنه بورتريه شرير ومتوحش . وإنه مثير للضحك أيضًا بشكل هائل . لم يسبق لي أن قرأت وصفًا دقيقًا كهذا لحياة الكاتب الداخلية . ما هي حقيقة حياة بعض الكتّاب أمثال آنتوني هوروفيتز ، أو نيغل سليتر؟ ليونيل شريفر؟ ريتشل كوسك؟ الإجابة على هذا السؤال هي : حقيقةً ، أغلب الكتّاب يشبهون إغناطيوس جاي ريلي ولكن بعضهم أكثر نجاحًا في معرفة الفرق . وأنا لست استثناءً .

بالتأكيد ، تقديري الواضح لكونفدرالية البلداء لا يجعلني كاتبًا جيدًا ، تمامًا كما أن اقتحامك لمبنى محترق لا يجعلك رجل إطفاء . ولكنني أستطيع الانتماء إلى قصة إغناطيوس ، برغم أنه هذه ليست هي الحالة دائمًا مع الكتب المماثلة لكونفدرالية البلداء . في بريطانيا ، أظن أننا نقرأ الكثير من الكتابات الأمريكية من هذا النوع ، أكثر من قراءتنا لأي بلد آخر ، حتى بريطانيا نفسها (ينطبق

الأمر على الأفلام، ولا ينطبق على الموسيقى)؛ سالينجر، كيرواك، ثومپسون، إلخ. عندما كنت صبيًا كان أبطالي غراهام غرين، جورج أورويل، فيليب لاركن، ولم يكن أي منهم يقترب من كونه مجنونًا كمغني روك آند رول، وكان جميعهم من الأشخاص اللطيفين.

كان كتابي المفضل في هذا الوقت «مبتدئون جدًا» لكولن ماكينيس. بالنسبة لفتى من الريف، كان تجسيد هذا الكتاب لمدينة لندن إشكاليًا ومثيرًا للحماس. جعلني أشعر أن حياتي ستكون عبارة عن مغامرة. لم أقرأ هذا الكتاب منذ سنوات، احتجت العودة لقراءته مرة أخرى.[(١)]

انتقلت إلى لندن من بريتون سنة ١٩٩١ لأكون مع فتاة أحببتها، خضعت لعملية قلب. نجحت العملية ثم تركتني لأجل ممرض التقته في المستشفى. كنت محبطًا في ذلك الحين. ذكرتني هذه التجربة التعيسة بقصة غراهام غرين التي تحكي عن الصبي الذي مات والده بعد أن سقط فوقه خنزير، والذي قضى بقية حياته محاولًا إخبار الناس هذه القصة المحزنة دون أن يجعلهم يضحكون. كانت هذه القصة عزائي الوحيد حينها.

في رائعة ستيفن سوندهايم «سويني تود»، يغني البطل الشاب آنتوني يغني فرحًا بوصوله إلى المدينة «لا يوجد مكان يشبه لندن!» تجلجل هذه الكلمات من لسان آنتوني كقرع الأجراس. هكذا تخيّلت شعوري عندما أصل إلى لندن. ولكنني ترنحت على عتبة

(١) انظر للملحقات ١، والملحقات ٣ للاستزادة.

منزلي الجديد مثل ديمون باربر بذاته ، بأعين حمراء سفّاحة ، وبداخل رأسي صوت يردد :

«هنالك حفرة في العالم تشبه هوة سوداء ضخمة
وقمل العالم يسكنها ،
ومبادئها لا تساوي ما يبصقه خنزير ،
واسمها لندن .»

أظنك تمكنت من فهم الفكرة . وللأسف لم أكن أشبه جوني ديپ في الفيلم . وخلال تلك الفترة ، كنت ملتحيًا وجعلتني هذه اللحية أشبه الممثل ستيف بوشيمي في فيلم Reservoir Dogs . ولمدة سنة كاملة كان من الصعب علي أن أسير في الشارع أو أذهب إلى بار دون أن يلتفت إلي المارة ليسألون : «عذرًا ، هل أنت . . .؟» حمدًا لله أن الكاميرات في الهواتف لم تكن موجودة في ذلك الوقت . وأن[1] الهواتف أيضًا لم تكن موجودة .

وبعد بداية غير مؤكدة ، أيًا يكن ، بدأت بحب الحياة في

(١) في إحدى الليالي ، بينما كنت عائدًا من جنازة ظهيرة ذلك اليوم كنت متعبًا لدرجة أنني لم أغيّر البدلة التي كنت أرتديها ، وذهبت للعمل في المتجر وأنا أرتديها . أوقفني أحد الزبائن وقال لي هل أنت السيد . .؟ هل سمعت بأنك تشبهه من قبل؟ قلت له : نعم . كيف يمكن لي أن أخدمك؟ رد علي : هل يمكن لي أن أدعو أصدقائي الآن كي يلقوا نظرة عليك؟ قلت له : لقد مررت بيوم طويل وكنت في جنازة ، لا أظنني في مزاج يسمح بهذا . قال لي : أوه حقًا؟ سكتَ لبرهة ، ثم قال : هل يمكنني أن أحضرهم غدًا ليلقوا نظرة عليك؟ في تلك الليلة ، قمت بحلاقة ذقني .

لندن . كنت عازبًا ولم أعرف أي أحد خارج دائرة عملي . في أيام عطلتي ، أستطيع الخروج من منزلي دون أن ألتقي أي أحد أعرفه طوال اليوم ، كان هذا رائعًا . كنت أذهب إلى كامدين وإلى سوهو . وانضممت لطوابير الصباح الباكر في ساوث بانك لشراء تذاكر المسرح . كنت أتمشى حول تيت في پيمليكو ومتحف سير جون سون في هولبورن . ذهبت إلى أمسيات في تشيرنغ كروس رود ، ذهبت إلى ساحة ليستر في صباحات الأحد لحضور عروض الأفلام . شربت البيرة في حفلات توقيع الكتب في بلوومزبيري وفي بارات فيتزروڤيا ، إيرلز كورت ، دالستون ، هامپستيد ، وكلافام . أغمي علي في تيوب واستيقظت في هيثرو أو آرنوس غروف دون مال يكفي للتاكسي . وأحيانًا ، كنت محظوظًا مع فتيات كروتش إيند ، كينتش تاون أو كينغ رود ، اللواتي ربما شاهدن فيلم Reservoir Dogs . ولم يكن الرمز البريدي مهمًا ؛ لقد كان كل شيء رائعًا .

لفترة من الزمن ، كانت لندن تنتمي لي . ورغم هذا ، لم أشعر أنني أنتمي إلى لندن أبدًا . وبعد خمس عشرة سنة ، عندما قررنا أخيرًا الانتقال إلى الساحل ، أدركت أنني كنت أستعد لمغادرة لندن منذ أول يوم دخلتها ، وأن إقامتي في العاصمة كانت مجرد نقطة طويلة في الرادار . شعرت أنني أكثر استرخاءً عندما أصبحت زائرًا للندن ، متفرجًا ، وتمكنت من استعادة ذاتي الريفية . ولكنني اشتقت إلى الأسواق ، المتاحف ، البارات الجيدة . وبعد ذلك أصبحت أصادف أشخاصًا أعرفهم في الساحل . اشتقت إلى الاختفاء في الجموع في شوارع لندن . لم يكن انفصالي عن لندن انفصالًا خاليًا من الألم .

أيًا يكن ، كانت رحلتي اليومية من منزلي خارج لندن إلى عملي موضوعًا يستحق إعادة النظر . لمدة سنة ، كان هذا الوقت عبارة عن وقت ميت ، ثلاث ساعات للعودة إلى لندن للعمل وكسب المال لدفعه لشركة القطارات حتى أتمكن من الاستمرار بالذهاب إلى لندن وكسب المال ، إلخ ، إلخ . ولكن بفضل «قائمة الإصلاح» ، تحولت هذه الرحلة إلى أهم عنصر في اليوم . وتمكنت أخيرًا من إدراك أن ما أشتريه بتذكرة القطار كل أسبوع هو عبارة عن وقت ثمين يتراوح بين اثني عشرة ساعة وخمس عشرة ساعة أفعل فيه ما أريد ، لا يحدّني سوى قانون القطارات في الجنوب الشرقي . وما أردت فعله ، هو القراءة . أصبحت أتطلّع لرحلاتي إلى لندن ، قبل الساعة ٤٤ :٦ صباحًا ، لأنني علمت أنني سأنجز مهمة قبل ذهابي للعمل . وعندما أصل إلى مكتبي أكون قد أنهيت قراءة الخمسين صفحة ، كنت أشعر بطاقة كبيرة ، بحماس كي أتعامل مع أكوام الأوراق التي تنتظرني في العمل .

كنت أقرأ «اللامسمّى» لصامويل بيكيت . وكما قلت سابقًا ، كان بيكيت استثناءً في القائمة . كنت قد درست مسرحياته «في انتظار غودو» ، «أيام سعيدة» ، وغيرها ، ولذلك كنت أعرف ماذا يمكن أن أتوقع منه : ثرثرة وجودية ، خطبة عن الخراب ، بعض النكات في قاعات الموسيقى . لم تكن «اللامسمّى» عبارة عن رواية طويلة ولكني افترضت أنها ستكون رواية مكثفة وتحتاج لقراءة عميقة ، لذلك قلّصت عدد الصفحات اليومي إلى عشر صفحات - كاملة التركيز والانعكاس . وهنا بدأت كل مشاكلي .

لا تحاول قراءة «اللامسمّى» ؛ في أي مركبة من مركبات المواصلات العامة ، أو الحدائق العامة ، أو في أي مكان يتواجد فيه

البشر ويتواجد فيه إزعاجهم ، صوت منبعث من سماعات أحدهم في القطار ، طفل يبكي ، مشجعو فريق منتصر ، رنين هاتف ، بائع عربة متجول يصرخ : شاي! قهوة! أو شخير شخص يجلس بجانبك في القطار : إنه تنافر عجيب للنغمات في الكونفدرالية المعاصرة للبلداء . («أوه ، يا إلهي!» يرفع إغناطيوس صوته .»لا! أخبرتك من قبل . أنا لست رفيقًا مسافرًا .»)

وأكثر من هذا ، عدد من المسافرين في القطار كانوا يحملون كتبًا معهم . وهؤلاء كانوا يملكون من الحكمة ما يكفي ليختاروا كتبًا تحتوي على حبكة : قصص الرعب ، الجريمة .[1] لأن الحبكة تبقي العالم بعيدًا عنك ، وفي ظل تلك الظروف لم صراخك في وجه أحدهم : -»هل بإمكانك إخفاض صوتك قليلًا؟!- خيارًا ، بل ضرورة للنجاة . إن ذهبت لإحدى مسرحيات بيكيت فإنك سوف تتمكن من التركيز ، لأنكم معًا في المكان ذاته . ولكن الحالة مختلفة عندما تكون في القطار ، برغم وجودك الفيزيائي مع الجموع ، إلا أنك تحاول أن تتظاهر بأنك وحيد . إنه ليس حشدًا

(١) هذه حقيقة . في القطار الذي يأخذني للعمل كل يوم العديد من الأشخاص الذين يقرؤون الجرائد ، يعملون على أوراقهم ، يشاهدون أفلامًا في أجهزتهم المحمولة أو يلعبون بعض الألعاب الإلكترونية . في سنة كاملة لم يسبق لي أن رأيت أحدًا يقرأ كتابًا كلاسيكيًا في هذا القطار . وعلى العكس تمامًا ، في لندن ، دائمًا ما أشاهد أشخاصًا في الباصات يقرؤون لفلوبير ، آينشتاين ، وحتى هتلر . هل يجعلك قراءة كتاب كفاحي لهتلر أفضل من الشخص الذي يلعب لعبة آنقري بيردز؟ بالتأكيد لا! ولكنه يجعلك أكثر إثارة للاهتمام . لا تقتل مَن ينقل لك الرسالة .

يمكنك الاختفاء فيه بسهولة ، بل مجموعة من الأفراد يعيشون حالة من الإزعاج المستمر - تش ، هونك ، بينق-بونق ، وااااه .

الجحيم هو الآخرون ، هكذا تحدث سارتر . لا تفهمني بصورة خاطئة ، ولكنني أظنه يقصدك .

كي أتمكن من قراءة بيكيت ، كان من الواضح أن البيئة المناسبة هي الصمت . ولكن الصمت لم يكن خيارًا متاحًا بالنسبة لي . بعد عدد من الرحلات في القطار ، حاولت أن أجد الموسيقى في جهاز آيبود التي بإمكانها أن تعزلني عن الجموع ، بالإضافة إلى تناغمها مع قراءة شيء مجنون ككتاب «اللامسمّى» . كانت الأغاني خارج القائمة ؛ حفلات الأوركسترا ، وجدت أنها إما أن تكون هادئة أو منمقة ؛ موسيقى الأفلام وجدت أنها غريبة أو دراماتيكية بشكل صارخ ؛ وكانت موسيقى إينو : Ambient 1: Music for Airports ، لطيفة ، ولكنها لم تقدم سوى نغمة تقودك للسرير .

أريدك أن تترك القراءة للحظة ، وتذهب لتجلب نسختك من ألبوم لو ريد Metal Machine Music . إن لم تكن تملك الألبوم ، أرجو منك أن تجده على Spotify أو Youtube . وعندما تكون مستعدًا ، ارفع درجة الصوت ، التقط الكتاب ، وابدأ بالقراءة .

لا ، لا توقف الموسيقى . أنا هنا معك . في الأذن اليسرى أو الجهة اليسرى من مكبرات الصوت ، بإمكاننا أن نسمع صوت ألف انفجار ، قصفًا مرعبًا للقيتار ، ضجيج تمزّق ثقافة البوب بعد الحرب على يد Messerschmitts وTelecasters . وفي الأذن اليمنى بإمكاننا سماع الصوت ذاته ، ولكن باختلاف بسيط ، سنشعر أن أحدهم يطعن قوقعة الأذن بأداة طبيب أسنان ، كإبرة أو سيف

مبارزة . ربما ستميّز ما سمعه the Rolling Stone سنة ١٩٧٥ ، «الأنين الأنبوبي لثلاجة كونية» . في نهاية الأمر ، هذا أسوأ رابع ألبوم على مر التاريخ وفق مجلة Q ، «ألبوم كامل من الضجيج المتذبذب الذي لا يمكن الاستماع له» . بينما وصفه الصحفي ليستر بانقز بالتالي : «كالموسيقى الكلاسيكية لا تضيف شيئًا لنوعها ويمكن أن تنضب . مثيرة للاهتمام كموسيقى الروك آند رول الإلكترونية . كرسالة وخطاب يوجه للعالم ، هي عظيمة ، تشبه عبارة FUCK YOU عملاقة . إنها موسيقى صادقة - مريضة ، منحرفة ، غبية ، حاقدة ، جاحدة ، سيكوباتية ، ولكنها صادقة أيًا يكن .»

حسنًا ، تستطيع إغلاق الموسيقى الآن . أيًا كان رأيك في هذه الموسيقى ، فإنني أجدها فعّالة لغرضي البسيط الذي أريد استخدامها فيه ، لقد تمكنت من طمس كل ما يحيط بي - ككلمة FUCK YOU عملاقة لكل من في القطار .

لمدة أسبوعين ، التزمت بالاستيقاظ صباحًا للمحافظة على حمية يومية تتكون من موسيقى Metal Machine Music لأذني ، وكتاب بيكيت «اللامسمّى» لعيني . متجاهلًا كل النتائج السلبية المحتملة لتعريض حواسي لمنشطين خطرين كهذه الموسيقى وهذا الكتاب ، لقد كان هذا المركب قويًا جدًا . ولكنه تمكن من تغذية ذاتي التي تشبه إغناطيوس في حدتها وسخطها ، ودمجه في مجرى بيكيت وضجيج رييد . كنت أقرأ بشراسة ، منحنيًا تجاه الكتاب ، بأسنان مشدودة ، حتى أصل إلى نهاية السطر . أيًا يكن ، أظن أن هذه الوصفة حققت نجاحًا جزئيًا فقط . بعد خمسة عشر يومًا أنهيت الرواية ، ولكن بطريقة ممزقة ، تشبه العودة من الحرب . في

النهاية لم أكن أملك إحساسًا حقيقيًا بما كنت أقرؤه لمدة أسبوعين .

نعم لقد أنهيت «اللامسمّى» ، ولكنني لم أتشرّبها . لقد علمت أنني فشلت تمامًا في الاتصال بها . لطالما وجدت أن أعمال بيكيت مؤثرة جدًا . إما أن الكتاب كان أعلى من قدرتي على الفهم أو أنه لا يوجد مكان في حياتي يتسع لكتاب مثل هذا . لو لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب في القطار ، أين يمكنني قراءته؟ وبعد كل هذا الجهد المضني ، ما الفرق بين ادّعاء قراءة «اللامسمّى» ، وقراءته بهذه الطريقة عديمة الفائدة؟ لقد كنت في وضع أفضل قبل قراءته ، وفكرتي المسبقة عنه ربما كانت أفضل لي من الوضع الذي أصبحت فيه الآن . وماذا عن بيكيت الذي درسته في المدرسة والجامعة؟ لقد كنت واعيًا لحقيقة أنني رأيت كتابه «أيام سعيدة» قبل عشرين سنة ، وأتذكر معه صورة ذهنية لبطاقة بريدية لبيلي وايت لاو في وعاء من الرمل ، ولكنني نسيت كل شيء متعلق بهذا الكتاب . كان انطباعي عنه متشكلًا بتأثير الآراء الأكاديمية أكثر من كونه رأيًا تشكل بسبب انطباع تلقائي ، وبالإضافة إلى كل هذا ، كنت أبلغ من العمر تسع عشرة سنة ؛ وما كنت سأعتقده بشأن هذا الكتاب ، سيكون غير ناضج على أفضل تقدير . أو على الأقل ، هذا ما أخبرت به نفسي وأنا أودّع رواية «اللامسمّى» وأضعها على الرف مرة أخرى .

هل سأستمر؟ سوف أستمر .

عندما كان باتريك هاميلتون فتى غير ناضج ، يهيم في شوارع لندن ، وقع بجنون في حب عاهرة تدعى ليلي كونولي . هذا الإعجاب الشديد دفعه إلى حافة الإفلاس ، وضعه في الشارع ليصبح ضحية الكحول ، وألهمه لكتابة روايته الرابعة ، «جرس

منتصف الليل» ، والتي نشرت سنة ١٩٢٩ عندما كان في الرابعة والعشرين من عمره . كان بوب نادلًا محبوبًا في البار في رواية «جرس منتصف الليل» . كان بوب يسكن في غرفة فوق البار ، بجوار إيلا ، الفتاة التي تعمل معه في البار ، والتي تعشقه في سرها ، ولكن بوب يصبح مهووسًا بعاهرة تدعى جيني ، وشيئًا فشيئًا ، ودون ممارسة للجنس حتى ، تمكنت جيني من الاستيلاء على مدخراته والتي كانت عبارة عن ثمانين باوند لتتركه مفلسًا وجريحًا . وعن هذا الثلاثي التعيس كتب هاميلتون رواياته : عشرون ألف شارعًا أسفل السماء : جرس منتصف الليل ، ثم حصار السعادة (١٩٣٢) ، حيث نعرف كيف وقعت جيني في ممارسة البغاء ، وأخيرًا رواية سهول الاسمنت (١٩٣٤) ، حيث يتودد السيد المرعب إرنست إكلز إلى إيلا .

ثم تبيّن أنني كنت مصيبًا في ظني القديم ، أنني سوف أستمتع بكتابة باتريك هاميلتون ، وبالطبع فإنني وضعت هذا الافتراض قبل أن أقرأ كلمة له . ولكن بعد قراءة عدة صفحات تأكدت من هذا الشعور . شعرت بالراحة . المشهد الذي يصف الفترة ما بين الحربين Lyons Corner Houses وClapham omnibuses ، وLondon lowlife ، الأحداث والكرب والعواطف ، الخطايا الروحية والمادية الوشيكة ، الفتيات بشعورهن المتمايلة ، كل هذا أعاد إلى ذاكرتي أبطال مراهقتي الأدبيين : رواية جورج أورويل «دع الدريقة تطير» ، ورواية غريين «إنها ساحة معركة» . كان هاميلتون ماركسيًا جديدًا ، ولكن بطريقة أفضل - أو أنه كان أكثر برجوازية - أكثر حرفية من روبرت تريسل . يظهر هاميلتون كيف أن المال أو الفقر بإمكانه أن يعزز «القرارات الأخلاقية» التي على

شخوص روايته أن يتخذوها ، دون أن يقترح حلولًا سياسية مباشرة . الثمانون باوند التي يملكها بوب هي شبكة أمان ووتد في الوقت ذاته ؛ أما جيني الضعيفة ؛ لحظة سقوطها ، لم تعد تستطيع مقاومة أخذ «المال السهل» ؛ وإيلا ترى في زواجها من السيد إكلز طريقة لضمان مستقبلها ومستقبل والدتها المالي . كل هذا كان مصممًا بطريقة جميلة .

«نحن جميعًا متكلّفون بشكل فظيع ، بارعون في تضخيم أهمية ما نعتقد بأنه ثمين ،» كتب تشارلز آروبي . بالنسبة للروائي دان رودس ، «جرس منتصف الليل» أشبه بدراسة لحياة الإسراف في الشراب («[الكتاب] مشبع بالأشياء الرائعة الشريرة») والمسرفون في الشراب ؛ «امتلكت عائلتي حانة لسنوات طويلة ، ومنذ عمر مبكر واجهت رعب المترددين على الحانة . هنالك القليل من الأشياء الأكثر تحطيمًا للروح من خوضك لمحادثة في بداية المساء مع مرتاد لحانة يعتقد أنه مضحك أو ذكي ، أو أسوأ من كل هذا ، «صاحب شخصية» .» حصلت على نسختي من «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» من أحد معارفي الذي كان يقرأ الرواية كجزء من دراسة متعلقة بالجنون القهري للإدمان ، وكان هذا الموضوع من عمق تخصصه . أما بالنسبة لي ، فإنني نظرت إلى هذه الروايات الثلاث ، وأحببت كل رواية منها أكثر من سابقتها ، ورأيت ذواتي البعيدة الأصغر سنًا - الصبي الذي كان يقدس كتّاب العصور السابقة ؛ المراهق الحذر الثائر ؛ المجنون ، المهجور شبيه ستيف بوسَمي ، والعامل المعارض .

ما الفرق بين ادعائي قراءة پاتريك هاميلتون وقراءته أخيرًا؟ الإجابة هي المتعة - متعة الإدراك ، ومتعة جاذبية قصته التي لا

يمكن مقاومتها . وهكذا أستطيع قراءة باتريك هاميلتون وأنا محاصر في قطار ، دون أن أفقد تركيزي بسبب أي إزعاج يحدثه الركّاب من حولي .

وأكثر ما أدهشني هو تشابه صورة لندن في مخيلتي وفي هذه الكتب . ولا أقصد فقط البارات في سوهو وفيتزروفيا ، ولكن شافتسبري آڤينو ، هامرسميث برودواي ، حديقة بيدفورد پارك ، كل هذه الأماكن التي عشت فيها أو عملت فيها خلال خمسة عشر عامًا قضيتها في العاصمة . سكرت هنا ، تمكنت من العثور على عمل ، انكسر قلبي ، وقعت في الحب مرة أخرى . وبرغم أنني وزوجتي تينا تركنا لندن معًا ، إلا أن جزءاً مني بقي هنا . أنهيت «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» . . . ، وشعرت بأن أغلب هذه الرواية مألوف بالنسبة لي ، وفكرت : ربما حان الوقت لنسيان كل هذا .

في صباح يوم أحد قبل الكريسمس ، ركبت قطارًا متجهًا إلى المدينة ، ثم التحقت بباص إلى بريمروس هِل . وفي صعودنا إلى القمة ، تمكنت من رؤية برج مكتب البريد ، سنودون أڤياري ورجل متشرد يهز قبضته في وجه شخص أطول منه ولا يمكن رؤيته . كان الوقت مبكرًا . خططت للمشي عبر المدينة ، أسفل طريق إيستون ، لألقي التحية على جرس منتصف الليل أو على عدد من الحانات هناك ، عبر ويست إند ، وبمحاذاة النهر حتى هامرسميث أو أبعد . كان الأمر يتطلب يومًا كاملًا من الوداع .

وبرفقتي ، كنت أحمل كتابًا صوتيًا لصامويل بيكيت في جهاز iPod ايبود «اللامسمّى» ، بصوت ممثل يدعى سين باريت . كان طول قراءة الكتاب أقل من ست ساعات ، طويلًا بما يكفي ليأخذني من بريمروس هِل حتى هامرسميث .

وبينما كنت قرب حديقة الحيوان وراوندهاوس، بمحاذاة كامدن هاي ستريت، بعد أماكن متاجر التسجيلات القديمة، بعد السوق وسينما أديون على پاركواي، كانت كلمات بيكيت تهمس في أذني. لقد جنّحت حولي، لتلفت انتباهي، لتتراجع، لتعود، لتلمح بنفسها وتركب قطار أفكاري. لقد جئت هنا كثيرًا في السابق. لقد حضرنا حفلات Blur في قاعة the Electric Ballroom. متاجر الكتب، أشرطة بوكوفسكي وبوروس، جميعها اختفت الآن. بار The Oxford Arms، هناك رأيت غلين ريتشاردسون يؤدي مسرحيته الغنائية تود كارتي. أما أنها كانت أوبرا؟ ربما كانت هذه الدجاجة والديك. لقد مضى وقت طويل على هذه الذكريات. «قد يشتكي البعض من عدم قدرتهم على فهم كتاب بيكيت «اللامسمّى» ،» كتب ناشر رواية بيكيت جون كالدر، «ولكن يجب عليهم أن يسألوا أنفسهم أولًا إلى أي درجة يفهمون حياتهم، وماذا يرون عندما ينظرون خارج أنفسهم باتجاه العالم؛ وكيف يفسرون ما يرونه، قليل من هذا كله يمكن فهمه على أي حال؛ وبالذات كيف يفكرون في أنفسهم، وما يجعلهم يفكرون، فيمَ يفكرون ولماذا؛ وكيف يفصلون بين ما يعرفونه من الأحداث اليومية، وبين ما يعرفونه من الأحلام.»

منذ كامدن وحتى الآن، بعد تركي لكتاب بيكيت يلف كالخيط، تمكنت من اجتياز ثلاثة أماكن تدعى لندن: المدينة التي عشت فيها لوقت طويل؛ رواية پاتريك هاميلتون «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» وطنينها مايزال في عقلي؛ وهذه المدينة غير الحقيقية، التي شكّلتها ذكرياتي وأحلام يقظتي ورواية بيكيت «اللامسمّى». وبعد عدة كيلومترات، كان علي أن أستريح، ليس

بسبب التعب ولكن لأنني كنت مغمورًا بهذه التجربة الهائلة . في بار لم أستطع تمييزه ، في مكان ما في ليمبو ، جلست وطلبت كأسًا من البيرة واستمعت لبيكيت .

«أتمنى أن تنتهي هذه المقدمة قريبًا وأن يبدأ البيان سريعًا . لسوء الحظ أنا خائف ، كالعادة ، من المضي قدمًا . لأن المضي يعني الحركة من هذه النقطة ، ويعني البحث عني ، وفقداني ، الاختفاء والظهور من جديد ، غريبٌ في البداية ، ثم شيئًا فشيئًا يتحول الغريب إلى ما كان عليه دائمًا ، في مكان آخر ، حيث بإمكاني القول أنني كنت هناك دائمًا ، دون أن أتذكر أي شيء ، غير قادر على الرؤية ، الحركة ، التفكير ، الكلام ، ولكن شيئًا فشيئًا ، بغض النظر عن كل هذه الإعاقات ، سأتمكن من التعرف على شيء بسيط ، على القدر الكافي الذي سيأخذني إلى مكاني القديم مثل كل مرة ، المكان الذي يبدو معدًا لي ولكنه لا يريدني ، والذي أبدو أنني أريده ولكنني لا أريده ، اتخذ قرارك ، بإمكان هذا القرار أن يلفظني أو أن يبتلعني ، لن أعلم أبدًا ، والذي قد يكون بالكاد الجزء الداخلي من جمجمتي ، حيث تمشيت ذات مرة ، والآن أصبحت مثبتًا ، ضائعًا في الصغر ، أو مرغمًا للوقوف باتجاه الجدار ، برأسي ، بيديّ ، بقدميّ ، بظهري ، أرتّل قصصي القديمة ، قصتي القديمة ، كما لو أنها المرة الأولى . لا يوجد شيء يدعو للخوف . ولكنني مازلت خائفًا ، مما ستفعله بي كلماتي ، بملاذي . ألا يوجد أي شيء جديد يمكن أن أجربه؟»

الكتاب العاشر

موبي-ديك ؛ أو ، الحوت - هرمان ملفل
ومقدمة الكتاب صفر ، شفرة دافنشي - دان براون

«أخيرًا : كان معلنًا منذ البداية ، أن هذا النظام لن يكون هنا ، ومرة واحدة ، تامًا . لا يمكنك إلا أن ترى بوضوح أنني التزمت بوعدي . ولكني الآن أترك تصنيفي للحيتان دون إكماله ، كما تركت كاتدرائية كولونيا ، والرافعة ماتزال تقف على قمة البرج غير المكتمل . قد تكون المباني الصغيرة مكتملة بواسطة مهندسيها ؛ ولكن المباني العظيمة ، الحقيقية ، دائمًا ما تترك نهايتها للأجيال القادمة . فليحمني الرب من إنهاء أي شيء . هذا الكتاب بأكمله مجرد مسودة - لا بل إنه مسودة لمسودة . أوه ، الوقت ، القوة ، المال ، والصبر!»

موبي-ديك ، الفصل ٣٢ ، تصنيف الحيتان

«كشخص قضى حياته وهو يحاول اكتشاف الترابط الخفي للشعارات المتباينة والآيدولوجيات ، نظر لانغدون إلى العالم على أنه شبكة من التواريخ والأحداث المتداخلة . (قد تكون العلاقات خفية) ، هكذا كان يتحدث إلى صفه في محاضراته في جامعة هارفرد ، (ولكنها دائمًا موجودة ، مدفونة أسفل السطح) .»
شفرة دافنشي ، الفصل ٣

كان اليوم جمعة وكنت أعمل من منزلي . على يساري كانت كومة من الأوراق التي لم أقرأها . وعلى يميني نسخة نصف مقروءة من موبي-ديك . وعلى شاشة التلفاز أمامي كانت حلقة من Loose Women . أؤمن بأنه من المهم دائمًا أخذ استراحة للغداء .

كالعادة في برنامج Loose Women - والذي كنت قد شاهدته من قبل- كانت كولين نولان هي التي تتحدث بما يفكر به الجميع . تطفو في مرساها المعتاد بين كارول مكغيفن وبين Oxo mum ، أميرة البوب السابقة في الثمانينات والكاتبة صاحبة الكتاب الشهير Upfront & Personal: The Autobiography التي كانت تأخذ دورها في نقاش تحت عنوان «ما الذي يجعل الكتاب جيدًا؟» كولين ، والتي حسب نقاشات سابقة لا ترى عيبًا في زيادة حجم الصدر بشكل معقول ، ولا تؤمن بأنه من حق المثليين أن يتبنّوا كغيرهم ، والتي تفضل أن يمارس ابنها الجنس مع عاهرة في أمستردام على أن يمارسه خلف نادي ليلي في إيبيزا دون حرّاس أمن ، والتي تحب الشوكولاتة ، كانت تتحدث نيابة عن الكثير من الحاضرين في تلك الليلة .

«لا أستطيع تحمّل كل هذه العجرفة حين الحديث حول الكتب! أووه ، ذلك الكتاب كان تافهًا ، أووه لقد كان منحطًا! أووه ، لا-دي-داه! أعني ، من المفترض أن يكون جيدًا إن كنا نقرؤه ،

أليس كذلك؟ كنت أظن أنه من المفترض أن يكون جيدًا!»[١]

كان مسرح البرنامج يضج بالصفير والهتاف، ليطأ بأقدامه على وجه شكسبير للأبد.

دون أن أقول بأن كولين كانت على خطأ. هنالك الكثير من العجرفة يتحلى بها أغلب من يتحدث عن الكتب. في العشر سنوات الأخيرة، أغلب هذه العجرفة كانت متجهة نحو رجل واحد. أكان هنالك من قبل كاتب مشهور وغير مشهور في الوقت ذاته مثل دان براون؟ مقابل كل مستهلك لرواياته المليئة بالمؤامرات المثيرة، هنالك كاثوليكي مستاء، أكاديمي ساخط أو قارئ غاضب. ومقابل كل كولين نولان، هنالك ميتشيكو كاكوتاني. وصف سلمان رشدي رواية شفرة دافنشي بأنها رواية سيئة إلى درجة تعطي الروايات السيئة اسمًا سيئًا. ولم يمنع أي من هؤلاء دان براون من أن يصبح أحد أكثر الكتّاب انتشارًا في العصور الحديثة. فقط إي. إل. جيمس، كاتبة «خمسون ظلًا من غراي» تقترب من سمعة دان براون.

بشكل عام، الجميع قد قرأ «شفرة دافنشي». على الأغلب أنك قد قرأتها. حتى لو لم تقرأها، الإحصاءات تقول بأنك فعلت. المرة الأولى التي تعرفت فيها على الظاهرة دان براون كانت تقليدية جدًا. التقطت كتابًا له بعد سنة من ولادة ألكس. قلة النوم ومشاهدة قناة الأطفال CBeebies، شوشت عقلي. كل ما أردته هو أن أقرأ كتابًا خفيف الوزن، غير متطلب. تمكنت شفرة دافنشي من

(١) كان هذا جوهر المسألة. على كل حال، لست ذلك الشخص الذي يشاهد هذا البرنامج ويسجل كل كلمة تُذكر فيه.

تحقيق هذين الشرطين . أيًا يكن ، بينما كنت أقلب الصفحات اكتشفت نوع الهراء الذي سيحدث لروبرت لانغدون وصوفي نيڤو خلال القصة ، لم أستطع إغفال حقيقة أن الكتاب كتب بطريقة سيئة جدًا . هذه الرواية كانت سيئة بطريقة مشتتة . كانت عيني تتوقف بشكل مستمر على حوار تفسيري ، أو إحصاءات علمية زائفة ، أو جملة قبيحة بشكل مفاجئ . «شفرة دافنشي كانت أول دليل يظهر أن جسم الإنسان مكون من وحدات بناء والتي تحمل معدلًا نسبيًا يساوي Φ ،» يهتف روبرت لانغدون بشكل بائس . وكان الفيلم أكثر سوءًا .

أنا لا أقول بأن دان براون لا يستطيع الكتابة . ولكنني خلال قراءتي لشفرة دافنشي كنت حتمًا أفكر في هذا .

برغم أن شفرة دافنشي قامت بفعل كومة من الأشياء بطريقة سيئة ، إلا أنها وبغباء تمكنت من إتقان شيء واحد - الحبكة . لقد تخلص براون من كل آثار الأسلوب الكتابي والمصداقية في روايته لأنه أدرك أخيرًا ، في لمحة من لمحات ليوناردو العلمية ، أن الأسلوب والمصداقية كانا ما يمنعان قصته البالونية المبنية على النظريات من التحليق . وهكذا قام بالتخلص من آثار الأسلوب والمصداقية ، وتخلص معهما من الجمال ، الحقيقة ، وخمسمئة سنة من الكتابة الأدبية .

فقط كي أكون واضحًا ، دان براون يعرف كيف يحكي قصته - ولكن في سرد القصة ، هنالك ما هو أكثر من مجرد إخبارها . ستيفن كينغ يفهم ذلك جيدًا ، ولي تشايلد أيضًا ، آودري نيفينغر . أنا مُصِر على هذه النقطة لأن الرافضين لدان براون إما أن يكونوا إقصائيين أو غيورين من نجاحه ككاتب .

الإعجاب بالكتب السيئة لا يجعلك بالضرورة شخصًا سيئًا ، والعكس صحيح . هل أشعر بالغيرة من دان براون؟ لا . أنا لا أتطلع إلى أسلوب دان براون في الكتابة ، ولا أحلم في أن أكون شخصية عامة مشهورة يهزأ العالم بها . وإليكم هذه الحقيقة ، برغم أنه أكثر شهرة ونجاحًا مني بكثير ، إلا أنه قبل نشره لرواية شفرة دافنشي ، كانت أرقام مبيعاتنا متساوية ، ثم انطلق ليتفوق علي بنسبة تبلغ ١٢ ألف نسخة مقابل كل نسخة أبيعها . أيًا يكن ، أتمنى له المزيد من النجاح - قبل كل شيء ، جميعنا كتّاب وعلينا أن نقف بجانب بعضنا . (هل تسمعني يا سلمان رشدي؟) أما بالنسبة للمال ، بالطبع أود أن أحصل ولو على جزء بسيط من ثروة دان براون ، ولكن هذا لا يعني أنني أريد فعلها على طريقته . أتمنى أن أحصل على ثروة دونالد ترمب دون أن ألزم نفسي بالضرورة بتسريحة شعره .

ثم إنه لا يوجد أي عيب في مبدأ التهرب من الواقع ، أنا أعشق التهرب . وكما قال برايان إنو ذات مرة ، «جميعنا نحب فكرة أخذ عطلة والسفر بعيدًا ، ولا أحد يسمي ذلك تهربًا .» لطالما اشتقت إلى الهرب من روتيني الممل ، ودائمًا ما يعرض الكتاب العظيم -من أي نوع- فرصة زهيدة الثمن للهروب من الواقع . ولكن في الوقت نفسه هنالك العديد من وجهات السفر ، وطرق قضاء العطلات . لا يجب علينا دائمًا أن ينتهي بنا الأمر خلف نادٍ ليلي في إيبيزا دون حرّاس أمن .

وأخيرًا ، ذكريات متفرقة من شفرة دافنشي زارتني خلال قراءتي لموبي-ديك . هذا الكتاب الذي يعتبره الكثيرون «الرواية الأمريكية العظيمة» . موبي-ديك رواية طويلة ، منهكة ، ملتفة .

لحظة انتهيت منها ، وأمسكت بها بين يدي ، بدأت بتقدير تعقيدها وتصميمها ، وعلمت وقتها أن موبي-ديك رواية خارقة للطبيعة ، وعمل فني فريد . لقد زحفت داخل عقلي اللاواعي ؛ حلمت بها عدة ليال بعد أن أنهيتها . بينما حين انتهيت من شفرة دافنشي ، والتي استغرقني الأمر ١٢ ساعة لإنهائها ، ألقيت بها جانبًا دون تفكير : واو - يجب علي أن أقرأ كتابًا جيدًا .

موبي-ديك كان كتابًا عبقريًا وبعض عبقريته بدا وكأنها مظلمة وخارقة للطبيعة . لقد ذكرني هذا الكتاب بكتاب كوپولا «القيامة الآن» أو بكتاب سلاي ستون «هنالك شغب» ، جميع هذه الكتب كانت منتجات للعزلة والاضطراب العقلي ، وتتميز هذه الكتب بأنها خرجت دون تحكم من أصحابها . ربما يكون هذا هو تعريف العبقرية ، قوة لا يمكن لها إلا أن تطرق بنفسها ، دون التفكير في نتائجها على الفنان ؛ وفي كل الحالات الثلاث ، عانى هؤلاء الرجال في سبيل تحديد مكان هذا الإلهام الفاجر في أعمالهم المتأخرة . لقد علم هرمان ملفل أنه أنجب كتابًا خبيثًا . في رسالة إلى جارته كتب إليها قائلًا : لا تشتري هذا الكتاب - لا تقرأيه . رياح قطبية تنفخ فيه ، وطيور مفترسة تحوم حوله .» موبي-ديك سفينة صوفية خلقت بالخطأ ، عميقة بشكل لا يدرك ، عيوبها ونقصانها هو ما يشكل ملامحها الكاملة الطاهرة .

إنها أيضًا تتوسل التأويل . بياض الحوت ، سواده الماورائي ، يرمز لانهماك المجتمع في أي عصر كان ، منذ بداية القرن العشرين ، في قضاياه الجنسية ، السياسية ، الروحية ، العسكرية ، الكونية ، والشخصية . («نادني إسماعيل .» «لا ، نادني إسماعيل .») أحسست بشعري وهو يقف - قد يكون هذا تعبيرًا مبتذلًا ، ولكنه

ما حدث لي بالضبط وأنا أقرأ «نوفمبر الرطب في روح إسماعيل» يرغمه على تهريب «آلاف الرجال الهالكين ، العالقين ، المثبتين على مقاعدهم ، والمربوطين إلى مكاتبهم» . وهنا تعهدت على نفسي أن أبدأ برحلة اكتشافي ، بلا هدف في بحر من الكتب : «من منكم ليس بعبد؟ أجبني .» فضلت ألا أفكر كثيرًا في هوية حوتي الأبيض . ولكن في الوقت نفسه رواية موبي-ديك قابلة للتأويل بشكل لا يمكن مقاومته . ويخبرنا ملفل أنه أيًا كانت هوياتنا ، وأيًا كانت التزاماتنا فنحن دائمًا نقرأ « . . . تلك القصة لنرسيس ، الذي لم يستطع القبض على صورته في الماء ، فقفز إليها ومات غرقًا . ولكننا نرى تلك الصورة ذاتها في كل الأنهار والمحيطات . إنها صورة شبح الحياة الذي لا يمكن القبض عليه ؛ وهذا هو مفتاح كل شيء .»

أيًا يكن ، علينا ألا نغفل الحقيقة المتمثلة في أنه ولخمسين عامًا ، قليل من القرّاء تمكنوا من رؤية انعكاسهم في موبي-ديك أو اعتبروه كتابًا عظيمًا . لقد تطلب الأمر قرنًا جديدًا ، وحربًا عالمية ، واختراعات عديدة في العصر الحديث حتى رغب التأسيس النقدي أو حتى تمكن من فهم موبي-ديك ؛ لم تقدّر أعداد كافية من القرّاء هذه الرواية إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . على عكس أعمال ملفل الأولى «تايبي» و«أومو» ، التي تلقت مراجعات إيجابية ومبيعات جيدة ، وكان نشر موبي-ديك سنة ١٨٥١ كما وصفه روبرت مكروم ، «مزيج مريع من الفشل» . كان مجموع الأرباح من الطبعة الأمريكية قرابة ٥٥٦,٣٧$ من الناشر هارپر وإخوانه ؛ وبعد مرور أربعين عامًا لم يستطع حتى بيع نسخ الطبعة الأولى المقدرة بـ٣ آلاف نسخة . ليعقب ذلك الأثر السام لروايته اللاحقة

الأغرب ، والتي تدعى «پيير» أو «الغموض» ، ثم عقب ذلك رفض روايته «جزيرة الصليب» سنة ١٨٥٤ ، كانت كتابات ملڤل محدودة جدًا . قام بالتدريس ، وحاول كتابة الشعر ، وانجرف بعيدًا . وأخيرًا تمكنت زوجته وعدد من أقربائها من توفير عمل له في نيويورك ، كان عملًا متواضعًا ولكنه ضمن له بعض المال . وكانت هنالك همسات من الجنون ، والإفراط في الشراب ، والعنف ؛ حتى أن أحد أبنائه انتحر بإطلاق رصاصة على نفسه ، وهرب ابنه الآخر من المنزل ولم يعرف أحد إلى أين ذهب . عندما توفي ملڤل سنة ١٨٩١ ، كان هو وسفينته في مهب النسيان .

سنة ١٩٩٠ كان هنالك موقع إلكتروني يدعى Grudge Match™ والذي كان يضم نزالات متخيلة بين شخصيات من ثقافة البوب . اختلفت الشخصيات من (أوبي وان كينوبي ضد دارث ڤيدر) إلى (ريد شيرتد إنساينس ضد إمبريال ستورمتروويرز) ، (جون مكلين ضد ذا ديث ستار) . وبعض النزالات كانت بعيدة تمامًا عن عالم ستار وورز . وبعد عشر سنوات قام أصحاب الموقع بإغلاقه لأننا لم نعد طلابًا في المرحلة الثانوية . وتمت أرشفة النزالات على هذا الموقع www.grudge-match.com/History/index . «أيها الصبية ، بواسطة هذا الموقع ، بالإضافة إلى مواقع البورن ، تعرف آباؤكم على روعة الإنترنت في بداياته .»

عن التفكر في الفروقات بين موبي-ديك وبين شفرة داڤنشي ، سيكون من المثير أن نضع هذه المقارنة في موقع Grudge Match™ ، بهذه الطريقة :

إنها المعضلة الأبدية للفنان : الشهرة والمال هنا والآن أو الفقر

والحياة البائسة مع فرصة للخلود بعد الموت . الحقيقة كانت كالتالي . على الأغلب فإن عدد الأشخاص الذين قرؤوا شفرة دافنشي -واستمتعوا بها- خلال الخمس سنوات الأخيرة أكثر من عدد الأشخاص الذين قرأوا موبي-ديك -واستمتعوا بها- خلال مئة وخمسين سنة . الأخيرة كانت غريبة ، متطلبة ، وعبقرية . والأولى كانت متاحة ، كهربائية ، ومعلنة . في الزاوية البيضاء ، فن رفيع . في الزاوية البنية ، بضاعة منحطة .

ورغم كل هذا ، المقارنة بين موبي-ديك وشفرة دافنشي ، ستكون مسلية ، وستفعل القليل غير تأكيد تحيزاتنا ، ولن تخبرنا ما الذي يجعل هذين الروايتين جديرتين بالملاحظة كل منهما في فضائها . لذلك أقترح أن ننظر إلى حياة كل من الكاتبين وعملهما . هرمان ملفل ودان براون . ما الأشياء المشتركة بينهما؟ قد نندهش بما سنتكشفه .

أعتقد أنهما . توأما حب!

نقاط تشابه مدهشة بين «شفرة دافنشي» لدان براون و«موبي-ديك» لهرمان ملفل

١. البحث عن الكأس المقدسة

شـفـرة دافنشي ومـوبي-ديك رحلتـا بحث أسطوريتين عن الكأس المقدسة ، في أكثر من مئة فصل ، تدور أحداث الروايتين من الافتتاحية إلى الخاتمة التأملية . الحكّاء في كل منهما يركّز على الرحلة الفردية للبطل ، الذي يقرر مخالفة الحكمة التي يقتضيها عمره ، ليواجه أخطارًا غير معروفة ، ويضع عقله ، حياته ، وروحه الأبدية في خطر كبير . في موبي-ديك ، أهاب ، إسماعيل ، طاقم العمل على سفينة پيكود ، يقطعون الكوكب في بحث دموي عن حوت قاتل أمهق نادرًا ما يلحظه أحد ، أهميته المجازية غير محدودة ؛ في شفرة دافنشي ، روبرت لانغدون ، السيد لي تيبنغ ، الإنتربول ، أوبوس داي ، وراهب قاتل أمهق نادرًا ما يلحظه أحد – أهميته المجازية : صفر – يتم قطع الكوكب في رحلة البحث الدموية عن الكأس المقدسة : كوب ، أو شفرة ، أو شخص ، أو كوب مرة أخرى في نهاية الأمر ، لست متأكدًا تمامًا . ولكنني لم أكن متأكدًا مما كان يجري في بالضبط في موبي-ديك أغلب الأحيان أيضًا .

٢- الحقائق

ملفل وبراون يحبان الإحصائيات ، الحكايا التاريخية

والحقائق . الكلمة الأولى في رواية شفرة دافنشي كانت «حقيقة» ، بيان لحسن النية ، لا يقوضه إلا حقيقة أن أغلب ما كتب بعده غير صحيح .[(١)] ادعى براون أن «٩٩ بالمئة» من الكتاب صحيح ، أو «بالتأكيد كل ما في الكتاب» صحيح ، برغم استخدامه لجمل عديدة مثل «زُعم أنه» ، «يشاع» ، «يبدو أنه» عند نقاش هذه القضية المثيرة للجدل . أيًا يكن ، روايته مليئة بتاريخ الفنون ، الافتراضات اللاهوتية ، الحسابات الدقيقة للارتفاعات ، الأعماق ، والأطوال ، وأحيانًا إلى أقرب المليمترات. بينما في موبي-ديك ، تكاد تسمع صرير التقاليد البحرية القديمة ، البيانات العلمية الدقيقة (دقيقة بالنسبة لذلك الزمن) ، وخطابات الرواية حول وظيفة دهن الحوت وطريقة الحصول عليه ، إلخ . وكشاب يافع ، أبحر ملفل مع صيّاد الحيتان أكوشنت ، وكان الهدف من روايته هو أن ينقل هذه المعرفة التي تلقاها بمشقة إلى عامة القرّاء . «أعني أن تعطي حقيقة الشيء ،» كتب . أيًا يكن .

٣- عامل الحقيقة

براون سوف يمسخ أي جملة بمرح إن كان يعني هذا إمكانية حشر إحصائية إضافية لا داعي لها . إذا كان القليل من العلم خطرًا ، فإن الكثير من العلم يمكن أن يكون أسوأ . في موبي-ديك يشرح ملفل/إسماعيل على مدار فصل كامل للقارئ كيفية قياس الهيكل العظمي للحوت ، أو تقنيات طعن الحوت ، أو أفضل الطرق

(١) صفحة ويكيبيديا الخاصة بالكتاب كانت تذكر بالتفصيل كل الأخطاء والمغالطات المذكورة في رواية شفرة دافنشي .

لقطع لحم الحوت : السنام ، اللسان . ملڤل أيضًا كان عنيدًا يحب التظاهر . يلقي بأسماء مثل ميلتون ، بايرون ، شكسبير ، كليوباترا ، سندريلا ، توماس جيفرسون ، وغيرهم . وأظنه يملك رأيًا فيما يتعلق بكون القدور والغلايات لهما اللون الأسود ذاته ولكني لست في منزلي الآن ولا أملك نسخة من موبي-ديك لأتحقق من صحة ظني . لا يوجد اتصال إنترنت في الكوخ الذي أمكث فيه الآن . سأعود إليكم لاحقًا .

٤- الحوار

لا يهتم براون ولا ملڤل للحوارات التلقائية . كما لاحظتم بالتأكيد لا أحد في الحياة اليومية يتحدث مثل روبرت «علي أن أذهب إلى المكتب . بسرعة!» أو مثل أهاب «العق السماء!» . ولماذا على هذه الشخصيات أن تتحدث بشكل تلقائي؟ هذه ليست حياتنا الحقيقية . أيًا يكن ، فإن هذا يشكل عقبة بالنسبة لنقل الروايتين إلى السينما والمسرح ، لأنه تمثيل هذه المشاهد والحوارات قد يبدو مضحكًا . أحد المحاولات الجادة لنقل موبي-ديك إلى المسرح ، كانت المسرحية الغنائية تحت اسم «حوت من حكاية» - وكانت هذه المحاولة متعاطفة مع النص الأصلي . أظنها كانت كذلك ، يجب علي أن أعرف . مازلت أملك الكوب التذكاري من تلك الليلة .

مبادئ توسع العلامة التجارية تجعل من انتقال شفرة داڤنشي إلى المسرح أمرًا لا مفر منه . وعلى المنتجين المحتملين لهذا العمل في المستقبل أن يعرفوا هذه المعلومة ، الرجل الذي كتب المسرحية الغنائية لموبي-ديك يدعى روبرت لانغدن . مصادفة؟ أظن أن البروفسور روبرت لانغدون سيخبرنا بأنه لا يوجد شيء كهذا .

٥- الرمزية

بطرقهما المختلفة ، براون وملڤل كلاهما مهووسان بالرموز والرمزية . روبرت لانغدون بروفسور متخصص في علم الرموز في هارفرد . شفرة داڤنشي مزدحمة بالألغاز ؛ أما موبي–ديك فهي لغز بحد ذاتها . وما عسى هذا الحوت الأبيض صعب المنال أن يكون سوى «رمز مفقود»؟ يحب دان براون فن إعادة ترتيب الحروف ، وشخصياته دائمًا ما تكون ملزمة بفك شفرة ما ، للوصول إلى معنى أو دليل ضائع . هذا النوع من الألغاز المعجمية هو ذاته الذي نراه حاضرًا بوضوح لدى كتّاب مثل ڤلاديمير نابوكوف ، إتالو كالڤينو ، وجورج پيريك ، ولكن ليس بالجودة ذاتها .

٦- العمل

لأن الكثير من الكتّاب بحاجة لمصدر رزق ، فإن أغلبهم كانوا يعملون في أعمال مختلفة غير الكتابة ؛ ولم يكن هرمان ملڤل استثناءً من هذه القاعدة . قبل أن يكون ملڤل روائيًا ، كان بحّارًا ومحاضرًا ، وصحفيًا أيضًا . وبعد فشل روايته موبي–ديك ، انتقل للعمل في مكتب الجمارك . وهنالك مصادفة غريبة تتمثل في أن هرمان ملڤل ودان براون عملا في تدريس اللغة الإنجليزية . يتحدث براون عن تجربته قائلًا : «لم أدرك إلى أي درجة كانت مسرحية شكسبير «جعجعة بلا طحن» مضحكة حتى قمت بتدريسها للطلاب في مادة اللغة الإنجليزية ، لم يسبق لي قراءة حوار أكثر ظرافة من هذا ،» وكدليل على نفوذ دان براون التجاري ، في إحدى طبعات مسرحية شكسبير هذه التي نشرت مؤخرًا ، تم وضع هذا الاقتباس لدان براون على غلافها ، يبدو أن أحد المسؤولين في دار

النشر شعر بأن شكسبير كان بحاجة لبعض المساعدة من دان براون .

وقبل أن يصبح براون أحد أكثر الكتّاب مبيعًا في العالم ، كان قد قضى بعض الوقت في هوليوود يدرّس اللغة الإنجليزية ، ويحاول أن ينجح كمغني وككاتب للأغاني . قام بتأسيس شركة تسجيلات أنتجت عدد من الألبومات التي لم يكتب لها النجاح . في سنة ١٩٩٣ احتوى براون أغنية تدعى LOVE-976 ، والتي يحتمل أنها مستلهمة من رواية نيكلسون بيكر «ڤوكس» ويبدو أنها تتحدث عن الجنس عبر مكالمة هاتفية . «الآن عندما أشعر بأنني صغير ، أنت من أتصل به ،» يغني براون ، برمزية بدائية . «أرى وجهك في مخيلتي / أشعر بحبك وهو يأتي نابضًا عبر خط هاتفي-»

أرجوك ، أغلق الخط ، أغلق الخط!

على حد علمنا لم يسبق لهرمان ملڤل أن كتب أغنية تتحدث عن ممارسة الجنس عبر الهاتف . ولكن لمحة من الفصل ٩٤ في رواية موبي-ديك ، «ضغط اليد ،» قد تعطي تلميحًا لتخيل كيف ستكون أغنية ملڤل . ومن هذا نستنتج أنه كان من الممكن لملڤل أن يحظى بنجاح أكبر في هوليوود مقارنة بما حققه دان براون .

٧ـ النقاد

وكما تم توضيحه مسبقًا ، بينما تصاعدت ثروة براون ، تصاعد سخط النقاد عليه . اعتبرته الكنسية الكاثوليكية كافرًا ؛ أساتذة الأدب في الجامعات ألقوا باللوم عليه ؛ المشاهير أمثال ستيفن فراي يصفون كتبه بأنها من أسوأ أنواع الكتب . كان على دان بروان أن

يتحمل كل هذا الحقد ، وهذه السخرية ، الشبكات الاجتماعية مليئة بالاستفتاءات حول أسوأ عشرين جملة قام بكتابتها ، ورجل يحمل فتوى يشتمه بأشنع الألفاظ . ولكن براون يحاول أن يكون متفائلا فيقول : «هنالك بعض الأشخاص الذين يفهمون ما أحاول فعله ، وهؤلاء هم من يركبون القطار ويستمتعون بالرحلة ، وهنالك بعض الأشخاص الذين عليهم ربما القراءة لغيري .»

ولكن أظن أن على دان براون أن يعتبر نفسه محظوظًا . حين تعرض ملفل لهجوم مماثل من النقاد ، وكانت مبيعاته في تناقص واضح ، تمكنوا من الإطاحة به فورًا ووضعه خارج الصورة تمامًا . الحيرة التي تم استقبال موبي-ديك بها ، تحولت إلى غضب شديد حين نشر روايته التالية «بيير» . في الثامن من سبتمبر سنة ١٨٥٢ ، نشرت صحيفة في نيويورك مادة تحت عنوان : «هرمان ملفل رجل مجنون!» . وكتبت الصحيفة : «قام صديق لنا بقراءة آخر كتب ملفل ، «الغموض» . . . وأخبرنا أنه كتب بهذيان وخيال رجل مجنون . وكنا مندهشين من هذا التعليق ، ثم علمنا بعد عدة أيام أن ملفل كان مختلًا ، وأن صديقه كان يحاول أن يأخذه للعلاج . نأمل أن تكون أول الاحتياطات التي يتم أخذها ، هي أن يتم منعه من لمس القلم والحبر .» وبعد أن أهملته الصحافة والعامة ، قام ناشر ملفل برفع دعوى قضائية . وهذا أمر يدعو للسخرية ، لأنه .

٨. دور نشر سيئة

يملك كل من براون وملفل أسبابًا جيدة للوم المحررين والناشرين الذين عملوا معهما ، على الأقل بسبب بعض المشاعر السلبية التي كانت موجهة ضدهم . نشرت موبي-ديك لأول مرة في لندن

بواسطة ريتشارد بينتلي ، الذي قام بحذف الكثير من أجزاء الرواية ، ونسي أن يضم الخاتمة ، ليترك العديد من النقاد للاعتقاد بأن إسماعيل غرق مع بقية طاقم السفينة ، وهكذا اختفى الحكّاء من الرواية ، وقام النقاد بلوم ملفل على هذا الخطأ ، ولم يعلم أحد أن ريتشارد بينتلي كان السبب وراء هذا .

وبالطريقة ذاتها ، العديد من الأخطاء الإملائية واللغوية في شفرة دافنشي ، كان من الممكن تفاديها قبل النشر . وكما يقول أحدهم ، «لا يوجد محرر يحترم نفسه ، يسمح بنشر كتاب يحتوي على أخطاء كهذه . مهمة المحررين هي أن يجعلوا يظهروا الكتّاب بشكل أفضل (وأكثر ثقافة) مما هم عليه .» على ما يبدو هنالك خطأ ما حدث بالنسبة لكتاب دان براون . أو ربما لم يحدث أي خطأ على الإطلاق . ربما لم يتوقع أحد لهذا الكتاب أن يحقق كل هذه الشهرة وأن يوضع تحت مجهر النقد . في الظروف العادية ، قد تكون هذه الأخطاء مقبولة ، لأنه حسب ما قاله براون فإنه يكتب للقرّاء الذين يريدون الصعود على رحلة في قطار والاستمتاع بوقتهم . نعم ، كان من الممكن لأحدهم أن يدخل القطار وفي يده ممحاة ليقوم ببعض التعديلات - هذا الشخص هو المحرر ، أو بإمكان براون أن يقوم بهذا العمل - ولكن على أي حال لم يكن هذا ليصنع أي فرق بالنسبة للركاب . وإن أردنا أن نوسع الاستعارة ، فإن قطار براون سريع وبإمكانه الإنطلاق إلى أي وجهة ، أما قطار ملفل فإنه بطيء ، ولكنه يحتوي على مقاعد شاغرة دائمًا . ولا تستحق شركة خطوط الحديد شكرًا على هذا .

في روايات براون ، يعمل لدى روبرت لانغدون محرر يدعى جوناس فاوكمان. رجل حسن النية ، يعمل في مانهاتن ، له لحية ،

وقد تجاوز غداءات العمل ، يستمع بصبر لتفاهات لانغدون عن المؤامرات ومريم المجدلية . ولمرة واحدة يكتب براون سطرًا حقيقيًا على لسان فاوكمان :

«الكتّاب! حتى العقلاء منهم مجانين!»

٩ . عامل الملحقات

كل من موبي-ديك وشفرة داڤنشي تمكنتا من خلق صناعات ثانوية كاملة حولهما ، كالأفلام ، البضائع ، كتب ملحقة ، وبالنسبة لشفرة داڤنشي ، هنالك أيضًا أجور المحامين للدفاع عن قضايا السرقة الأدبية (جميعها انتهت لصالح براون ، فقط للعلم) . هنالك بعض الكتّاب الذين كتبوا كتبًا كاملة لمقارنة أعمال براون مع الأدب الغربي : يا له من عمل بائس . وهذه الكتب جذبت عددًا من المهووسين بالإنترنت ، والمفتونين بنظرية المؤامرة ، وعدد من المجانين . بينما كان مسبح موبي-ديك له عمق أكاديمي - المجانين فيه يملكون شهادات دكتوراة ، وينشرون هذيانهم في منشورات فصلية - ولكن النتيجة واحدة .

١٠ . عامل Zelig

في فيلم وودي آلان Zelig ، البطل مجهول الاسم يتغير مظهره بشكل لا إرادي ليمثل أي شخص يتحدث معه في تلك اللحظة - حاخامات ، أطباء ، نازيون ، إلخ . وتحت تأثير التنويم المغناطيسي يقوم بربط حادثة في الطفولة قامت بالتسبب في هذه الحالة : «في المدرسة . كان هنالك أشخاص أذكياء جدًا . سألوني إن كنت قرأت موبي-ديك . كنت أشعر بالخجل من الاعتراف بأنني لم أقرأها .»

شفرة دافنشي ، وموبي-ديك روايتان قد نشعر حين نتحدث عنهما بأننا في حالة أشبه بحالة البطل في فيلم وودي آلان ، وقد نضطر للكذب عند حديثنا عنهما تحت ضغط المجتمع . «لم أتمكن من وضع الرواية أبدًا!» أو «لن تراني أقرأ هذا الهراء ما حييت!» أو «أقدّر استخدام الكاتب للرموز!» ، حتى لو لم نقرأ أيًا منهما ، ولم نبيّت النية حتى لفعل ذلك . وكما تعلمون كل هذه ضغوطات علينا مقاومتها ، ولكن هذا صعب جدًا . وكما يعترف Zelig ، «أريد أن أحصل على تقديرهم .»

**

على عكس دان براون ، فإن هرمان مل?ل ليس على قيد الحياة كي يتمتع بالتقدير والثروة التي كان من الممكن أن تأتيه لاحقًا . لقد مات غريبًا جزعًا ، فاشلًا في زمنه ، وبمقاييسه . وبعد خمسين عامًا تحول إلى أيقونة أدبية . برغم أن هناك مؤشرات تدل على أن ظاهرة براون بدأت بإحراق نفسها - محلات التبرعات البريطانية أعلنت في إحصائية لها أن شفرة دافنشي هو أكثر كتاب يتم التبرع به ، رغم أن هذا قد لا يكون مؤشرًا سيئًا بالضرورة ، ربما يكون السبب ببساطة هو أن كل رجال ونساء وأطفال بريطانيا قد قاموا بقراءة هذا الكتاب ولم يتبق أحد ليشتريه - لقد حصل براون على شهرة سريعة لم يسبق لكاتب أن حققها في العصر الحديث ، مع ذكر بعض الاستثناءات : ج . ك . رولينغ ربما وإي .إل جيمس . وربما سوف يُنسى اسمه تمامًا بعد خمسين عامًا .

وهذه هي النقطة التي أردت الوصول إليها عندما قلت بأن براون وملفل توأما حب : برغم أنه شيء غير قابل للتصديق ، ولكنهما كانا يحاولان كتابة الكتاب ذاته - مثل بطل فيلم وودي

آلان ، كلاهما كانا يحاولان الانتماء والحصول على محبة الجميع . دان براون لم يكن يحاول كتابة موبي-ديك ، مفتاح كل الميثولوجيات - سيكون هذا سخيفًا جدًا - ولكن إلى حد ما ، هرمان ملڤل كان يحاول كتابة شفرة داڤنشي . ولكنه لم ينجح ، لأنه لو فعل ، لما قضى بقية حياته يعمل كموظف جمارك . كجميع الكتاب ، كان يأمل أن كتابه سيصل إلى القرّاء ويلهمهم وتنفد نسخه . ربما لم يطمح ملڤل بالطريقة ذاتها التي حققها دان براون ، ولكنه بعد فشل روايته موبي-ديك ، لم يتمكن من الحصول على ما يكفيه من المال ليأكل . هذه الحقيقة حولت أيامه القادمة إلى شقاء مستمر . ولا أعتقد أن هرمان ملڤل كان مؤمنًا بجدوى الفن للفن ، لدرجة تضحيته بكل شيء في سبيل الخلود الأدبي . لأنه حين أراد أن يقدم الإثارة والغموض في موبي-ديك ، تمكن من فعل هذا ، بطريقة يمكن لها أن تجعل ملايين القرّاء يعجبون بروايته ، ولكنه فعل كل شيء آخر أيضًا في الرواية .

قبل وفاة هرمان ملڤل ، كان يعمل على رواية قصيرة تحت عنوان «بيلي بد» . كانت أول رواية خيالية يكتبها منذ سنوات طويلة . كانت مسودتها محفوظة لدى زوجته إليزابيث ، لم يعثر عليها إلا في سنة ١٩٢٤ ، وبرغم قصر هذه الرواية إلا أنها رائعة وغير عادية . وفي نهاية حياته التعيسة ، عادت إليه عبقريته صعبة المراس ، بصورة كاملة لا يضاهيها شيء . يكاد إحساسه في ذلك الوقت ، وإحساسه الآن ، يمثل دليلًا عنيفًا ومثيرًا للشفقة للقصاصة التي وجدت ملصقة في مكتبه من الداخل ، وقد كتب عليها :

«كن صادقًا وأمينًا على أحلام شبابك .»

الكتاب الحادي عشر

آنا كارنينا - ليو تولستوي

«كحيوان جائع يتربص بكل شيء يراه ، على أمل أن يجد فيه طعامًا ، تربّص ڤرونسكي دون وعي منه بالسياسة ، والآن بالكتب الجديدة ، الآن بالصور .»

آنا كارنينا ، الجزء الخامس ، الفصل الثامن

«إنك تملك شخصية متسقة ، وتأمل أن تكون كل حقائق الحياة متسقة ، ولكنها ليست كذلك . وتريد أيضًا أن يكون لكل عمل يقوم به الفرد هدف ، وحب ، وحياة عائلة - ولكن هذا لا يحدث أيضًا . كل تنوع الحياة وسحرها مكون من ثنائية النور والظل .»

آنا كارنينا ، الجزء الأول ، الفصل الحادي عشر

في المعرض الوطني في لندن ، كنت أقف مع ألكس عند قدم نمر .

«غررررا!» كان ألكس يصدر صوتًا ، ويشير إلى لوحة معلقة ويقهقه . حاولت أن أبتسم للحارسة الصامتة قربنا في المعرض ، ولكنها رفضت النظر إلينا . يبدو أن طفلي السعيد يهدد مزاج معرضها .

«أنت على حق ألكس ،» أخبرته . «غررررا!»

كان ذلك اليوم بعد أسبوع من الكريسمس . وكان المعرض الوطني مليئًا بالعائلات ، السياح ، وبعض المتسوقين الذين جاؤوا لأخذ استراحة من الشراء . كانوا يحتشدون أمام لوحة «زنابق الماء» ، أو لوحة «زهور عباد الشمس» ، قبل الوقوف في صف طويل لشراء الهدايا من متجر سينسبيري – آسف ، جناح سينسبيري لبيع الهدايا – لشراء وشاح ، أو لعبة ، أو تمثال لفنست فان جوخ بأذن واحدة يمكن تركيبه على ظاهر ثلاجة المنزل .

وعلى بعد عشرين ياردة ، خلف عدة أبواب خشبية ثقيلة ، في الحائط الجنوبي من قاعة هاري وكارول جانوغلي ، وعلى ارتفاع يقارب ٤٤٠ سنتيمتر (أشعر بروح دان براون وهي تسيطر علي) كانت هنالك لوحة أردت لألكس أن يراها . إنها للرسام جورج سورا تحت اسم «مغتسلون في أنيير» وهي بالمناسبة لوحتي المفضلة في المعرض الوطني . إن مررت به ، وكان لدي بعض الوقت ، فإنني أتجه مباشرة لغرفة رقم ٤٤ وأجلس أمام هذه اللوحة لأسترخي كالصبي صاحب القبعة فيها . أبعادها ٢٠١ و٣٠٠ سنتيمتر ، وهذا لا يهم . انظر إلى ضباب صيف ذلك اليوم على نهر السين قبل قرن من الآن . أنيير كانت الضاحية الصناعية لباريس ؛ وفي الخلفية رسم سورا دخان المصانع . هل كان على هؤلاء الصبية في اللوحة أن يعملوا في ذلك الوقت؟ أم أنهم في يوم إجازتهم وهذه اللمحة الصناعية تطفلت عليهم لتساهم بضبابها في زرقة السماء الكسولة؟ في هذه اللحظة ، كل هذه الأسئلة لا تهم . اللوحة عبارة عن بركة من الألوان والضوء .

«ما رأيك يا ألكس؟» قمت بسؤاله .

«لقد أحببت الكلب ، وووف!» يجيب ألكس بسرعة .

لقد كان على حق مجددًا . الكلب يكمل اللوحة ؛ ذيله ، تأهبه ، عزلته . كل شيء آخر في اللوحة بطيء وناعس .

السمو الذي تناول به سورا مشهدًا عاديًا كهذا اعتبره الجميع مضحكًا في أيامه . دائمًا ما يضعني في عقل فيلم جاك ديمي Les parapluies de Cherbourg ، والذي تدور أحداثه في مطل نورماندي قذر لصيد الأسماك وتتوالى فيه أغان من الواقعية الاجتماعية - وهي فكرة لو نظرت فيها ، لوجدت أنها مضحكة أيضًا . ولكن لوحة سورا وفيلم ديمي ، يشبهان صور ويليام إيغليستون أو أغاني راي دافيس ، لأن جميع هؤلاء يبحثون عن أشخاص عاديين في حياتهم الريفية ، ويمنحونهم فرصة التوهج . أحب أن أسميها واقعية سحرية ، ولكن هذا المصطلح قد تم أخذه مسبقًا ، بعد أن تم تسجيله في مكتب لبراءة الاختراع في أمريكا اللاتينية في ثمانينات القرن الماضي ، ليدل عادةً على مزيج من الحقيقي والسحري . أعجبني الكلب في لوحة سورا ، لأنه تمكن من رسم كلب حقيقي بصورة سحرية ، دون أن يرسم كلبًا سحريًا بأجنحة وقبعة .

في محل الهدايا ، قمت بشراء بعض البطاقات البريدية مع ألكس ، وتركنا تماثيل فان جوخ المغناطيسية في مكانها . كان ألكس كبيرًا بما يكفي ليستمتع بالذهاب إلى المتاحف ، المعارض ، ودور السينما ، ومحلات الهدايا التابعة لها أيضًا . كانت هذه جميعها جزءًا من التجربة ذاتها ، وكنا نستمتع بالذهاب لها معًا .

في الخارج ، كانت الاستعدادات على قدم وساق لاستقبال بداية السنة الجديدة ، حيث اجتمعت حشود المحتفلين في ميدان

ترفلغار، لتحتفل طوال الليل. لن أحتفل هذه السنة معهم، ولكني سأحظى بوقت رائع لأنني سأقرأ تولستوي.

قبل عدة أسابيع في حفلة بمناسبة الكريسمس، التقيت برجل من لويزيانا قرأ «كونفدرالية البلداء» واستمتع بها جدًا، ليس لأنها تقدم نظرة شرسة ساخرة للعالم، ولكن لأنها قدمت بورتريه اجتماعي واقعي لمدينته، نيو أورلينز. ثم شرحت له قصة «قائمة الإصلاح».

«يا إلهي!» صرخ في وجهي متأثرًا. «هل قرأت آنا كارنينا؟ أخبرني أنها في قائمتك!»

أجبته بأنني سوف أقرأ آنا كارنينا. شعرت بأنني تهورت عندما قلت هذا، برغم أنني صادق فيما قلت.

وفي ليلة الكريسمس، بدأت بقراءة آنا كارنينا (أشعر أن كارنين هو النطق الصحيح لها). وفي نهار الكريسمس، بين فتح الهدايا، وتركيب سفينة نوح، وتجربة إعداد أول ديك رومي، استمريت في قراءة المزيد. في اليوم التالي لم تعد عائلتي أولوية بالنسبة لي، بل عائلة أبلونسكي وما سيحدث معهم في تالي الصفحات. وفي منزل حماتي، هربت خلسة إلى إحدى الغرف عندما انشغل الجميع في غرفة المعيشة بلعب لعبة Pictionary. لم يكن هذا مجرد كتاب عظيم؛ بل كان كتابًا عظيمًا من الممكن أن أقع في حبه. بالتأكيد، فإنني أحب عائلتي أيضًا، لدرجة أنني في مكان آخر من المنزل، أقرأ عن عائلة أخرى، عاشت في مكان بعيد تمامًا، قبل وقت طويل جدًا.

هل يعتبر هذا خاطئًا؟ أن أفضل الكتب على البشر؟ ليس في الكريسمس على كل حال. الكتاب يشبه الضيف الذي دعوته إلى

منزلك ، دون الحاجة للعب Pictionary معه ، أو تقديم البسكويت والفواكه له . كنا أنا وتينا ما نزال نحاول الانسجام مع روتين الكريسمس الجديد بعد قدوم ألكس إلى العائلة . عندما كان طفلًا ، أصبنا بالفزع حين اكتشفنا أننا لن نحصل على يوم إجازة منه حتى في الكريسمس . لقد كان أسوأ من سكروج في قصة تشارلز ديكينز عن الكريسمس! لم نتمكن من الاستلقاء في السرير ، للحديث عن بابا نويل كما اعتدنا كل سنة . لكن ألكس الآن أصبح أكبر بعدة سنوات ، وأصبح مع الكريسمس وقتًا ساحرًا للعائلة . حتى بالنسبة للجد والجدة ، اللذان قضيا عمرهما يهتمان بتفاصيل الكريسمس ويجهزان الطعام والزينة ، وحان الوقت الآن كي يسترخيا ويشاهداننا ونحن نقوم بالعمل . هذه بالضبط «دائرة الحياة» .

عندما ولد ألكس ، نصحتني عمتي بنصيحة قيمة . «حياة العائلة ، حياة جميلة يا آندي ، ولكن عليك أن تبذل كل ما في وسعك لها .» أظن أن عمتي علّمتني أنني قد أجد تحديًا في هذا - وكانت على حق . الحصول على طفل ، جلب معه دورًا غير متوقع لم أكن أريده من البداية . أحب كوني والدًا لألكس ، ولكنني أفضل أن أكون والدًا له دون القيام بمسؤولياتي الثانوية تجاه الآخرين . لقد كانت مهمة شاقة ، متكررة ، ومرهقة للأعصاب . والدة تينا ووالدها منفصلان منذ زمن ؛ والدتي تعيش بمفردها ؛ أخي وعائلته يعيشون في أستراليا منذ سنوات . لذلك حين يأتي الكريسمس ، لا نقوم فقط بإعداد الطعام ، والتسوق ، بل نقوم بكل هذا تحت تأثير الكثير من مشاعر الاشتياق التي تتبعثر بين مكالمة سكايب نجريها وخطاب الملكة الذي نستمع له معًا .

«كل العائلات السعيدة تمثل بعضها ، ولكن كل عائلة تعيسة ، تخلق تعاستها على طريقتها الخاصة .» هذه هي الافتتاحية الشهيرة لآنا كارنينا . هل استسلم تولستوي لحياة العائلة؟ بغض النظر عن كونه متزوجًا لخمسين سنة ، وعن أنه أب لثلاثة عشر ولدًا ، إلا أنه لم يستسلم لحياة العائلة . بل على العكس ، استطاع هذا الرجل العظيم ، أن يجعلها تستسلم له ، ولكن عائلته لم تكن تعيسة على طريقتها الخاصة ، بل على طريقته هو . لقد كانت اتفاقية داخلية تعتبر واحدة من أتعس الاتفاقيات في تاريخ الأدب كما وصفها أحد المؤرخين .

بالتأكيد ، فإن هذه التعاسة قامت بإنتاج عمل عظيم كعمل تولستوي . ولكن هذا العمل أثبت أنه ليس كافيًا للرجل العظيم الذي أنتجه . كانت آنا كارنينا شهادة حية لتخلص تولستوي من حياة الوهم التي عاشها تجاه العائلة وتجاه الفن أيضًا . «قطرتا العسل في عينيّ اللتان ألهتاني عن الحقيقة القبيحة للعالم : حبي لعائلتي ، وحبي للكتابة - الفن كما أسميه - لم تعودا عذبتين بالنسبة لي .» يعترف تولستوي بعد عدة سنوات في مذكراته . وبعد نشر «آنا كارنينا» بمدة قصيرة ، تاب تولستوي علانية من حياته المسرفة ، وطموحه الشاب ، وهوسه بمعاشرة النساء . «الحرب والسلام» كانت غلطة ، و«آنا كارنينا» أيضًا . كتابة الخيال خطيئة كالشهوة ، إلا إن كانت تستخدم لغاية عليا . ومن تلك اللحظة فصاعدًا ، لم يلتفت تولستوي إلى أي شيء إلا إن كان يمجد تعاليم المسيح -أو تأويلات تولستوي لتعاليمه- ويساهم في إعداد مملكته على الأرض . ما فعله تولستوي كان أحد أكثر أزمات منتصف العمر ماسوشيّة ، ولكن تولستوي لكونه تولستوي ، لم يخطر بباله

أن يتراجع . وللعقود الثلاثة القادمة ، عاش حياة مسيحي ، فلاح ، رجل مقدس ، لا كاتبًا ولا والدًا حتى لأبنائه ، برغم عدم قدرته على كبح جماح هذين الغريزتين تمامًا . زوجة السيد تولستوي كان لديها سبب قوي لتشتكي منه ، وهذا ما فعلته ، بشكل متكرر .

لا أعلم تمامًا كيف كان الكريسمس في حضرة تولستوي ، ولكن أظن أن هناك بعض التوتر بين الاحتفال بولادة المسيح ، والاحتفال بحياة تولستوي . لا يبدو أن التخلي عن الفن جلب الكثير من السلام لغروره الجبّار . لقد علم تولستوي تمامًا أن مقالاته وخطبه ، برغم نقاء مبادئها وإتقان كتابتها ، لا تصل حتى لكسر بسيط من مستوى كتابته في الرواية - وقصصه الأخيرة مثل «موت إيڤان إيليتش» ، «سوناتا كرويتزر» تؤكد ذلك . نابوكوف يكتب عن قصة تولستوي «يلتقط كتابًا في يوم كئيب في آخر سنوات حياته ، بعد زمن طويل من كتابته للرواية ، ثم يبدأ يقرأ من المنتصف ، ليشعر بالرضا والانجذاب للكتاب ، ثم ينظر إلى العنوان ليجده : آنا كارنينا - ليو تولستوي» .

مر شهران منذ أن بدأت بالقراءة ضمن «قائمة الإصلاح» . كل كتاب من الكتب القائمة كان يملك سرًا خارقًا للعادة . ورغم هذا ، كانت «آنا كارنينا» هائلة جدًا لدرجة تكاد تحتوي كل تلك الكتب التي قرأتها . كانت دقيقة مثل رواية «مدل مارش» ، معجمية مثل «البحر ، البحر» ، وقاسية مثل «مكتب البريد» . أما ذروتها فكانت مؤثرة مثل «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» . . . وكانت تجريبيةً مثل «اللامسمّى» . لقد عرضت «آنا كارنينا» نظرة عاملة للنظرية الزراعية في القرن التاسع عشر وتشبه في هذا

«موبي-ديك» . حتى أنها احتوت على شخصيات تقف في حقول القمح ، تستند على المحاريث وتتحدث عن الاشتراكية .

بطريقة أخرى «آنا كارنينا» كانت ما توقعت أن أجده في «المعلم ومارغريتا» . كان هذا هو الكتاب ، أو الفراغ ، الذي كنت أبحث عنه منذ البداية ، أو منذ ما قبل البداية . كان التوازن المثالي بين الفن وبين المتعة - لا ، لم يكن توازنًا ، بل وحدة واحدة لا يمكن فصلها . اختار تولستوي طريقة معاصرة لتأطير اختيارات شخصياته ، ومعضلاتها النفسية ، ومعاناتها ، ولحظات صفائها ؛ أو ربما كانت طريقة أبدية ، وهذا يجعلها معاصرة دائمًا . وكالناس ، تناقض شخصيات تولستوي نفسها . تغير معتقداتها ، أمزجتها ، مظاهرها . لدى كاتب آخر قد تظهر هذه التغييرات وكأنها دلالة على عدم السيطرة على الكتابة ، لكن لدى تولستوي الأمر أشبه بمحاكاة كاملة للحياة . مقياس الحبكة وروسية الأسماء بدت غير منطقية . وكان تولستوي عندما يريد أن يقرر ولادة طفل أو وفاة مسن في الرواية ، تشعر معه أنه يريد أن يوضح معنى ما من خلال القصة ، وهكذا يكون التفصيل بدائيًا وتكون الشخصية بالغة القوة وراءه . لا يمكن تصنيف «آنا كارنينا» على أنه كتاب سهل القراءة ، وربما لو لم أقرأ قبله إليوت ، ملفل ، بيكيت ، توول ، وتريسل ، لما استطعت قراءة «آنا كارنينا» بهذه السلاسة . ولكنني لم أكن متوترًا من الرواية . كلوحة سورا أو Les parapluies de Cherbourg ، كانت «آنا كارنينا» العالم الحقيقي ، ولكن بصورة أفضل .

بالطبع ، بالنسبة لطفل في صباح الكريسمس ، يظل العالم الحقيقي هو العالم الحقيقي بالنسبة له ، ولكن بصورة أفضل . أولًا كريسمس الأب وغزاله ، ثم الأم والأب ، والجدة والجد والمربية -

لا ، يا عزيزي ، جدك لا يعيش مع جدتك ؛ ولا يعيش مع المربية أيضًا - هيا للاستحمام مع الكثير من الألعاب والحلويات والكتب . إنه يوم من الواقعية السحرية . إنه استراحة من تقطيع الخضروات وفض النزاعات ، جلست مع ألكس لنقلب كتابًا مصورًا ونحن نشعر بسعادة غامرة . في صباح ذلك اليوم ، قدم لي ألكس مظروفًا ذهبيًا مشعًا يحتوي على هدية الكريسمس . في الداخل وجدت تذكرتين للذهاب لعرض يدعى «الأحد في الحديقة مع جورج» ، عرض غنائي لم يسبق لي رؤيته ، والذي كان سيقام في ويست إند في لندن . في بدايته تم عرض لوحات جورج سورا ، بالتحديد أشهر أعماله ، ثم تم عرض لوحتي المفضلة «مغتسلون في أنيير» - والمشهد من الجهة المقابلة للنهر ، «ظهيرة يوم أحد على جزيرة لا كغاند جات» . كانت تلك هدية مثالية .

القارئ النبيه سيكون قد لاحظ أنني أحب المسرحيات الغنائية . وأكره الرياضات بشكل سري وصامت ، وكذلك السيارات وحفلات الشواء . كل هذا جعل زوجتي تصفني بأنني رجل مثالي . بالنسبة للبعض تعتبر المسرحيات الغنائية المعاصرة غير جادة بشكل ميؤوس منه ، مضحكة بطريقة متأصلة أو برجوازية ، مثل الرواية أو العائلة ؛ «تاتشرية قيد العمل» حسب وصف ناقد محترم . بعض المسرحيات الغنائية تعاني أمام تحدي جاذبية مصادرها الأصلية - بإمكاني إحالتكم إلى الآراء القاسية التي كتبت عن مسرحية «موبي-ديك» الغنائية ، أو «السيد ستاربك» ، و«في نانتوكيت القديمة» . ولكن والديّ كانا يحبان ليرنر ولو ، رودجرز وهامرشتاين ، فرانك ليسر ، وكطفل كنت مهووسًا بموسيقى البوب والحكايا ، أحببت الطريقة التي كانت تختصر فيها

المسرحيات الغنائية الكلمات وتتلاعب بها ، لتقدمها مليئة بالعاطفة في أغنية مدتها ثلاث دقائق فقط . الآن أصبحت بالغًا ، ولكنني مازلت أحبها . وهذا لا يعني أن كل المسرحيات الغنائية جيدة - عندما تكون سيئة فإنها تتحول إلى شيء كارثي - ولكني أحب شهرة هذه المسرحيات وحيويتها ، وحقيقة أنه عندما تبدأ فإنها تحمل مجموعة كبيرة من المواهب في داخلها ، بانضباط كبير ، ودقة شديدة . كما أنني أحب الغناء أيضًا . قال جاك ديمي ذات مرة وهو يتحدث عن مسرحياته الغنائية «الغناء وسيلة للتواصل ، أجدها مثيرة للاهتمام . بإمكانها أن تكون أكثر حنانًا ، أكثر كرمًا ، أكثر عنفًا ، أكثر عدوانية ، أكثر لطفًا ، أيًا يكن .»

(مصادفة أخرى : بينما كنت أشاهد الوثائقي L'univers de Jacques Demy مرة أخرى هذا الصباح كي أتأكد من الاقتباس ، كنت مندهشًا عندما رأيت أنه في منتصف السبعينات كان ديمي وصديقه ميشيل ليغراند يخططان لمسرحية غنائية مستوحاة من «آنا كارنينا» تدعى «Anouchka» . انتقل ديمي وزوجته وطفلاه إلى موسكو لتعلم اللغة الروسية . واستمر ديمي وليغراند بالعمل معًا ، حتى أخفقا في جلب الدعم المالي اللازم لإتمام المسرحية .)

كانت تذاكري التي أهداني إياها ألكس في نهاية الشهر ، وهذا يعني أنني أملك الوقت الكافي لأخذه إلى لندن لرؤية لوحة سورا ، كي يعلم لماذا كان والده سعيدًا جدًا بهديته . وبحلول ذلك الوقت قد أكون أنهيت بعض الكتب في القائمة . بعد «آنا كارنينا» ، إن التزمت بهدفي الأساسي ، سيكون أمامي كتابان فقط لإنهاء القائمة . ولست على عجلة من أمري لأنتهي منها . لقد

كانت «آنا كارنينا» أفضل من الكريسمس .

لن أحاول أن أسرد حبكة «آنا كارنينا» . القصة طويلة ، ملتفة وآسرة ، وإن لم تكن قرأتها من قبل ، فإن جهدي في الصفحات القليلة القادمة سيكون منصبًا على إقناعك بضرورة قراءتها . ولكن إليك ملخصًا لثيمتها المركزية ، هذا الاقتباس يعود لليموني سنيكت من «سلسلة من الأحداث التعيسة» : «حياة ريفية ، بأخلاق بسيطة ، رغم رتابتها ، إلا أنها خيار شخصي مفضل على حياة مغامرة مليئة بالعاطفة والاندفاع ، لن تقود إلى إلا المأساة .» (الكتاب العاشر : المنحدر الزلق)

في منتصف الرواية هنالك فترة فاصلة . تركت آنا زوجها وابنها الصغير سيريوزا -تركت واجبها- وبدأت بجولة عبر أوروبا مع عشيقها ، الكونت ألكسي ڤرونسكي . يخبرنا تولستوي أنهما عبرا البندقية ، روما ، نابولي ، ووصلا الآن لقرية إيطالية صغيرة حيث قررا أن يقضيا بعض الوقت . منفاهما الذاتي من مجتمع سانت بيتيرزبرغ ، يجعل العلاقة عرضة للتوتر . ڤرونسكي ، ضابط في الجيش ، يبدأ شعوره بالقلق يتصاعد . يبدأ بالرسم لبعض الوقت . ثم يتعرف الاثنان على فنان روسي معروف ، ميخايلوف ، والذي يفوضه ڤرونسكي لرسم بورتريه لآنا . ولا يستطيع ڤرونسكي فهم السبب الذي يمكن ميخايلوف من القبض على جوهر آنا في اللوحة ، «ذلك التعبير الروحي الجميل» ، أفضل بكثير من كل محاولاته . ولا يستطيع ڤرونسكي ولا آنا معرفة لماذا لا يسعى ميخايلوف للتعرف عليهما كما يسعيان هما للتعرف عليه : «سلوك ميخايلوف المتحفظ ، والعدائي عندما جاء ڤرونسكي وآنا للتعرف عليه بشكل أفضل أثار استياءهما ، وكانا يشعران بالسعادة حين

تنتهي جلساتهم ، البورتريه الجميل كان نهاية زياراتهم .»[1]

ميخايلوف هو النسخة الأبعد والأكثر إنتاجية من إغناطيوس جاي . ريلي . نتعرف على ميخايلوف في مرسمه ، وهو يعمل على «لوحته الكبيرة» ، قطعة كانفس عملاقة من «عتاب بيلاطس – إنجيل متّى ، الفصل ٢٧» . للتو انتهى من جدال مع زوجته لأنها فشلت في تهدئة السيدة صاحبة المنزل التي جاءت تطالب بالمال . «لم يسبق له أن عمل بهذه الحماسة ، أو بهذا النجاح ، إلا والأمور في حال سيئة ، وخاصة بعد شجار مع زوجته . «أوه! فقط لو أستطيع الهرب لمكان آخر!» كان يفكر بينما كان يعمل .» قد لا

---

(١) هذه المقاطع مأخوذة من الترجمة الإنجليزية لرواية تولستوي والتي عمل عليها لويس وآيلمر ماودي ، والتي قام تولستوي بنفسه بتزكيتها قائلًا : ترجمة أفضل من هذه . لا يمكن الحصول عليها . لا أستطيع تزكية هذه الترجمة لأنني لست على معرفة بالروسية ، ولكني أشهد لها بأنها ترجمة سلسلة وممتعة القراءة . وفي السنوات الأخيرة قام ريتشارد پيفر وزوجته لاريسا ?ولوكونسكي بترجمة آنا كارنينا من جديد وحسب حديث پيفر لمجلة ذا نيويوركر فإن تولستوي ليس صديقًا للقارئ ، وإن أسلوبه في الكتابة هو أقل عناصر كتبه إثارة للاهتمام . ولذلك ربما السلاسة التي لاحظتها في رواية آنا كارنينا كانت نابعة من الترجمة وليس من تولستوي ذاته . ولكن لحظة! پيفر لم يتقن الروسية المحكيّة تمامًا كما ذكرت مجلة ذا نيويوركر ، وكانت زوجته هي من تتقنها . أخبرتكم أنه ممر مليء بالمرايا . وبالتأكيد ، فإنه لا يوجد بديل يمكن أن يغنيك عن قراءة تولستوي بالروسية ؛ ولكن إن لم نقبل بالبديل فإننا لن نتمكن من قراءة تولستوي على الإطلاق .

تنتهي هذه اللوحة أبدًا ، ميخايلوف يمحو ، يعيد الرسم ، يطارد الإلهام كيفما وأينما يأتي إليه . موضع شحم ضال يملؤه بالبهجة لأنه يقترح وضعية جديدة : «يتذكر الوضعية المليئة بالطاقة والذقن البارز من بائع كان يشتري منه السيجار .» في هذا المشهد ، آنا وڤرونسكي كانا سيئين ، ومتطفلين . كان ميخايلوف يريد رأيهما ؛ وبعد أن عرفه ، لم يكن يستطع الانتظار للتخلص منهما ، خاصةً طريقة ڤرونسكي المشتتة في الحديث عن الفن كالهواة ، والتي كانت تؤلم ميخايلوف بشكل مخيف : «لا أحد يستطيع منع شخص من صنع دمية شمعية عملاقة وتقبيلها . ولكن إن جاء بها ووضعها أمام محبوبه وبدأ يهتم بها كما يهتم بمحبوبه ، فإن هذا سيزعج المحبوب . كان هذا تمامًا نوع الانزعاج الذي يشعر به ميخايلوف عندما يرى صور ڤرونسكي : كان متفاجئًا ، متكدرًا ، أسفًا ، ومجروحًا .»

بعد الانتهاء من البورتريه بفترة قصيرة ، عاد ڤرونسكي وآنا إلى سانت بيتيرزبرغ ، ولم يلتقيا بميخايلوف مرة أخرى . ولكن في أربعة فصول قصيرة ، يلخص تولستوي التبادلات اللامنتهية بين القيم الأبدية للفن وبين العالم المشوش للفنان . بالإضافة إلى أنه يجعلك تضحك . انتهيت من فترة ميخايلوف الفاصلة عندما أخذت ألكس إلى المعرض الوطني ليرى لوحة سورا . بالكاد هربت صورة سورا من أغلال حياته ، ولكنها مازالت تحمل بصمة شخصيته . بالرغم من أن تقنيته في الرسم بواسطة آلاف من النقاط الصغيرة تم تسميتها - divisionism أو pointillism - إلا أنها بقيت كمنتج لرؤية فردية . وكما كان ميخايلوف يستمع على مضض إلى آنا وڤرونسكي ، فإن سمعة الفنان بعد وفاته كانت ماتزال معرضة لمد وجزر الرأي العام

واستعداد المعارض والمؤسسات لتبني فكرة أعماله ، وبالتالي فإن سمعة هذه المؤسسات تتأثر أيضًا بهذه التغييرات . اللوحة انتهت قبل سنوات ، ولكن الآجار لم يدفع بعد .

والتذمر ذاته نجده في قلب المسرحية الغنائية Sunday in the Park with George (والتي تعتبر نسخة أكثر تعقيدًا بقليل من فرقة Jersey Boys) . وبينما يعمل سورا على لوحته «ظهيرة يوم أحد على جزيرة لا كغاند جات» ، رأينا أولًا التضحيات التي تقدم لأجل إكمالها ، ثم في الجزء الثاني ، المفاصلات الخادعة حول الشهرة والتي تستمر حتى يومنا هذا – تجارة الفن . من مقعدي البعيد ، على مسافة خمس دقائق من اللوحة ، راقبت كيف انبعثت اللوحة والتضحية بشكل معجز إلى الحياة .

سوندهايم والكاتب المسرحي جيمس لاپين قاما ببناء العرض حول كتابات سورا المتعلقة بنظريات اللون ، الضوء ، التصميم ، التوتر ، التركيب ، التوازن ، الإيقاع في مدرسته إن صح التعبير – pointillist– ثم قاما بتطبيقها أولًا لتخيل حيوات الشخصيات في اللوحة ، ثم سورا وعلى عشيقته دوت (شخصية قاما باختلاقها) ، ثم مشهد الفن الحديث ، ثم مجهودات حفيد سورا جورج في البحث عن الإلهام والمال كي يتمكن من إنتاج أعماله الفنية . وأغلب هذا يتم غناؤه بطريقة تجعل المقاطع تقترح نقاط الألوان من فرشاة سورا . الأغنية تقفز بين العالم الحقيقي واللوحة ، والشخصيات تذهب وتأتي بينهما . وعند نقطة ما ، يهب سورا صوتًا للكلب في الحديقة ، للنهوض أو السقوط من خشبة المسرح حسب أوامره . «إنهاء القبعة» ، «لون وضوء» ، «امضي قدمًا» ، «ضع الأشياء معًا» : كان من المفترض على الاستعارة أن تتحول تحت

الشـرط ولكنهـا لا تتـحـول أبدًا . هذا الامـتـناع -الفن لـيس سـهلًا- يكـرره جـورج بينمـا يتـحـدث بطريقـة دافـئـة أمـام عـدد من الرعـاة المحتملين لمعرضه المستقبلي . لم يسبق لـي أن تأثرت بهذه الطريقة في أي مـسـرحـيـة حـضـرتهـا في حـيـاتـي . في الجـزء الثـانـي من المسرحية كنت أشعر بشيء ضخم يحاول أن يخرج من صدري .

في المشـهـد الثاني ، تظهر ابنة سورا وهي فـي التـسـعـينات من عـمـرها ، وتسـتـخـدم كـرسيًا متـحـركًا ، لتردد أحب مـا كـانت أمـهـا تقوله : «أتعلمين ، هنالك شيئان فقط يستحقان أن نتركهما خلفنا حين نغادر هذا العالم - الأطفال ، والفن .» ثم تغني بطريقة حزينة ورقـيـقـة عن لوحـة أبيـهـا «ظهـيـرة يوم أحـد على جـزيرة لا كـغـانـد جات» ، وكأنها شجرة عائلتها . الفن العظيم هو شجرة عائلتنا ، تمامًا كـمـا أن الأطفـال لمحـة تشيـر إلى المسـتـقـبل وإلى الماضي . اسـتـطاع تولستوي أن يدرك هذه العناصر الأساسية المكونة للحياة ، الأطفال والفن بوصفهما حواجز أمام التنوير ، ولكنه مخطئ بالتأكيد؟ عندما نعثر على لوحة أو رواية أو مسرحية غنائية نحبها ، فإننا نتصل مؤقتًا وبشـكل سـريع بأفـضـل مـا يمكن للجنس البـشـري أن يخلقـه ، في ذواتنا وفي ذوات الآخرين ، وهذا يذكـرنا بأن مـاضـينا عـبـر العـالم سيتقاطع حتمًا مع ماضي غيرنا . أحببنا ذلك أم لا ، فإننـا لسنا وحيدين هنا . أدرك تولستوي هذا في «آنا كارنينا» ولكن بعد تحوله الكبـيـر ، قضى وقتًا طويلًا وهو يحاول إنكار هذا الإدراك أو تأجيله إلى مـا بعـد الحـيـاة . العـائلات والفن ، اللوحات والحـشـود ، الكتب والإيقاع . إنه من واجبنا وامـتـيـازنا الذي حصلنا عليه ، أن نحـاول حل هذه الأشـيـاء هنا والآن ، بمسـاعـدة أغنيـة أو كـتـاب جيـد . لأن هذه الأشياء لن تنتظر طويلًا .

عندما وصلنا إلى المنزل ، نظرت إلى ألكس ووجدته نائمًا . كنت ابن شخصٍ ما ، ووالد شخصٍ ما . لم يكن هذا عزاءً كفايًا لتولستوي ، ولكنني لست تولستوي .

بإمكاني أن أصبح أفضل .

الكتب اثنا عشر وثلاثة عشر

عن عبودية الإنسان - دبليو . سومرست موم
كبرياء وتحامل - جين أوستن

«(يا له من تصرف سيء ذلك الذي قمت به!) كانت تبكي .(أنا التي تفاخرت بفطنتي! - أنا التي تفاخرت بقدراتي! أنا التي غالبًا ما ازدرأت صراحة أختي ، وامتننت لغروري ، في عدم ثقة لا تجدي نفعًا! - كم هو مذل هذا الاكتشاف! - ورغم هذا كيف له أن يكون مجرد ذل!)»

كبرياء وتحامل

«(هذا كل الأدب ،) قالت بازدراء . (عليك أن تبتعد عنه .)»
عن عبودية الإنسان

كانت سنة جديدة ولكن النهاية كانت قريبة . لم يتبق أمامي سوى كتابان وأنتهي من القائمة ، بإمكاني بعدها أن أعود إلى عملي حيث جداول تطبيق إكسل ، والمسودات نصف المكتملة ، والمجلات . باستثناء فكرة واحدة ، هي أنني لم أستطع العودة .

القراءة ليس فعلًا يستطيع المرء القيام به خلال الحركة . ولكن عند وصولي إلى نهاية القائمة ، وجدت أنه من الصعب علي تقبل حقيقة أنني لم أفعل شيئًا سوى التحديق إلى الكلمات في

الصفحة . يجب أن أفعل المزيد . الأشهر القليلة الماضية جعلتني أسأل بعض الأسئلة الجادة حول الفن ، العمل ، العائلة ، الحرية ، النزاهة ، ووجبات الغداء الصغيرة . والآن أصبحت مسؤولًا عن الإجابة عن هذه الأسئلة . كيف سأتمكن من المضي بعد كل هذا؟ وماذا سأفعل حين أقرأ كل ما في القائمة؟

علي أن أترك هذه القرارات اللحظية قليلًا ، حتى أتمكن من مصارعة هذه المشكلة الجديدة : «عن عبودية الإنسان» . بشكل سطحي ، كان من المفترض أن تكون هذه مهمة سهلة . برغم أن الرواية تتكون من ٧٠٠ صفحة ، إلا أن سومرست موم كان يكتب بأسلوب رشيق وواضح ، والرواية تسرد تسلسلًا بسيطًا للأحداث بمشاهد جذابة : امتداد ساحل كنت حيث عشنا ، محيط باريس حيث عشان سورا ورفاقه بعد المدرسة الانطباعية ، ولندن وحاناتها ، الفقر وباصات النقل العام .

وفي اليوم الثاني ، بحثت عن النصيحة لدى الشخص الذي استعرت منه الكتاب . اسمها كان مكتوبًا بالأزرق على صفحة العنوان ؛ برغم أن نسختها من «عن عبودية الإنسان» قد قُرأت ، إلا أنها كانت سليمة دون أية أضرار . يبدو أن المالك قد اعتنى بمكتبها الشخصية جيدًا .

«تينا» ناديت ، «لم أتمكن من فهم أي شيء هنا . ماذا عنك؟»

«لا أستطيع تذكر الكثير . أهي الرواية التي بها رجل مصاب بحنف القدم؟»

في اليوم الرابع ، وصلت إلى صفحة رقم ٢٠٠ بالضبط دون زيادة أو نقصان – سألت تينا مرة أخرى . «متى سيحدث شيء مهم في القصة؟»

«لا أعلم ،» أجابتني تينا . «لقد مر زمن طويل منذ أن قرأتها . أعجبتني في ذلك الحين . أهي الرواية التي بطلتها نادلة مطعم؟»

«ليس بعد ،» قلت بتردد . لم تكن دلالة جيدة للـ٥٠٠ صفحة القادمة أن أهم ما تتذكره تينا بشأن هذه الرواية هو حنف القدم ، الذي ذكر في الصفحة الثانية ، ونادلة في مطعم .

في اليوم السادس ، تظهر النادلة . كان اسمها ميلدرد ، وكانت مصابة بمرض فقر الدم . فيليب كيري كان مهووسًا بها ، بطريقة لم تكن فريدة أو مثيرة للاهتمام ، بل عادية جدًا . واستمرت القصة . بدت لي وكأنها نسخة مصابة بفقر دم من رواية «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» ، وأعلم تمامًا أن هذا ليس وصفًا عادلًا لأن رواية موم نشرت قبل رواية پاتريك هاميلتون بخمس عشرة سنة . ولكن برغم هذا ، أعتقد أن موم يظن بأنه قاض ذكي بإمكانه الحكم على شخصية الإنسان .[1] لقد ترأس الروايةً كحاكم . لم يقم أحد في الرواية بعمل شيء مفاجئ أو بقول شيء مفاجئ حتى .

لقد كانت رواية ميتة .

بعد أسبوع من «عن عبودية الإنسان» ، شعرت بأنني واثق بما يكفي لإطلاق حكمي على الرواية وإخبار زوجتي به .

«هذا الكتاب مليء بالهراء .» قلت لها .

«نعم ، لم أتوقع أن تعجب به ،» أجابتني . «ولكن كتابه الآخر «حد الموس» جيد .»

---

(١) في مقالته عن پاتريك هاميلتون ، يصف دان رودس جرس منتصف الليل بأنها مجرد نسخة مختصرة من عن عبودية الإنسان .

كان هذا ما احتجت سماعه كي أفقد الأمل وأتوقف عن قراءة هذا الكتاب .

التنازل عن قراءة كتاب ، كان مخالفًا لشروط «قائمة الإصلاح» ، ولكنه كان شعورًا رائعًا . لم تكن مشكلتي مع «عن عبودية الإنسان» أنها كانت صعبة القراءة ، أو غريبة ، أو تافهة . مشكلتي معها كانت أنها مملة بشكل لا يطاق .

كيف بإمكاننا التعامل مع كتب لا نحبها؟ كانت هذه أول مرة أواجه فيها هذا السؤال خلال قراءتي لكتب «قائمة الإصلاح» ، ولم أكن أتوقع أن أتعثر بهذه المشكلة . كنت أفترض أن كل الكلاسيكيات التي اخترتها ستكون مثيرة وستقودني من تلقاء نفسها لقراءتها . وهذا ما أثبتته كل الكتب في «قائمة الإصلاح» حتى الآن . «عن عبودية الإنسان» ، بكل سمعتها ، وكل عناصرها الإيجابية - الجمل الرشيقة ، الواضحة ، الشوارع والمدن المألوفة ، السخافة الساحرة ، كل هذا لم يكن كافيًا لجعلي أعجب بها . كان من الممكن أن أكمل قراءتها ، ولكني علمت أن هذا لا يستحق العناء . في منتصف الطريق ، شعرت أنني أستطيع الحكم عليها . ولذلك توقفت .

برغم أنني لم أتوقع هذه المشكلة ، إلا أنني كنت أعرف كيفية التعامل معها . لسنوات طويلة ، تعودت على رفض الكتب التي لا تعجبني والتوقف عن قراءتها . وكان هذا قرارًا متعلقًا بعملي كمحرر وبائع للكتب . ومع الوقت أصبحت الكتب التي تردني كثيرة جدًا ، وكان علي أن أطلق أحكامًا أسرع . الحياة قصيرة ، والوقت ثمين ، لماذا نضيعه في فعل أشياء لا نستمتع بها . هل نحن بحاجة لقراءة كتاب حتى نهايته حتى نتمكن إبداء رأينا فيه؟ بالطبع لا .

بإمكانك حتى أن تصف شعورك تجاه كتاب دون أن تقرأه ، تمامًا كالمسابح العامة ، لا يتوجب عليك أن تغوص إلى أعمق نقطة فيها قبل أن تتمكن من اتخاذ قرارك بشأن الغوص فيها . هذا أمر خاص بينك وبين ضميرك .

أيًا يكن ، اللحظة التي تتخلى فيها عن الكتب ، هي اللحظة التي تخسر فيها مهارة إنهائها - الصعوبات التي واجهتها في البداية مع «المعلم ومارغريتا» و«مدل مارش» تثبت ذلك . بالإضافة إلى أن رأيك سيصبح أقل أهمية مقارنة مع رأي شخص آخر تكبد عناء قراءة الكتاب كاملًا ، لأنه يتحدث عن معرفة ، وأنت تتحدث عن جهل .[1] وشيئًا فشيئًا قد تتلاشى نزاهتك إلى درجة تؤمن فيها بعدم وجود فرق بين ادعائك قراءة كتاب وبين قراءته فعلًا ، لأن كل هذا مجرد هراء .

لفترة معينة في منتصف ثلاثينات القرن الماضي ، عمل جورج أورويل في متجر للكتب . وأصابه الملل سريعًا . «السبب الذي منعني من البقاء في سوق الكتب طوال حياتي ، هو أنني بينما كنت أعمل فيه ، فقدت حبي للكتب ،» ثم كتب لاحقًا : «على بائع الكتب أن يكذب عندما يتحدث عن الكتاب الذي يريد بيعه ، وهذا قد يتسبب في نفوره منه ؛ والأسوأ من هذا أنه ينفض عنها الغبار باستمرار وينقلها من مكان إلى آخر .» ثم يقول : «إن أكثر ما فاجأني هو قلة القرّاء الجيدين . كان متجرنا يحوي العديد

(١) ليست جميع الآراء متساوية . هنالك بعض الآراء ثقيلة الوزن ، المدعومة بالمنطق والعقل ، والقدرة على سرد الحجج والأسباب . دوغلاس آدمز ، في إحدى مقابلاته .

من الكتب الجيدة ، ولكنني أشك في أن غالبية زبائننا لا يستطيعون التمييز بين الكتاب الجيد والكتاب السيء .»

لا أعلم مدى دقة هذا الوصف اليوم ، ولكنه صحيح قبل عشرين سنة ، عندما بدأت بالكذب كي أبيع الكتب . غالبًا عندما يأتيني زبون ليسألني «هل قرأت هذا الكتاب؟» كانت أسوأ إجابة يمكن أن أتفوه بها هي أن أخبره بالحقيقة . كان من الألطف والأنبل أن تجيب على كل أنواع الأسئلة بنعم . نادرًا ما يبحث الزبون عن الرأي الحقيقي لمساعد بائع كتب على أية حال . في تلك اللحظة من الشراء ، يبحث الزبائن عن رأي آخر يساند رأيهم ويؤكد على جودة اختيارهم دون الاكتراث لرأيه .

وماذا لو كنت قد قرأت الكتاب الذي سأل عنه الزبون؟ إن كنت تعتقد أنه كتاب فارغ وأخبرت الزبون بذلك ، فإنك لا ترضي أحدًا . «هل قرأت هذا الكتاب؟» سألتني امرأة في منتصف العمر ، وهي تحمل في يدها نسخة من «المريض الإنجليزي» . «هل هو كتاب جيد؟» «نعم .» أجبت . «إنه سيء .» (كنت قد قرأت جزءاً منه وأعتقد أنه سيء .) «أوه .» قالت لي ، وبدت عليها علامات الدهشة . في تلك اللحظة تدخلت زبونة أخرى ، امرأة شابة في الثلاثينات من عمرها . «أوه ، لا .» قالت وهي تتحدث بجدية . «إنه كتاب جميل .» ثم التفتت إلي ودار بيننا نقاش محتد عن رواية «المريض الإنجليزي» . وبينما كنا نتجادل ، أعادت السيدة الأكبر سنًا الكتاب إلى الرف وغادرت المتجر . لحظة البيع قد تبخّرت . وأيضًا إن كنت قد قرأت الكتاب وأحببته ، وبالغت في مدحه ، قد يتسبب ذلك في مغادرة الزبون أيضًا .

من الأفضل دائمًا أن تخفي رأيك الحقيقي . أليس من

الأسهل لك أن تتصرف بالطريقة ذاتها عند كل نسخة تأتيك من رواية «ماندولين الكابتن كوريلي» أو «التاريخ السري» . نعم ، إنه كتاب ممتاز ، أحسنت باختيارك لهذا الكتاب ، فريد جدًا .[1] عندما عملت في متجر الكتب ، بدا وكأننا لا نبيع سوى ذات الكتب «ماندولين الكابتن كوريلي» و «التاريخ السري» . أنا شخصيًا قمت باقتراح هذه العناوين على الزبائن مئات المرات ، برغم أنني لم أقرأ إلا أحدها ، ولم أفكر كثيرًا بعد قرأته . ولكن هذه كانت الكتب التي أرادها الناس ، حتى في حين عدم معرفتهم أنهم يريدونها . «أنا أبحث عن رواية جديدة ، لا أستطيع تذكر اسمها ، سمعت شيئًا عنها على القناة الرابعة في الراديو .» «هل كانت «ماندولين الكابتن كوريلي»؟» «نعم! إنها هي! كيف عرفتها؟» الإجابة الحقيقية على هذا السؤال : «لأنك كما هو واضح من المجتمع الاستهلاكي ذاته الذي يشتري هذا النوع من الكتب .» أو «يبدو أنك من النوع الذي يقرأ هذه الكتب .»

الكتب مختلفة . لا يمكن لأحد أن يذهب إلى محل خضروات أو إلى سوبر ماركت دون مناسبة ، ليعلن أنه يبحث عن شيء ليأكله ؛ أو يذهب إلى محل معدات ليسأل الكاشير عن أي نوع من المسامير ينصح به . («حسنًا ، ما هو نوع المسامير الذي تفضله عادةً؟») إنها خصوصية متعلقة بمتاجر الكتب ، وعلاقتنا بالكتب ، حيث أنه عندما نذهب لرؤيتها على الرفوف ، أو حتى عندما نتصفح أغلفتها على الإنترنت ، نشعر بأننا جزء من محادثة مستمرة . ولهذا السبب تحديدًا ، يصعب علينا أن نقبل جلوس

---

(١) أنصح بقراءة كتاب پيير بايارد كيف تتحدث عن كتب لم تقرأها .

الأشخاص الذين يعتبرهم أورويل مهووسين بالكتب خلف طاولة الحساب.[1]

ومع مرور الوقت، اكتشفت أن ما يريده الزبون من بائع الكتب، ليس أن يكون مغرمًا بها، بل مغرمًا ببيعها - وهذا مطلب معقول. ولكن إن كنت تحب الكتب أكثر من حبك لبيعها، فإن هذا سيظهر وسيؤثر على عملك في المتجر. لنفترض أنك تقدّر روايات تولستوي وتفضلها على غيرها. تخيّل أنك تعمل في المتجر، ستتمكن من الحصول على فرصة مشاركة حبك لتولستوي مع جميع زوار المتجر. كم سيكون حجم خيبة أملك حين تكتشف أن أغلب القرّاء مهتمون بقراءة روايات كتّاب آخرين أمثال آلان تتشمارش. وسيكون حماسك تجاه تولستوي بالنسبة لهم أشبه بالمزايدة أو ربما الغرور من قبلك. وهكذا تتعلم أن تتحكم في مشاعرك أمام الزبائن. ولكن انتظر - لا يتوجب عليك فقط إنكار مشاعرك الحقيقية تجاه تولستوي، بل يطالبك الزبائن أن تكون سعيدًا في كل مرة تبيع لهم نسخة من روايات تتشمارش. فتفعل ذلك لأنه جزء من عملك. ولكنه جزء مرهق. ثم تبدأ بالكذب في حديثك عن الكتب كي تحمي حبك لها - لأنك لا تملك خيارًا

---

(١) لقد عملت برفقة زميلة لي في متجر الكتب لم تكن تعرف أي شيء عن الأدب. طلبت مني ذات مرة أن أنصحها بقراءة كتاب لغراهام غرين، قلت لها لماذا لا تقرأين نهاية العلاقة ؟ ردت علي : فقط النهاية؟ لماذا لا أقرأ عن العلاقة بأكملها؟ ولكنها كانت إيجابية وتحسن الكلام وكان العديد من الزبائن يسألون عنها، وحزنوا كثيرًا عندما تركت متجر الكتب لتعمل في مشروعها الخاص. بالمناسبة إنها مليونيرة الآن.

آخر . انتبه أورويل لهذه النقطة ، وترك مهنة بيع الكتب بعد سنة تقريبًا . لكنني لم أكن منتبهًا مثله .

وعندما أصبحتُ محررًا للكتب بعد عدة سنوات ، عرفت فائدة الأكاذيب الحكيمة . أغلب الناشرين يستقبلون كتبهم من وكلاء الكتّاب ، إما على شكل مسودات كاملة أو عينات لبعض الفصول . وفي أغلب الحالات ، يرفض المحرر المسودة . ثم تأتي مهمة التواصل مع الوكيل بالهاتف أو بالبريد لإخباره بالنتيجة . أيًا يكن ، عند رفض هذه المسودات ، من المهم أن يختلق المحرر عددًا من الأعذار : لم يكن هذا العمل مناسبًا لقائمتنا الحالية ، لا أستطيع أن أرى مكانًا لهذا الكتاب في السوق ، وهكذا . من النادر جدًا أن تجد محررًا يملك الجرأة على القول بأنه لم يُعجب بالكتاب . ويرجع السبب وراء هذا للخوف من الوقوع في تعامل غير احترافي ، أو تحمل اللوم في المستقبل عندما يتحول هذا الكتاب إلى أحد أكثر الكتب مبيعًا . أو عندما يفوز الكتاب بجائزة ما . لا أحد يريد أن يكون وقحًا ؛ وفي الوقت نفسه ، هذا الوكيل قد يأتي بعمل آخر أكثر روعة في الأسبوع القادم ، ولا داعي لإفساد العلاقة معه . بالنسبة للمحرر ، الكذبة البيضاء مهمة جدًا كأهمية الحبر الأزرق .

عندما كنت محررًا مبتدئًا ، تم عرض الرواية الأولى لصحفي مشهور على زميلة لي ، وكنا نطلق على الصحفي اسم جي . كان جي تحت سن الثلاثين ؛ كان وكيله معروفًا في الوسط الأدبي ؛ وكانت الرواية سيئة للغاية . ولكن لأن زميلتي كانت صديقة لجي ، ولأنها كانت تخشى أن تقلل من شأن الوكيل في حال رفضها للرواية ، وتغامر بتوتر العلاقة بينها وبين جي الذي يستطيع أن يكتب العديد من المراجعات السيئة عن كتبها المستقبلية ، فقد

قررت أن تعرض الرواية على محرر أصغر ، وكنت أنا هذا المحرر . كنت سعيدًا جدًا بهذه الفرصة . وكتبت رسالة إلى زميلتي أشرح له فيها مواقع السوء الكثيرة في الرواية . ثم أجابتني ، «أظن أن عليك إخبارهم بأننا لن ننشر هذه الرواية ، لقد أخبرتهم مسبقًا بأنني أرسلتها لك .» فقمت بنسخ ولصق ما أرسلته إليها ، ووجهته إلى الوكيل . ليرد علي الوكيل بهذه الجملة القصيرة : «شكرًا على صراحتك .» ولم يتواصل معي أو يرسل لي بأي كتاب بعد تلك الحادثة . ثم سمعنا أن الرواية نشرت لدى دار نشر أخرى ، واشتهرت بشكل متواضع ، لتُكتب عنها بعض المراجعات الإيجابية في كل الصحف والمجلات التي عمل جي فيها . لقد كان هذا درسًا مبكرًا لي في الواقعية السياسية في عالم الأدب .

وهكذا بعد سنوات طويلة ، عندما أخبرت زوجتي أن رواية «عن عبودية الإنسان» مليئة بالهراء ، كانت تلك هي الحقيقة كما أراها ؛ وعندما قررت التوقف عن قراءتها ، كان ذلك فعلًا حرًا . لكن لماذا أشعر بالذنب الآن؟

أتذكر في بداية علاقتي بتينا كنا نفعل ما يفعله العشاق المحبون للكتب ، كانت تينا تقرأ كتبي المفضلة ، تحديدًا كتاب «مبتدئون جدًا» ، من الغلاف للغلاف . ولم أكن أقرأ سوى أول ثلاثة فصول من كتبها . ثم في استفتاء لمجلة The Bookseller ، عبرت عن رأيي المتسرع في رواية جين أوستن «كبرياء وتحامل» ، وقلت : «إنها حقيقة كونية معروفة ، أنه إن أفصح كل مَن في هذه الرواية بما يفكر فيه فعلًا فإن الرواية ستنتهي حالًا . لم تُعجبني هذه الرواية .» عندما أنظر إلى الوراء وأتذكر هذا ، لا أستطيع تصديق أن تينا تزوجتني ، ليس لأنني كرهت رواية جين أوستن ، أو لأنني

كنت أسخر منها ، ولكن لأنني لم أتكبد عناء قراءة الرواية كاملة حتى كمجاملة لها أو لجين أوستن .

عدت إلى رواية «كبرياء وتحامل» بعد قطيعة دامت خمس عشرة سنة ، شعرت بجاذبية غريبة لقراءتها . بدايةً ، لم تكن ضخمة كرواية «عن عبودية الإنسان» ولا تقارن أبدًا بالكتب الثقيلة التي قرأتها مؤخرًا من ناحية الحجم . لم تكن هذه قفزة في الظلام ؛ كل ما كان علي فعله هو أن أضع قدمًا أمام الأخرى لعدة أيام قادمة . بالإضافة إلى أن خمس عشرة سنة مدة طويلة جدًا . لقد أصبحت أكبر ، وأكثر حكمة . قد أنهيت للتو «موبي-ديك» و«البحر ، البحر» . لقد تعلمت الدرس .

من الغريب جدًا أن أكتشف بعد عدد قليل من الصفحات أن ردة فعلي تجاه «كبرياء وتحامل» هي ذاتها التي شعرت بها عندما كنت شابًا : السخط ونفاد الصبر . بدا الأمر وكأنني وضعت الكتاب جانبًا وخرجت من الغرفة لخمس عشرة سنة ثم عدت من جديد . يا إلهي ، لقد كان مزعجًا . لقد توقعت أن أعود إلى جين أوستن بحساسية جديدة ، وفهم مختلف . ولكن للأسف لم يتغير شيء ؛ بدت ردة فعلي وكأنني مصاب بالحساسية تجاه جين أوستن . إن كنت لا تحب المعكرونة بالجبن ، فإن هذا يعني أنك لا تحب المعكرونة بالجبن . إن كان تناول زبدة الفول السوداني يجعلك تشعر بالسوء ، فإن تناول المزيد من زبدة الفول السوداني سيجعلك تشعر بالمزيد من السوء . للأسف ، كان أثر جين أوستن علي كأثر المعكرونة بالجبن بالإضافة إلى زبدة الفول السوداني ، ولم يكن أي قدر من الإغراء أو الكلام سيغير من هذه الحقيقة المرة ، مهما كانت الوصفة لذيذة أو صحية أو عضوية .

لا يمكنك أن تُعجب بكل شيء . كانت هذه كلمات الناقد الحكيم دومينيك ماكس ويل . ومهما كانت قراءاتك شاملة ، وكنت متعلمًا ومنفتحًا ، ستواجهك كتب لن تستطيع تحملها ، وهذا طبيعي . لأنه بدون هذه الكتب ، لن تستطيع أن تميز ذوقك . كان هذا يعني أنني لن أتصالح مع جين أوستن أبدًا - بإمكاني تقبل الأمر . جين أوستن ليست بحاجة لقارئ إضافي مثلي على أية حال . ثم فكرت ، لماذا يتوجب علي إنهاء هذه الرواية؟ قد علمت مسبقًا ما سيحدث في نهايتها ، وعلمت رأيي فيها ، وما قلته عنها في تلك المجلة سيبقى دون تغيير . ما الفرق الحقيقي بين قولي أنني قرأت «كبرياء وتحامل» ، وبين قراءتها فعلًا؟ ربما سيكون من الأكثر نزاهة ألا أنهيها ؛ ربما كانت هنالك لفتة نبيلة في الوصول إلى خط النهاية دون قطعه ، مثل توم كورتناي في «عزلة عداء المسافات الطويلة» .[(١)]

ولكنني أكملت السباق وهذا هو السبب . تعثرت . حملتني قوة دفع إلى الأمام . كان الخوف من الفقر هو المحرك الأول لرواية «كبرياء وتحامل» ، لأنه وبالنسبة إلى الملايين الذين كانت جين أوستن تكتب لهم ، كان الخوف من الفقر هو المحرك الأول لحياتهم الخطرة . كانت هذه حقيقة كونية معروفة ، وتؤكد عليها الكتب التي قرأتها في الأسابيع والأشهر الماضية ، «مدل مارش» ، «البيان

---

(١) أعلم أن اسم الشخصية سميث وليس توم كورتناي . أنا أشير إلى الفيلم الذي أُخرج سنة ١٩٦٢ وليس إلى الرواية الأصلية التي كتبها آلان سيليتوي . لأنني شاهدت الفيلم ولم أقرأ الرواية .

الشيوعي» ، حتى «آنا كارنينا» . وبالاتجاه للقرن العشرين ، كان الخوف من الفقر عاملًا مهمًا في رواية «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» ، وفي رواية «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» ، وحتى «عن عبودية الإنسان» : خراب وانحطاط الفقر .

في عالم كهذا ، تأتي أهمية الكتب . كانت الكتب عناصر قيمة وفريدة ، وسيلة للتعليم ، أو العزاء ، أو الهرب . في «كبرياء وتحامل» تظهر أوستن معنى الكتب للشخصيات المختلفة في الرواية . إليزابيث ، كما قد نتوقع ، تحب القراءة كما تحب التنزه عبر الحقول . أما والدها ، السيد بينيت ، نادرًا ما يخرج من مكتبته ، يختبئ فيها ليهرب من زوجته ، والتي يبدو أنها لم تقرأ كتابًا في حياتها . الكاهن المتلمق كولينز لا يقرأ الروايات أبدًا ، ويفضل مجلدات المواعظ . جارهم الغني الذي انتقل مؤخرًا إلى المنزل السيد بينغلي لديه بعض الكتب («أنا رجل كسول ، برغم أنني لا أملك الكثير من الكتب ، إلى أنني أملك منها أكثر بكثير مما قد قرأت في حياتي») وأخته كارولين التي تقرأ فقط لأن السيد دارسي يقرأ . لقد كان دارسي الشخصية التي تقدمها أوستن لتكون محبة للقراءة . يُكنُّ احترامًا كبيرًا للكتب ؛ ويعتبر اقتناءها نعمة عظيمة . دارسي يشتري الكثير من الكتب ويضيفها إلى مكتبته في بيمبرلي ، والذي يصفها بأنها عمل العديد من الأجيال ويقول : «لا أستطيع فهم إهمال العائلات الاعتناء بمكتباتهم في المنازل هذه الأيام .» وعندما نرى السيد دارسي وهو يقرأ ، فإنه يقوم بالقراءة بشكل صحيح تمامًا ، ولا يسمح لنفسه بأن يفقد تركيزه بسبب بينيت أو بينغلي . ولا يكذب بشأن الكتب . وتدع أوستن لنا مجالًا ضيقًا جدًا للتشكيك في السيد دارسي ، لأنه كما يبدو يحمل معنى

ونزاهة في القراءة وفي كل شيء يقوم به ؛ وينهي السيد دارسي كل شيء يبدأ به .

كنت مازلت أفكر في كل هذا ، ودون قصد مني وصلت إلى نهاية «كبرياء وتحامل» ، ووصلت إلى نهاية «قائمة الإصلاح» . ونجحت في إلهاء نفسي حتى وصلت إلى نهايتهما معًا .

لقد قرأت ثلاثة عشر كتابًا - حسنًا ، اثنا عشر كتابًا ونصف . لقد كان الأمر أشبه بإجازة . والآن أستطيع الإجابة بثقة على السؤال المعتاد : «هل قرأت هذا الكتاب؟ هل هو جيد؟» ، «نعم» - لأنها كانت الحقيقة . وقد أعدت اكتشاف أو اكتشفت للمرة الأولى متعة مشاركة حماسي لقراءة رواية ما ، وليس هذا جزءاً من محاولة انتماء لمجموعة من الأفراد المدعين الذين يتحدثون عن آرائهم في الأدب المعاصر . خطرَ لي أنني محظوظ جدًا لأنني كبرت في بلد مزدهر ، وفي زمن يمكن فيه قراءة أي شيء ، وهذا يحدث لأول مرة في التاريخ . وماذا فعلت بهذه الحرية؟ لقد أهدرتها بطريقة بطيئة دون قصد مني . أصبحت حياتي مع القراءة محكومة بمجموعة من العادات السيئة ، محاولات للتخلي عن الكتب ، والكذب بشأنها . لقد اشتريت كتبًا لم أقرأها . وبدأت بقراءة كتب لم أكملها . وعبرت عن آرائي المتشددة حيال كتب لم أقرأها . وكل هذا بدا لي واضحًا بعد عودتي إلى عملية بسيطة من تقليب الصفحات ، صفحة بعد أخرى ، بصدق وإخلاص ، خلال أسابيع قليلة . إن تابعت مشروعي هذا ، ربما سأتغير . ولكن أولًا ، علي أن أعود للوراء قليلًا .

لقد كانت نسخة رواية «عن عبودية الإنسان» تنتظرني أسفل كومة من الجوارب .

«ظننتُ أنك تركت هذه الرواية ،» قالت لي تينا . «إنها توبتي .» قلت لها .

لا يمكن أن تُعجب بكل الكتب في العالم ، ولكنك مدين لنفسك وللسيد دارسي أن تحاول على الأقل .

«لم يستطع التفكير في شيء آخر . لقد نسي حياته . كان ينادى مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يأتي لتناول عشائه . ودون اكتراث ، تمكن من خلق أكثر العادات سعادة في العالم ، عادة القراءة : لم يكن يعلم أنه بينما كان يخلق لنفسه مهربًا من أحزان الحياة وكربها ؛ لم يكن يعلم أنه كان يخلق لنفسه أيضًا عالمًا غير حقيقي ، والذي سيجعل العالم الحقيقي بالنسبة له مصدرًا مرًا للخيبات .»

يا له من أبله تعيس ؛ من المؤسف أنه على حق .

ليلة أمس ، كالعادة ، ذهب ابني ألكس إلى سريره مبكرًا ليتمكن من القراءة . حبه للكتب غير معقد ومليء بالإخلاص . هل يجب علينا إخباره أن بعد سلسلة قصصه المفضلة Captain Underpants ، بقية حياته في القراءة ستثبت له أنها ليست سوى خيبة أمل؟ هل يجب علينا تحذيره من القراءة ، أو الدفع به للخارج كي يلعب كرة القدم قبل أن يفوت الأوان؟ أو ربما علينا أن نعطيه «قائمة الإصلاح» الخاصة به ، كي نعدّه للفظاعة التي تنتظره . عشر صفحات من «اللامسمّى» يا ولدي ، ثم تُطفأ الأنوار .

عندما كنت طفلًا ، أحببت القراءة كما يحبها ألكس الآن . ولكن الحياة باعدت بيني وبين هذا الطفل ؛ لقد حالت الكتب بيننا . لأن الشيء الوحيد الذي علمتني إياه «قائمة الإصلاح» هو أن حب القراءة ، وحب الكتب ، ليسا بالضرورة الشيء ذاته .

بعد أسابيع قليلة من إنهاء «عن عبودية الإنسان» ، تأخرت في عملي ليلًا في لندن . أغلقت المكتب عند الساعة التاسعة ، أخذت عددًا من المسودات ، ونسخة من أوديسة هومر . وبينما كنت أشعر بالانتصار ، قررت أن أضيف كتب أخرى إلى القائمة ليصبح مجموع كتبها ٥٠ كتابًا - لأستمر ، وليستمر الإصلاح .

كانت السماء تمطر عند وصولي إلى المحطة . وعندما وصلت إلى ?يكتوريا اكتشفت أن كل قطارات الساحل توقفت عن الخدمة . عظيم . كنت أقف في الساحة ، وملابسي مبتلة بالمطر ، أفكر فيما سأفعله ، وفجأة سمعت أحدهم ينادي باسمي .

«آندي ميلر! كيف حالك؟ تعال لنشرب معًا!»

كان زميلًا قديمًا لي في الكلية يدعى پاتريك . بدا پاتريك وكأنه ثمل . بقيت معه لمدة ساعة ، ثم لحقت آخر قطار يأخذني إلى المنزل . لقد مرت عدة سنوات منذ أن عملنا معًا . قبل عدة أشهر أخبرني عن وفاة والديه بشكل مفاجئ . كان يستطيع تحمل نهاراته في العمل ، ولكن لياليه كانت لا تطاق .

«علي أن أكون غاضبًا ،» قال پاتريك . «أنا غاضب . ولكنك ستتفهم ذلك .»

«ماذا تقصد؟» سألته .

«لطالما اعتبرتك إنسانًا غاضبًا . لا أعلم لماذا ولكنك يا آندي أكثر رجل غاضب التقيته في حياتي .»

أوصلته إلى قطاره ، ثم بحثت عن قطاري . وبينما كنت عائدًا إلى المنزل ، لم أتمكن من التركيز على قراءة الأوديسة . كنت متعبًا ، ومشوشًا ، وكلمات پاتريك مازلت في ذهني . غاضب؟ أيعقل هذا؟ لم أعتبر نفسي أبدًا إنسانًا غاضبًا ، على الأقل لست أكثر غضبًا من

أي إنسان عادي في منتصف عمره . ورغم هذا ، في الأسابيع الأخيرة ، كلما فكرت في حياتي وفي الطريق الذي قررت أن أسلكه ، بكل الممرات المليئة بالكتب ، كانت صورة واحدة تعبر مخيلتي : جون غودمان ، ثائرًا أمام رواق الفندق في بارتون فنك ، والنار تحترق في ظهره ، ووجهه يتجلّى بالغضب ، وهو يصيح قائلًا :

سأريك حياة العقل!
سأريك حياة العقل!
سأريك حياة العقل!

وهكذا سوف أفعل .

II

«الكتب التي يقرؤها الإنسان في طفولته ، وربما كل الكتب الجيدة والسيئة ، تخلق في عقل الإنسان شيئًا أشبه بخريطة خاطئة للعالم ، سلسلة من البلدان الرائعة التي يستطيع الإنسان الهرب إليها في لحظات حياته القاسية ، والتي في بعض الحالات تستطيع أن تنجو بزيارة إلى البلدان الحقيقية التي من المفترض أنها تمثلها .»

جورج أورويل

«حاولنا ولكننا لم نملك وقتًا كافيًا .»

هوت تشيپ

إنه صباح يوم خميس في شهر مايو ، أيام قليلة قبل عيد ميلادي التاسع والثلاثين . كنت في طريقي إلى بورنموث حيث سأحضر مؤتمرًا . وكنت أقرأ كتابًا : «مئة عام من العزلة» لغابرييل غارسيا ماركيز . أشعر أنني سأفقد عقلي .

مرت أربعة أشهر الآن منذ أن ترنّحت باتجاه نهاية «عن عبودية الإنسان» . ومنذ ذلك الحين ، أنهيت مجموعة أخرى من الكتب العظيمة متنوعة الطول والصعوبة . يجلس في هذا القطار في صباح يوم من أيام مايو رجل انتهى من قراءة «المعلم ومارغريتا» ، «مدل مارش» ، «مكتب البريد» ، «البيان الشيوعي» ، «المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة» ، «البحر ، البحر» ، «كونفدرالية البلداء» ،

«اللامسمّى» ، «عشرون ألف شارعًا أسفل السماء» ، «موبي- ديك» ، «آنا كارنينا» ، «كبرياء وتحامل» ، «عن عبودية الإنسان» ، وأيضًا ، «كاتش--٢٢» ، «أمير الذباب» ، «فرانكنشتاين» ، «الأوديسة» ، «الجريمة والعقاب» ، «التعساء» ، «خوف واشمئزاز في لاس فيغاس» ، «القلب صيّاد وحيد» ، «سوق الأضاليل» ، «جين اير» ، «كل رجل» ، «مبتدئون جدًا» . عندما أغمض عينيّ ، تمر هذه القائمة عبر جفنيّ كشريط أخبار التايمز سكوير . أغمض عينيّ كثيرًا . أنا مرهق .

لهذه السبب ، ولأسباب أخرى عديدة ، أجد أنه من الصعب علي التركيز في قراءة «مئة عام من العزلة» ، استأت لأن علي قضاء هذه الليلة بعيدًا عن منزلي . إنني أستمع الآن إلى أغنية The Warning لهوت تشيپ ، ورغم أنها أغنية جيدة فعلًا ، إلا أنها تلهيني عن قراءة ماركيز . لم أزر بورنموث منذ أن كنت مراهقًا ، في عطلة عائلية قصيرة ، وكنت قلقًا من المشاعر التي ستعود إلي خلال هذه الزيارة . رائحة القطار ليست الرائحة التي اعتدت عليها في قطاري الآخر . بالإضافة إلى أن الكتاب سيء للغاية .

قبل أسبوع ، أعدت قراءة «مبتدئون جدًا» . ولسنوات عديدة ، كان هذا كتابي المفضل ؛ وكان من المُقلق بالنسبة لي - وسط مشروع الإصلاح- إدراكي بأنه قد يكون الأفضل حتى الآن . لقد فهمني هذا الكتاب عندما كنت مراهقًا ، وعندما أصبحت طالبًا في الجامعة . وبطريقة غريبة ، يفهمني الآن ، بسرعة ودون اعتذار ، لا أظن هذا معقولًا .

أيًا يكن ، لقد كانت خيبة أمل مفاجئة أن أعود إلى قراءة الأدب بهذه الطريقة . وجدت أنه من الصعب جدًا أن أجد أرضًا

مشتركة بيني وبين «مئة عام من العزلة» . عندما ظهرت لأول مرة باللغة الإنجليزية ، قبل ثلاثين سنة ، كانت تعتبر رواية ثورية ، رومانسية ، ألعاب نارية للخيال - ولكنني لا أجد شيئًا من هذا فيها . تبدو بالنسبة لي كخدعة جيدة تم تكرارها كثيرًا ، إنها أشبه بشمبانزي يقود عجلة واحدة ويدور بها حول الغرفة ، ويدخن السيجار ، ويستمر في دورانه الذي لا ينتهي . لا أريد أن يكون هذا هو شعوري تجاه «مئة عام من العزلة» ، والتي أعلم أنها تعني الكثير للعديد من القراء حول العالم - إنني أحاول ألا تخطر ببالي تشبيهات الشمبانزي حين أفكر بها ، ولكنني لا أستطيع . مشكلتي مع الواقعية السحرية ، كما اقترحت سابقًا ، أنها ليست واقعية ولا سحرية .

أفضل أغنية في ألبوم هوت تشيب تدعى «And I Was A Boy From School» إنها مرثية إلكترونية ، مليئة بالحنين إلى ما لا يستطيع المغني القبض عليه .

"And I was a boy from school, helplessly helping all the rules ."

بدت وكأنها أغنية مليئة بالنوستالجيا ، ربما كانت عن النوستالجيا؟ أيًا يكن ، بنقرات إيقاعها المحتدم على الكيبورد كانت تعبّر عما أشعر به . جو وإلكسس هما المغنيان الرئيسيان في الفرقة .

جو (بحزن) : لقد ، لقد ضعت .

إلكسس (بعذوبة) : قد قلت أن هذا طريق العودة .

يصل القطار إلى محطة بورنموث ، وأوقف تاكسي كي يأخذني إلى فندقي . ومن المقعد الخلفي للتاكسي ، كانت بعض أجزاء

المدينة تبدو مألوفة للحظة . لقد مرّت خمس وعشرون سنة . لقد مكثنا هنا أنا وأمي وأبي وأخي لأسبوع كامل خلال إجازة عيد الفصح خلال سنتي ١٩٨٣ و١٩٨٤ . في كل يوم كنت أمشي في هذه المدينة وأتنفس هواءها ، أمسح المتاجر بحثًا عن ملصقات أو تسجيلات مثيرة للاهتمام : عددان قديمان لمجلة The Face . مازلت أفكر في تلك الزيارة ، عندما كنت أسير وحدي في نهاية طفولتي . أظنها كانت أسعد فترات حياتي على الإطلاق .

بعد أن وصلت إلى الفندق ، كان من المفترض أن أذهب إلى غرفة المؤتمرات لأحضر خطابًا ، أو حفلة ، أو لا أدري بالضبط أي نوع من الهراء ينتظرني هناك ، ولكن بدلًا من هذا صعدت إلى غرفتي واستلقيت على سريري وأنهيت رواية «مئة عام من العزلة» . لقد شاهدت الشمبانزي وهو يدور حول الغرفة حتى تعب الشمبانزي وتعبت معه . وبعد ذلك نَمت أجنحة سحرية للشمبانزي ليطير بعيدًا ، كوالده ، وكجده . وخلال هذه العملية ، قمت لأعد لنفسي كوبًا من الشاي ، وأتناول قطعة خبز . في تلك اللحظة ، لم أستطع تحمل قراءة كتاب آخر . لقد انتهى الإصلاح .

إنها الرابعة مساءً ، أصبح الوقت متأخرًا للحاق بزملائي في المؤتمر ، ولكنه ليس متأخرًا لنزهة حزينة . وهكذا قررت أن أغادر غرفتي ، وأنطلق للسير في الشوارع ، وكما كنت متوقعًا ، حطّمت قلبي بهذا القرار ، لأنني كنت أحاول يائسًا العثور على ذلك الصبي من المدرسة الذي جاء مع أمه وأبيه ، قبل وقت طويل .

(لنتظاهر أنني تركت نسختي من «مئة عام من العزلة» على الطاولة بجانب السرير ، وأنت ككاميرا تتجه من الباب إلى الطاولة مباشرة ، وهذا ، بينما هنالك صدى لخطواتي وأنا أنزل من الدرج ،

عليك أن تركز في هذه الكلمات .)

«أورليانو لم يفهم حتى تلك اللحظة ، إلى أي درجة أحب أصدقاءه ، إلى أي درجة افتقدهم ، وإلى أي درجة بإمكانه أن يضحي فقط ليلتقيهم في تلك اللحظة . (لقد) تجول دون هدف في المدينة ، باحثًا عن بوابة تأخذه إلى الماضي .»

في ليلة ما ، حين جاء وقت النوم ، كنت وألكس نقرأ قصة تدعى «النمر الذي جاء للشاي» .

كنا ننظر إلى صفحتين من الرسومات التي تظهر فيها الأم ، الأب ، وصوفي ، وهم يسيرون خارجًا في المساء . «وهكذا كان يسيرون في الظلام ،» كُتب في الزاوية السفلية اليسرى من الصفحة ، «وأُنيرت مصابيح الشوارع ، ومصابيح السيارات ، ومشت العائلة باتجاه مقهى في نهاية الطريق .» كان هذا الشارع في مكان ما من لندن ؛ باص رقم ٧٢ في الخلفية . سيارة زرقاء تتحرك بعيدًا - فورد إسكورت؟ موريس مارينا؟ وفي الجهة المقابلة للطريق ، هنالك امرأة مسنة تمشي مع كلب أبيض . وبالقرب ، رجل وامرأة يبدو أنهما يتجهان إلى مطعم يدعى إتش . بيذر . وعلى هذا الشارع عدد من المتاجر .

«هل عشت هنا عندما كنت طفلًا؟» سألني ألكس .

«آسف ، لا أقصد هذا ،» قلت له . «أقصد أنني كنت طفلًا هناك ، أو في مكان يشبه ذلك المكان . إنه يشبه المكان الذي عشت فيه مع جدتي وجدي ميك عندما كنت طفلًا .» وكان يشبهه فعلًا ، في الروح وفي المادة - شارع إنجليزي ريفي في نهاية ستينات القرن الماضي ، أو بداية سبعيناته ، كل هذا جاء إلي كما أحب أن أتذكره . لقد أردت أن أسقط في هذا الكتاب .

وفي مقدمة الصورة في الكتاب ، تسير صوفي مع أمها وأبيها . كان الجميع يضحكون ويتحدثون . كانوا يرتدون معاطف للمطر وأحذية طويلة العنق ، وكان الأب يرتدي قبعة . وفي الرصيف وراءهم كانت قطة مبتسمة ، وشخص يمشي . ولكنني أشعر أن شيئًا ما ليس صحيحًا . كانت القطة تتقوّس بظهرها ، وذيلها موجه نحو الهواء . هل كانت تتمدد؟ تتثاءب؟ ربما كانت تستعد للانقضاض على شيء أو على شخص . ذلك الشخص الذي يمشي ربما . ولكننا لا نستطيع رؤية وجهه ؛ لا نرى إلا ظهره ، قبعته متجهة للأسفل ، معطفه ملفوف حول أكتافه .

«من هذا؟» يسأل ألكس ، ويشير إلى الشخص الغريب .

«هذا هو الموت ،» أجبته . «ليلة سعيدة .»

أتساءل ما المعنى وراء قصة «النمر الذي جاء للشاي» ، هل كانت مجازًا للتعبير عن خيانة الأم للأب ، أم أنها كانت تتحدث عن الإدمان على التسوق؟ هل كانت نقدًا للدعامة المالية للعائلة التقليدية في المجتمع ، حيث هنالك ثلاثة مستهلكين في العائلة ، ومُنتج واحد فقط؟ أم أنها عن القمع الذي يواجه رغبات الأنثى ، وكان النمر تجسيدًا لتوقها لإطلاق سراح حريتها؟ لنعد مرة أخرى إلى مشهد العائلة السعيدة التي تسير في الشارع . كانت الأم وصوفي تضحكان وتتحدثان ، بينما الأب صامت . انتقلت العائلة إلى المقهى ، الجو مليء بالضحكات والابتسامات ، تستمتع العائلة بتناول العشاء ، بعض النقانق ، والبطاطا والآيس كريم - مدفوعة الثمن من قبل الأب - ولكن لا أحد منهم ينظر إلى الآخر . يحمل الأب كأس بيرة نصف ممتلئ ولكنه لا يشرب ، والنظرة على وجهه تحيل إلى مشاعر حزن وندم . ربما قد لام نفسه على هروب النمر

هائجًا مسعورًا عندما لم يكن معه . أو ربما كانت هذه القصة أحد أحلام يقظة الأب ، وكان النمر في خياله ، لا الأم ولا صوفي ، تفسير غير منطقي للحياة التي عاشتها زوجته وابنته في غيابه .

«عن ماذا كان يتحدث الكتاب؟» سألت ألكس هذا الصباح ، بعد عدة سنوات .

«عن نمر ،» أجابني .

هذه هي المشكلة مع النمور . أظن أنني قرأت هذه القصة عندما كنت في المرحلة الإبتدائية ، عندما كانت جديدة (لقد تم نشرها في سنة ولادتي) . أتذكر رؤية نسخة منها في صندوق الكتب في فصلي المدرسي . وإن لم تكن هناك ، فإنها حتمًا في المكتبة العامة للمدينة . في الحقيقة ، كانت هنالك مكتبتان بالقرب ، واحدة كبيرة مبنية بالطوب الأحمر قرب شارع التسوق ، والأخرى صغيرة ، دائرية الشكل ، بجانب مدرستي في المدينة القديمة . كنت أعلم أننا لم نملك نسخة منها في منزلنا . كان والداي ، برغم حبهما للكتب ، مقلين في شرائهما للكتب ؛ ولكن كل صباح سبت يأخذانني لاستعارة الكتب من المكتبة العامة الكبيرة .

لقد أحببت مكتبات جنوب كرويدون كثيرًا . لم تكن تلك المكتبات صديقة للأطفال ؛ ولم تكن صديقة لأي أحد على الإطلاق . كانت ضخمة ، مظلمة - مصممة من الخشب ، مليئة بالكتب ، وكان يُتوقع من الجميع الصمت ، ولم نكن نسمع سوى وقع الأقدام لطلاب المدارس . المكتبة الكبيرة في المدينة كانت تحتوي على قسم خاص للأطفال ، ولكن لم يكن هذا القسم كما

نتخيله اليوم عندما نتحدث عن مكتبات الأطفال . لم تكن مليئة بالمقاعد الملونة ، والألعاب ؛ بل كانت غرفة خشبية مليئة بالكتب . وهذا - التوقع المشترك بالاحترام ، والإجلال ، والأرفف الممتلئة بالكتب من البداية للنهاية ، دون فجوات على الإطلاق - هو ما جعلني أحب هذه الأماكن ، وما ألهمني لزيارتها . توازن القوة يأتي من الكتب ، وليس من العامة . لا أظن أنه من الممكن السماح بهذا الآن .

المكتبة الأصغر على التل ، كانت أكثر خفة وإشراقًا - ولكنها كانت أيضًا مليئة بالكتب ، إلا أنها تطلب من الجميع الصمت بشكل أكثر لباقة . وبعد أربعين سنة ، النكهة ، الرائحة المميزة للأرضية الخشبية ، تفتنني وكأنني مارسيل بروست .

بالتأكيد ، كنا نملك كتبًا في منزلنا ، ولكن والديّ لم يكونا مهووسين بالكتب . كانت القراءة متعة بالنسبة لهم ، ولكني لا أتذكر أن أحدهم قرأ أي كتاب مرتين . كنا نملك بعض الروايات ، ولم نملك أي كلاسيكيات على الإطلاق ، قديمة كانت أم حديثة ، لم نملك كتب إليوت ، ولا ديكنز ، ولا أيًا من الكتّاب الفرنسيين أو الروس ؛ لا آيرس مردوخ ، جون فاولز ، روبرت غريفز ؛ لا شيء من منشورات بودلي هيد . كان ذلك النوع من الأدب ، دولة أخرى . خارج مكتبات كرويدون بالتأكيد . وبدلًا من كل هذه الكتب ، كنا نملك كتب أليستير كوك ، ديفيد نيفن ، ديفيد واليشنسكي ، إرفنغ والاس .

كان والداي يحتفظان بالكتب في مكانين اثنين . الأول وحدة تخزين متعددة الأغراض صنعاها معًا في الكراج ووضعاها أخيرًا في غرفة الطعام ، وبها مساحة أيضًا لتخزين المشروبات . أما المكان

الثاني فكان خزانة خشبية لها مقدمة زجاجية قابلة للانزلاق . كانت هذه الخزانة مليئة بنسخ من روايات أمثال نغايو مارش ، أليستير ماك لين ، وبعض الأعداد من اشتراكاتهما السابقة في منشورات متعلقة بالكتب قبل سنوات من مولدي . وكل هذه بالتأكيد لم تقرأ خلال فترة حياتي . وقد تم التخلص من كل أغلفتها الورقية حتمًا .

ورغم هذا ، كان والداي في حالة قراءة مستمرة ، أيًا كان ما استعاراه من المكتبة العامة . كانت أمي تستمتع ، ومازالت تستمتع بالروايات الرومانسية التاريخية . عندما كنت صبيًا ، كانت جين بلايدي كاتبتها المفضلة (أسيرة قصر كينسينغتون ، الشوك والوردة) وكاتبة أخرى تدعى فيكتوريا هولت (عدوتي ، الملكة) . كانت تفضل هولت على بلايدي كما أظن ، ولكنهما كانتا الكاتبة ذاتها تنشر تحت اسمين مختلفين . والآن تقرأ أمي فيليبا جورجي ، ديك فرانسيس ، وآلان تتشمارش ، وجميعهم الشخص ذاته ، ربما كانت هي فيكتوريا هولت مرة أخرى .[(١)]

أمي لا تعرف الكثير عن الفن ، ولكنها تعرف ما تحب . في الحقيقة ، لا ، هذا ليس صحيحًا . أمي تعرف ما يكفي عن الفن ولكنها تُفضّل ما تحب . والآن هي في آخر السبعين من العمر ، وبينما هي ذاهبة في رحلة إلى قلعة هاورد في يوركشاير ، كانت تقرأ «العودة إلى برايدشيد» ، ووجدته مخيبًا للآمال ، وفضلت عليه رواية آلان تتشمارش الأخيرة . وحين حاولت الاختلاف معها ،

---

(١) إليانور هيبرت ، والتي عاشت من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٩٣ ، باعت أكثر من ١٠٠ مليون نسخة من كتبها خلال فترة حياتها .

أشارت إلى أنني لم أقرأ الرواية ، وأنني أتصرف بطريقة متكبرة . «لقد كتب بعض الكتب الرائعة يا آندرو ،» قالت لي . وهي تعتقد أن بإمكاني التعلم من آلان تتشمارش كي أصبح كاتبًا ناجحًا ؛ وكان هذا رأيًا لم أملك إلا أن أتفق معه .

أبي ، في ماضيه ، كان يحب أن يقرأ عن الحربِ العالمية الأولى ، الحرب العالمية الثانية و/أو الحرب الباردة ، سواءٌ كان ذلك في الروايات أم في الكتب التاريخية ، وهكذا قرأ أبي كل الروايات المشهورة في السبعينات لكتّاب أمثال : فريدريك فورسيث ، لين دايتون ، جون لو كاغي . لقد عمل والدي عندما كان مراهقًا في لندن ، بينما كانت قنابل الألمان تسقط كل يوم على المدينة . وفي بداية عشريناته أصيب بمرض السكر ، ومنذ ذلك الوقت تحدد نمط حياته . لو كان أبي يشعر بالمرارة تجاه هذه الأحداث ، لما أخبرني بها ، وبرغم علمه بالثقة والفائدة التي يكتسبها من أكمل تعليمه ، إلا أنه اعتاد أن يقول ، «دائما ما تعرف إن كان الشخص الذي أمامك قد تخرج من أكسفورد ، أو كامبريدج ، لأنه سيخبرك بذلك حتمًا .» وهذا أيضًا أثبت أنه رأي سليم تمامًا .

هل حديثي عن حبي لوالديّ نوع من التكرار؟ كان أبي رجلًا جميل الرفقة ، ذكيًا ، دقيقًا ، يحب النقاش ، وكانت أمي صبورة ، محبة ، وتعشق الكلام . لقد كانا كبيران في السن عندما كنت طفلًا ، ولقد كنا عائلة تقليدية بكل ما في الكلمة من معنى ، كان والدي يركب القطار كل يوم للذهاب إلى المدينة ، بينما كانت أمي تظل للاهتمام بشؤون المنزل . صحة والدي المتدهورة ، كانت تعني أنه بحاجة إلى روتين واستقرار ؛ بذلت أمي الكثير من الجهد حتى تتمكن من توفيرهما له . مرت الثورة ولم يشترك أيٌ منهما فيها –

لم نعرف الحرب ، واستمر والدي بارتداء قبعته في كل يوم يذهب فيه إلى العمل حتى بداية العقد الجديد . قد لا يكون بيتنا يحوي أي كتاب لتولستوي ، ولكن ما أردت قوله هو أنني لم أكن أهتم وقتها ، ولا أهتم الآن . لقد كنا سعداء ، سعداء على طريقتنا الخاصة .

ولكن كان علي وقتها الذهاب إلى المدرسة ، كارثة طفولتي . وقفتُ على ملعب المدرسة في أول صباح لي في المدرسة ، بينما الأطفال حولي يركضون ويصرخون ويضحكون ، وقلت لنفسي - برغم أني لم أكن أعلم هذه الكلمة وقتها- : أوه سحقًا أوه سحقًا أوه سحقًا . وأثبتت هذه الانطباعات لاحقًا أنها صحيحة . ولم تكن هناك أي مدرسة على الإطلاق خلال ثلاثة عشر عامًا مقبلة لم أردد فيها هذه الكلمات في عقلي . من اللحظة التي وصلت فيها ، كنت أنتظر مغادرتي لهذا المكان .

أصبحت الكتب مهمة بالنسبة لي في تلك المرحلة . في أولى أسابيع المدرسة قضيت معظم وقتي جالسًا في الداخل أقرأ ، حتى نادت علي السيدة تويتشت وأخبرتني أنني ممنوع من الجلوس في الصف وقت الفسحة ، وأن علي الذهاب خارجًا للعب مع من أسمتهم «أصدقائي» . وبرغم أنني كونت بعض الصداقات هناك لاحقًا ، إلا أنني فضلت دائمًا البقاء في الداخل ، لأن المكان الذي توجد فيه الكتب .

برغم كوني سيئًا في صف التربية البدنية كما هو متوقع ، ومتوسط المستوى في موادي الأخرى ، كنت جيدًا في القراءة . وعلى ماذا حصلت في المقابل؟ رأي السيدة تويتشت الجيد ، وذهول وازدراء «أصدقائي» في الصف . في الفصل الصيفي ، تم اختيار أبرع

القرّاء في الصف ، وأخذهم إلى الخارج للجلوس على كراسيهم على العشب ، والتحدث عما كانوا يقرؤون . كنت الصبي الوحيد في هذه المجموعة . كل أسبوع ، تغضب الفتيات الصغيرات ، لأن هنالك صبيًا اقتحم ناديهم الخاص بالقراءة . كل أسبوع ، تنجح الفتيات الذكيات في جعلي أبكي ، ثم يهربن بعيدًا . ليتشكل بهذا نمط علاقتي بالنساء ويستمر معي حتى حياة البلوغ ، وحتى لقائي مع زوجتي ، أذكى نساء العالم .

ما الذي استفدته من القراءة عندما كنت طفلًا؟ لقد أطلقت القراءة العنان لمخيلتي ، ومنحتني مهربًا - برغم أن هذا كلام مبتذل ، ولكنه حقيقي . كان كل شيء في عالم القصص منسجمًا ، وعادلًا ، وغالبًا ما وجدت أنه من الأسهل قضاء الوقت هناك ، بدلًا من قضائه في العالم الوحل والحيرة ، الذي يعيش فيه الجميع .[1] أيًا يكن ، ما كسبته من القراءة كان أنها الشيء الوحيد الذي برعت فيه . لقد كانت موهبتي التي ولدت معي ، صوتي الذهبي ، معجزتي ؛ وبرغم أنها لم تحمل معها مكانة اجتماعية مماثلة لتلك التي يحصل عليها لاعب كرة القدم مثلًا ، إلا أنني اكتفيت بكوني جيدًا في شيء ما - لست فقط جيدًا ، بل أفضل منك . وفي سنتي قبل الأخيرة في المدرسة ، كنت قد انتهيت من كل الكتب في المدرسة ، لدرجة أنه تم إخبار والديّ أن يزوداني بكتب جديدة من المنزل أو من المكتبة العامة . هل قرأت فعلًا كل

(١) أولئك الذين يحبون الحياة لا يقرؤون ، ولا يذهبون إلى السينما . أظن أن الوصول إلى عالم الفنون محصور على أولئك الذين ضاقوا ذرعًا بالعالم .
ميشيل ويلبك ، إتش . بي . لفكرافت ضد العالم ، ضد الحياة .

الكتب في المدرسة؟ تقول أمي أنني فعلت . ربما كنت قد أخبرت المعلمين بأنني قرأتها كلها ، وصدقوني . ربما كانت تلك اللحظة التي بدأت فيها بالكذب في حديثي عن الكتب .

وهكذا ، أعطاني والداي حب القراءة ؛ وأعطتني مكتبات كرويدون حب الكتب ، وأثبتت لي أيامي الدراسية أنني أصبحت معتمدًا على هذا الحب . ولكن هنالك شخص واحد فقط علمني كيف أجمع الكتب ، كيف أخفيها وأحتفظ بها ليوم حاجتها ، كيف أشتريها . كان هذا الشخص أنا . منذ أن كنت في السابعة من عمري ، كانت أكبر أمنية لي أن أبني مكتبتي الخاصة ، وكل التبرعات كانت مقبولة بطمع ؛ لقد أردت أن أمتلك كل الكتب التي قد قرأتها ، وكل الكتب التي لم أقرأها ، كل كتاب في هذا العالم الواسع . من أين جئت بهذا الجنون؟ لقد كان النمر الذي جاء لتناول الشاي ولم يرحل أبدًا .

لقد أردت أيضًا أن أصبح عالم حفريات .

قرأت مؤخرًا مقالًا يتحدث عن أكثر هدايا أعياد الميلاد المخيبة للأمل ، وكانت البطاقات مسبقة الدفع لشراء الكتب في السبعينات . ولكن لم تكن هذه تجربتي . لقد أحببت تلقي الألعاب كهدايا ، ولكني اعتبرت بطاقات شراء الكتب أشبه بتذاكر ذهبية تأخذك إلى أرض من الخيال المحض ، وأيضًا تأخذك إلى فرع WHSmith في مركز المدينة .

وماذا اشتريت ببطاقات الكتب التي تلقيتها؟ «آستريكس وتِن تِن» ، «روالد دال» ، «نيكولاس فيسك» و«ليلتنوز» . «كتاب الديناصورات» ، و«كتاب السيد مِن» . «بيتريكس پوتر» . «ويني-ذا-بووه» و«البيت قرب زاوية بووه» . «الآن نحن ثلاثة» ، و«عندما

كنا صغارًا جدًا» . «موسوعة الديناصورات» . «مغامرات مختارة من ألفريد هيتشكوك وثلاثة محققين» . «كتاب غينيس للأرقام القياسية» . «فاتي پفز وثيرنيفرز» ، «الفطر والرجل المخيف» ، «حفلة تنكرية» . «كيف تصبح توپ» . «المحققون السبعة» ، «المشهورون الخمسة» (كنت أفضل «المحققون السبعة») . «إميل والمحققون» . «پيتير الأزرق» ، «بيانو» ، «روپرت» ، «غراب أرابيلا» . «الريح في الصفصاف» . «كيف تصبح عالم حفريات مبتدئ» . «السيد آرثر كونان دويل» ، «العالم المفقود» .

كنت أحب كل الكتب ، ما عدا تلك التي تتحدث عن كرة القدم ، الفتيات ، والحروب . كنت أقرأ مجلة The Radio Times ومجلة The Robins . كنت أقرأ أيضًا صفحة الكارتون في صحيفة The Daily Express ، ثم أصبحت أنتقل إلى صحيفة Croydon Advertiser بحثًا عن المزيد . كنت أحب المجلات المصورة . المضحكة منها مثل Cheeky ، Buster ، Whizzer and Chips ، Weekly ، وWhoopee! ، أو قصص مارڤل ودي سي المصورة : The Amazing Spider-Man ، The Uncanny X-Men ، The Mighty Thor . بالنسبة لطفل بريطاني عاش طفولته في السبعينات كانت هذه المجلات مدهشة جدًا . دعمني والداي لشراء هذه المجلات وقراءتها بشكل غير معهود ، باستثناء وحيد : لم يكن يسمح لي أن أحضر معي أعداد مجلة Look-in إلى المنزل .

في المدرسة سمحت لي القراءة بالفوز في أول وآخر جائزة لي ، والتي استلمت بسببها شهادة ، وبطاقة مدفوعة لشراء كتاب . وفي أشبال الكشافة ، كانت أوسمة السباحة والرياضة بعيدة المنال بالنسبة لي ، لكني استطعت الحصول على وسام القراءة عن طريق

اختيار كتاب والحديث عن استمتاعي بقراءته . وهكذا أصبحت عضوًا في أندية القراءة . وفي سنة ١٩٧٦ ذهبت مع والدتي إلى مؤسسة الفن المعاصر في لندن . انتظرنا في الصف لساعات طويلة ، ولكن الجولة بالداخل كانت تستحق الانتظار ؛ رأينا كونتين بليك وبيرنارد كريبنز وفات يفن . وبعدها لم أدخل مؤسسة الفن المعاصر لعشر سنوات ، حتى أقيمت حفلة لفرقة The Wedding Present ، وThe Servants ، وPrimal Scream . ولم أقابل فات يفن مرة أخرى إلا في سنة ١٩٩١ .

كتب قليلة بإمكاني اختيارها لتكون أفضل ما قرأت خلال طفولتي . كتب «ويني-ذا-بووه» . وقصص توف جانسون بالذات «مومنبابا على البحر» . « حالة الطوارئ الثامنة عشر» لبيتسي بيارز ، بغلافها الذي صممه ورسمه كونتين بليك ، والذي يتعلم فيها البطل بينجي الفأر كيف يتحمل أذى زميله في المدرسة مارف هامرمان . وثلاثون عددًا من قصص شولز ، تحت عناوين مثل : «لا تستطيع الفوز بكل شيء» ، «تشارلي براون» ، «أنت بمفردك» ، «سنووبي» ، والتي قرأتها مرة بعد أخرى ، وما أزال أفعل حتى الآن ، لأنني أصبحت أقدر أكثر عبقريتها منذ أن رزقت بألكس .

العناوين التي ذكرتها في الأعلى لا تعبر عن قائمة منتقاة بعناية ، إنما هي العناوين التي وقعت في حبها فعلًا . أو ربما كانت هذه هي الكتب التي بقيت معها أطول فترات طفولتي ، في الحقيقة وفي الخيال . أحمل انطباعاتي عنها في عقلي - وأحمل نسخًا منها في خزانتي حتى الآن .

أحببت الفكاهة في تلك الكتب ، بالتأكيد ، ولكني الآن أراها

حزينة . إيور تحدث إلي أكثر من تيغر ؛ أظن أنني شعرت مباشرة أن هذا واقعي . بإمكان الحياة أن تكون مسلية ، ولكنها في معظمها ليست كذلك ، ومن فترة إلى فترة ننتظر كثيرًا في أماكن حزينة . في هذه الكتب يحب الأطفال شخصيات مثل لينوس ولوسي ، ماوس وهامرمان ، ماي الصغير ، ومومنترول ، جميع هذه الشخصيات تتصرف كما يتصرف الأطفال . بالذات شخصيات الحيوانات ، فهي تلعب ، وتحب الشجار ومشاهدة التلفاز . ولكن هذه الشخصيات بدأت بالشعور بالأسى على أنفسها ، بدأت بالشعور بالإحباط والخوف ؛ أحيانًا تضحك هذه الشخصيات حتى وقوعها على الأرض . ولدى هذه الشخصيات حيوات جامحة في عالم الخيال وأنا عالية . يعلم ماوس وإيزي تمامًا كيف يمكنهم التعامل مع هجوم التمساح . وفي بينوتس ، يظهر تشارلي براون مكتئبًا ومنغلقًا على نفسه أحيانًا (لا أستطيع تحمل هذا .) .

وماذا خبأت لنا الحياة وفقًا لهذه المجلات المصورة؟ في عالم مارقل يتصاعد القلق في فترة المراهقة وتدور الصراعات الداخلية حول الحب ، القتال ، واضطرابات عامة ، بالإضافة إلى الإحساس بالأنا المتعالية . الخدعة كانت أن تصاب بلسعة عنكبوت مشع ، أو تصبح مليارديرًا عابثًا ، إلخ ، وبعد ذلك تصبح أناك المتعالية مستعدة للتصرف كما تشاء لتحقق خيالاتها : ارتداء أزياء مصممة يدويًا للأبطال الخارقين ، ولطم كل من تجده في طريقك ، وتناول كيك Hostess Twinkies .

وعندما تنضج وتصبح بالغًا ، تتوقف عن كونك بطلًا خارقًا ، وتصبح كشخصية فيليجونك العابس أو كشخصية همولن الفخم ، أو الجد المتذمر . وإن أصبحت أبًا أو أمًا ، فإنك ستتحول لشخصية

غير مرئية كشخصيات الأم والأب في مسلسلات الأطفال، بينوتس على سبيل المثال، دائمًا ما تكون خارج الإطار. ومع استمرار الحياة، يصبح العمل دافعك اليومي، أو الأعمال المنزلية، أو الاعتناء بالحديقة، حتى يزول اهتمامك بكل هذه الأشياء، وتجد نفسك شخصًا متوسطًا مثل مومنبابا في افتتاحية «مومنبابا على البحر»:

«في ظهيرة يوم ما، نهاية شهر أغسطس، كان مومنبابا يمشي في حديقته ويشعر بالفقد. لم يكن يعلم ماذا عليه أن يصنع بنفسه، لأنه شعر أن كل شيء كان من المفترض أن يتم الاعتناء به قد تم الاعتناء به، أو سيتم الاعتناء به بواسطة أشخاص آخرين.»

وفي النهاية، ستأتي تلك الشخصية الكارتونية الباردة، الوحيدة The Groke، لتلحق بك وتكون هذه نهايتك. «مومنبابا على البحر» تعتبر قصة تحكي أزمة منتصف العمر، للقرّاء من عمر تسع سنوات وصاعدًا. عندما أنظر للوراء، أتساءل لماذا بذلت جهدي لأنضج - إنك كنت قد نضجت فعلًا. لقد كان كل هذا حقيقيًا أكثر من اللازم.

هل كان أبي وأمي مدركين لحقيقة أنني كنت أقرأ هذه القصص، وأرسم لنفسي مستقبلًا كئيبًا؟ نبوءة ذاتية من الموت؟ هل كان يجب عليهم إبعادي من هذه القصص المريضة، واستبدالها بأخرى أكثر إشراقًا وحيوية؟ أشكر الإله أنهم لم يفعلوا. لقد كنت طفلًا أتحلى بصفات تلائم تلك القصص، ويريحني كثيرًا أن أرى نتائج هذه القصص على الطريق الذي اخترت أن أسلكه في حياتي.

في الحقيقة ، كان والداي سعيدين بتركي أسلك طريقي بنفسي في اختيار الكتب التي أريد قراءتها . لم يسبق لأحد أن اقترح علي الكتب في طفولتي ، أو لوّح لي بقائمة إصلاح معينة . لم يحاول أحد أن يطورني بكتاب سي . إس . لويس «جنة آيات الطفل» . رغم أنني كبرت ، وأحببت هذا الكتاب ، أتذكر أنني جربت قراءة «أليس في بلاد العجائب» ، في عمر الثامنة ، وأصبت بالإحباط بعد إنهائها ؛ لقد كانت أفضل بكثير على التلفاز .

كان التلفاز أكبر العوامل المؤثرة في ذوقي حينها ، والذي كان من الممكن أن يكون أمرًا سيئًا ، لولا أنني كنت أعيش في بريطانيا في السبعينات . وكان هذا يعني Jackanory على قناة بي بي سي ١ ، والذي كان برنامجًا تعليميًا بسيطًا ، ومسليًا : يضع الكاميرا على ممثل مثل آلان بينيت ، أو جودي دينتش أو ماي زيتيرلنغ أو كينيث ويليامز ، وكل يوم عند وقت تناول الشاي ، يقرأ هؤلاء الممثلون لك من كتاب جيد . وبسبب هذا البرنامج تمكنت ومعي ملايين من الأطفال من اكتشاف the Moomins ، و«حالة الطوارئ الثامنة عشر» ، وكنوز مثل The Eagle of the Ninth لروزماري ستاكليف ، و«لودو الحصان النجم» لماري ستيورات ، «بلاك جاك» لليون غارفيلد .

ولكن جيلنا كان محظوظًا مرتين . جمهور المتفرجين العريض ، وجداول العرض الفارغة ، وكان هذا يعني أن منتجي البرامج كانوا يعودون للكتب كثيرًا كي يتمكنوا من الحصول على مواد للتلفاز . لست بحاجة لقراءة إي . نيسبت لتعرف «أطفال سكك الحديد» ، أو «طائر الفينيق والسجادة السحرية» ، أو باميلا براون ، فرانسيس هودجسون بورنت ، أو جون ماسيفيلد لتعرف «حفيف الستائر» ،

«الحديقة السرية» ، «صندوق المسرات» ، بالترتيب ذاته . بالمعايير المعاصرة كانت البرامج المستندة على هذه الكتب رزينة وخطابية . لأنني أحببت «دكتور هو» . أظن أن كتاب «دكتور هو وعقل موربيس» كان أول كتاب أنهيه من الغلاف للغلاف في قراءة واحدة ، وأنا جالس في المقعد الخلفي لسيارتنا من نوع موريس مارينا . وفي كل يوم أحد كانت قناة بي بي سي تذيع المسلسل الكلاسيكي للعائلة كلها كي نشاهده معًا . أعلم أن كل ما ذكر أعلاه يبدو ذا قيمة ، للطبقة المتوسطة ، وللآباء والأمهات بالتحديد ، ولكن ما أقصده هو : إن كنت طفلًا أَحَب القراءة فعلًا وأَحَب الكتب ، وكنت تقرأ كثيرًا ، فإنك ستجد الكتب في المكتبات ، في متاجر الكتب ، في المدارس ، وعلى شاشة التلفاز . لم يحدث في أي حقبة مضت أن جيلًا من الأطفال حصل على ما حصل عليه جيلنا ، ولن يحدث مرة أخرى .(١)

لقد وهبني والداي حب القراءة ، وكما قلت ، ولكنهما لم يكونا مزيفين ، ولم يقلدا أحدًا ، ولم يحاولا تفضيل الكتب على الوسائل الأخرى للمعرفة والترفيه . كانت هناك بعض الأحياء الثقافية التي لا تناسب أمثالنا ؛ كنا نشاهد Coronation Street ، و١-٢-٣ كبقية الناس . ولكن والداي لم يكونا حداثيين . أفكارهما المسبقة كانت مخبأة للفن المعاصر والبوب في صورته بعد فرقة ذا بيتلز ، والذي كان والدي يعتبرها مضربًا عملاقًا على المستوى

---

(١) مازلت أقول بأن هنالك العديد من البرامج الرائعة التي مازالت تقدّم للأطفال في بريطانيا ولكن القليل منها من وحي على الكتب ، وبالتأكيد لا توجد أية برامج مستوحاة من الكتب القديمة .

النقدي والموسيقي . عندما قايضنا سيارة العائلة موريس مارينا مقابل سيارة تحتوي على مشغل كاسيت ، كان شريط هيومان ليغ الذي أملكه ممنوعًا ، رفقة جميع أشرطتي الأخرى . الألبومات الوحيدة التي تمكنا من سماعها دون جدال كانت تسجيلات أغانٍ من برامج مثل : !Oliver ، Kiss Me Kate ، My Fair Lady . إنني أعتبر نفسي محظوظًا . كانت هذه مقدمات أخذتني إلى عوالم ليونيل بارت ، كول پورتر ، ليرنر ، لويفي ، ديكنز ، شكسبير ، بيرنارد شو ، أوليڤر ريد ، آن ميلر ، آودري هيپورن (و CinemaScope ، وBob Fosse ، Cecil Beaton ، إلخ ، إلخ) .

وكان شريطنا المفضل للرحلات الطويلة ، تسجيل Guys and Dolls . في آخر مرة زرت بورنيموث ، وجدته في السيارة مع أمي وأبي ، كنت أجلس في المقعد الخلفي ، أغني «Luck Be a Lady» ، و«My Kind of Town» . وهأنا مرة أخرى في العزلة ، بعد مئة سنة . أتجول في الشوارع ، مشتاقًا إلى عائلتي -إلى عائلاتي- وأتمنى أن أكون معهم .

عندما عدت إلى المنزل ، لم أتمكن من البدء في كتاب جديد . يبدو أن «قائمة الإصلاح» قد وصلت إلى محصلة مخيبة للآمال . عدت إلى عملي ، وعدت معه إلى عاداتي السيئة القديمة في القطار : حل الكلمات المتقاطعة ، الأعمال الورقية ، المجلات . الفجوة بين عذاب قراءة «مئة عام من العزلة» ، وبين نشوة قراءة «مبتدئون جدًا» بدت أكبر من أن يصلها جسر .

وعندما أنظر للوراء ، أظن أن «مبتدئون جدًا» هو الكتاب الوحيد الذي يمكن أن أقول بصدق أنه غيّر حياتي - أعني أنه غيّرها حرفيًا ، ولا أقصد أنه كتاب لطيف يمكن أن ينتشر بسهولة لأتحدث

عنه باختزال وأقول «هذا كتاب أعجبني وأنا مستعد للحديث عنه مقابل بعض المال» .

المراهقون من جيلي وصلوا إلى قراءة كتب الكبار بعد قراءتهم لكتب الإثارة لجيمس هربرت أو لكتب قصص النازيين لشـڤن هاسل . أما أنا فقد كنت أتسكع في مكاني الكئيب ، مع بعض الفكاهة أحيانًا - دوغلاس آدمز ، ديڤيد نوبز - وأحيانًا دون فكاهة - غراهام غرين ، جورج أورويل . وبفكاهة أو دونها ، كان هؤلاء الكتّاب ملاذي ، وخريطتي ، في كل أزمة منتصف عمر مررت بها .

قرأت «مبتدئون جدًا» لأول مرة سنة ١٩٨٤ ، عندما كان الكتاب في أوج شهرته . پول ويلير كان مشهورًا حينها ، وكانت فرقته The Jam قد أصدرت للتو أغنية باسم الكتاب . وكان هنالك فيلم يتم إنتاجه تحت الاسم نفسه .[(١)] لقد كانت إحدى روايات الثقافة المعاصرة في ذلك الحين ، حيث أنك إن كنت في السادسة عشر من عمرك ، فإن عليك حتمًا أن تقرأها .[(٢)] قرأتها كاملة في يوم واحد ، عندما كنت في عطلة مع أبي وأمي في اسكتلندا .

أتذكر أنني أنهيتها بينما كنت جالسًا على الدكة لأتأمل البحر

---

(١) بول ويللر عندما تمت استضافته في برنامج راديو إذاعي على البي بي سي وتم سؤاله عن الكتاب الذي سيأخذه معه إن كان عالقًا في الصحراء قال بأنه سيختار كتاب مبتدئون جدًا .

(٢) كانت الكتب المتوقعة التي يقرؤوها المراهقون في بريطانيا في الثمانينات قد تتضمن أسماء مثل أورويل ، جو أورتون ، ورواية الحارس في حقل الشوفان ، على الطريق ، كاتش-٢٢ .

بعدها . لم يسبق لكتاب أن أسرني بهذه الطريقة . لقد استحوذ علي فكريًا ، عاطفيًا ، بكل معنى الكلمة . لقد شعرت أنه كان يتحدث إلي . لدي صورة التقطتها لأمي وأبي في إيونا تلك الظهيرة في اسكتلندا أمام الكنيسة . إنها آخر صورة من طفولتي ، أبي وأمي كما رأيتهما عندما كنت الطفل في عائلتنا الصغيرة (توفي أبي في السنة التالية) . عندما عدنا إلى المنزل ، لم أعد كما غادرته . لقد كنت مراهقًا ، لا ، لم أكن مراهقًا ، بل بالغًا . لقد تمكنت من سلك طريقي للخروج من الطفولة .

كنت أقرأ الكتاب مرة بعد أخرى خلال السنوات القادمة . كلماته لا تتضاءل أبدًا . ثم خرجت إلى العالم ونسيته ، تركته يتحول إلى ذكرى . لذلك عندما قرأته مرة أخرى في الأشهر الميتة من ثلاثيناتي ، قلبني رأسًا على عقب مجدداً . وبشكل مختلف ، شعرت بالحنين ، كنت مبتهجًا ، غاضبًا ، صالحًا ، وبخير .

كنت أعمل في غرب لندن . لقد صنعت لنفسي حياة في الكتب . كان مكتب الشركة في لدبروك غروف ، بالضبط في المكان الذي تدور فيه أحداث الرواية ؛ إلى وقت قريب كنا نعيش قرب هذا الموقع أنا وتينا وألكس . في الأسبوع الذي قرأت فيه الكتاب مرة أخرى ، تمكن الحزب البريطاني الوطني من تحقيق انتصار كبير في انتخابات المجلس المحلي . لقد كان سهلًا جدًا مقارنة الثورة التي حدثت في الخمسينات من القرن الماضي ، المذكورة تفاصيلها في الرواية مع ما كان يحدث في الشوارع من حولي ؛ أسماء الأماكن لم تتغير حتى الآن . ولكن الكتاب لم يرسم فقط خطًا بين الحاضر والماضي (حاضري وماضيّ) ، لقد جعلني أشعر بتداخل الأزمنة مع بعضها (الخمسينات حيث تدور أحداث الكتاب) ، مع (الثمانينات

عندما قرأت الكتاب لأول مرة) ، مع حياتي الحالية في القرن الحادي والعشرين ، إنه المستقبل ، نظرة داخل تليسكوب للعلاقة الغامضة بيني وبين لندن والكتب .

«كل الأعمال التي حصلت عليها ، حتى الأعمال جيدة الرواتب ، حرمتني من شيئين أعتبرهما عزيزين جدًا علي وضروريين لحياتي ، - لطفًا خذ قلمًا ، واكتبهما على ورقة - أن تعمل في وقتك أنت وليس في وقت غيرك ، هذا هو الشيء الأول . والشيء الثاني ، حتى لو لم تستطع كسب الكثير من المال كل يوم ، أن تملك شيئًا يمكنك من كسب بعض المال من وقت لآخر . إن هذا فظيع ، أن تعيش دون أمل» .

سألت نفسي ، ما فائدة قراءة كل هذه الكتب إن كان كل ما ستجلبه لي هو مجموعة من صناديق التخزين؟ ما الغرض منها؟ ما الخطر في القراءة بشكل خطر إن لم تغيرك هذا الكتب وتتصرف بناءً على تعاليمها؟

كتب ألبير كامو مرة «عمل الرجل ليس إلا تلك الرحلة البطيئة لإعادة اكتشاف -خلال تحولات الفن- صورتين أو ثلاث صور بسيطة وعظيمة لأولئك الذين فُتح قلبه لوجودهم .» هذا الاقتباس قرأته لأول مرة على غلاف لأحد ألبومات سكوت والكر ، ويعتبر والكر فنانًا مضى للأمام في مسيرته الفنية ، بعد صمت دام عشر سنوات ، فقط لأنه كان ينتظر أن يملك موسيقى جديدة لتقديمها . في مقابلة نشرت بالتزامن مع صدور ألبومه الأخير ، سأله المحاور لماذا غير أسلوبه الموسيقي بشكل جذري في نهاية السبعينات :

«استيقظت فجأة من النوم . لقد تصرفت بناءً على إيماني

السيء لفترة طويلة ، لقد خسرت قلبي لأجل العالم ، نوعًا ما . كان علي أن أعيد اكتشاف حياتي من جديد ، فقط لأفعلها لأجلي وحدي . لذلك قررت : لن أؤمن بطريقة سيئة بعد الآن .»

الإيمان السيء هو ما حدث لرواية «مبتدئون جدًا» - كان الفيلم كارثيًا لدرجة كادت أن تقتل سمعة الكتاب . ربما كنت ضحية للإيمان السيء أيضًا . لقد أوشكت على قتل الشيء الذي أحبه . لقد نسيت الأرضية الخشبية ، الطفل الجالس على سريره في يوم صيفي ، يضيع نفسه ويجدها في كتاب جيد . كان علي أن أحافظ على إيماني في تلك «الصورتين أو الثلاث صور البسيطة والعظيمة» كان علي أن أكتشفها من جديد . علي أن أستمر بالقراءة ، دون اكتراث لوجهة هذه الرحلة . كان علي أن أستمر في الرحلة .

افتح قلبك وحاول أن تستمر بالشعور بالدهشة .

أرأيت يا أبي؟ أخبرتك أن موسيقى The Human League جيدة .

في صباح يوم الإثنين التالي ، ركبت قطار الساعة ٦:٤٤ صباحًا بإحساس جديد ، ومعنى جديد للجدوى . ذكرتني «مئة عام من العزلة» ، كما ذكرتني «مبتدئون جدًا» ، أننا لن نتمكن أبدًا من معرفة الطريقة التي سيهزنا فيها الإلهام ، أو المظهر الذي سيتجلى فيه . حتى الآن نجحت «قائمة الإصلاح» في منحي لمحات من شيء أكبر وأفضل . كان الأمر يعود لي ، إن كنت أريد الاستمرار في البحث عنه ، وترك الواقع جانبًا حتى أتمكن من تحديد موقع سحر القراءة مجددًا - ولن أدع أي واقعية سحرية سيئة تقف في طريقي .

خلعت معطفي وجلست ، ومن حقيبتي أخرجت «دون

كيشوت» - الكتاب ٢٧ . لقد بدأت بالقراءة من جديد . هذه المرة لن أتوقف حتى يخرج القطار من سكته .

في سنة ١٩٧٩ ، انتقلنا إلى بلدة جديدة ومدرسة جديدة . كانت مكتبتنا العامة الجديدة مقبولة ، أفترض هذا ، بغض النظر عن أنها كانت أكثر بساطة وترحيبًا من المكتبات العامة السابقة التي زرتها . كانت هذه المكتبة مليئة بالكتب ، وليس فقط الكتب . كانت تحتوي أيضًا على مجموعة صغيرة من التسجيلات للاستعارة . في الأسبوع الثاني من انتقالنا لمنزلنا الجديد ، استعرت أحد ألبومات فرقة ذا بيتلز ، ومعه ألبومهم الأزرق الذي جمع تسجيلاتهم من ١٩٦٧ وحتى انفصال الفرقة ، وبينما كان والدي في عمله ، استمعت إلى أغنية «Strawberry Fields Forever» وأغنية «I am the Walrus» مرة بعد أخرى ، وامتلكتني هذه التسجيلات بطريقة لم أعهدها من قبل ؛ أيًا يكن ، كانت هذه الأغاني حية ، وتحدثت إلى أعماقي . بلدتنا الجديدة كانت تحتوي على متجر للكتب ، ومتجر للتسجيلات . ولكن هذه قصة أخرى .

البلدة التي أعيش فيها حاليًا تحتوي على ثلاثة أماكن ، متجر للكتب ، متجر للتسجيلات ، ومكتبة عامة . بالتأكيد فإن التكنولوجيا ، ومتاجر السوبر ماركت تحاول جاهدة أن تجعلنا نخسر هذه الأماكن الثلاثة ، ولكننا نحاول الإبقاء عليها . متجر الكتب جيد ، ومتجر التسجيلات بإمكانه أن يطلب لي ما أريد وآتي لاستلامه ، أما المكتبة فتحولت كمكان للزيارات الرسمية ، ولكنها على الأقل موجودة لخدمة المجتمع وأطفاله . في كرويدون ، في وقت كتابتي هذه ، ولادخار بعض المال تحاول السلطات المحلية إغلاق الفروع التي نما فيها حب الكتب . وفي حال نجاحها في مخططها ،

فإن المجلس المحلي سيتصرف في مخزون المكتبات العامة ، ثم سيتم تحطيم أرضيتها الخشبية العزيزة على قلبي ، والتي بإمكانهم بيعها قطعة قطعة على الأشخاص المتعلقين بالماضي أمثالي . لا أريد لأي من هذا أن يحدث ولكن الحياة تستمر ، بك أو دونك .

ألكس يحب الكتب ونحن نشجعه على قراءتها كما شجعني والداي تمامًا . من السهل القيام بالمهمة عندما يكون طفلك يحب القراءة ، وخاصة في وجود الكثير من كتب الأطفال الرائعة حاليًا لمؤلفين أمثال : مايكل موربورغو ، جاكلين ويلسون ، ڤارجاك پاو ، پاتريك نس ، فيليب ريف ، ليموني سنيكيت . وقصص مثل : «Wimpy Kid» ، «Harry Potter» ، «A Series of Unfortunate Events» .

ألكس ينهي سلاسل ملاحم القصص التي لا تنتهي أولًا بأول كما كنت أنهي كتب «دكتور هو» ، بينما يستلقي على سريره ، أو يجلس في المقعد الخلفي للسيارة بينما أقوم أنا وأمه بالتحدث عن أمور حياتية تخص البالغين . وقد قامت جدة ألكس بإلحاقه بنادي الكتاب التابع لدار بينغوين الذي كنت عضوًا فيه أيضًا عندما كنت طفلًا . ليتلقى النادي كتابًا هدية من ألكس ، رغم أن هذا الكتب ليس من منشورات بينغوين حتى . كطفل ، القراءة تمثل بالنسبة لك ذلك الشيء الذي تفعله بينما تنتظر بداية حياتك . وكأب ، أيًا يكن ، إن كنت محظوظًا وتمكنت من القبض على فرصتك ، بإمكانك أن تصبح جزءًا من هذه التجربة أيضًا . في الصيف الفائت ، بينما كانت أمه مريضة ، قرأت مع ألكس قصة «القزم» . كان يقرأ لي أحيانًا ، وكنت أقرأ له معظم الوقت . قمت بتأدية أصوات الشخصيات ، وقام هو بفعل المثل . وهكذا ، بينما كانت القصة مستمرة ، حملنا العالم على راحتينا . وشعرنا بالأسف عندما حانت نهاية القصة .

III

"Mais ne lisez pas, comme les enfants lisent, pour vous amuser, ni comme les ambitieux lisent, pour vous instruire. Non, lisez pour vivre."

«لكن لا تقرأي ، كما يقرأ الأطفال ، لأجل المتعة ، أو كما يقرأ المتفائلون ، لأغراض التعلم . لا ، اقرأي لإنقاذ حياتك .»
غوستاف فلوبير ، رسالة إلى الآنسة لوغوير دو شانتبي

«لن نتوقف عن الاكتشاف أبدًا
وستكون نهاية كل اكتشافاتنا
أن نصل إلى المكان الذي بدأنا منه
لنتعرف عليه للمرة الأولى .»
ت . س . إليوت ، ليتل غيدنغ

الكتب ٢٨، ٢٩، ٣١٩

ما بعد السواد – هيلاري مانتيل
مذكرات نكرة – جورج وويدون غروسيمث
سر إيدون دروود – جورج تشارلز ديكنز

«إبريل ٢٧ .– طليت جدران الحمام باللون الأحمر ، وكنت سعيدًا بالنتيجة . وللأسف لم تكن كاري سعيدة أيضًا ، في الحقيقة تحدثنا بهذا الشأن . وقالت أنه كان علي استشارتها في الأمر ، وأنه لم يسبق لها أن سمعت بحمام مطلي باللون الأحمر . أجبتها : (إنها مسألة ذوق لا أكثر .)»

مذكرات نكرة

«مبشَرة جوز . أكواب توبي . وسائد للزينة بدبابيسها . لديها طاولة قهوة بسطح زجاجي . لديها أطباق Pyrex أصلية للفرن مزينة بصور الجَزر والبصل في جانبها . لديها مدبرة منزل إسبانية . اعتدت أن أسرع إلى منزلها لاستخدام الحمام لأنه دائمًا ما كان هنالك رجل يستمني في حمامنا .»

ما بعد السواد

«(لا يوجد لدي أي اعتراض على النقاش . أنا دائمًا مستعدة للنقاش .) كانت قبعة السيدة العجوز تهتز ، إلا أنها أضافت :

(وعلي أن أحبّ رؤية النقاش الذي سيغير من رأيي!)»
سر إيدون دروود

في يوم جميل في آخر شهر يونيو ، كانت الشمس تتلألأ على خليج الفايكنغ ، سرت ومن معي إلى ڤيكتوريا غاردينز بمحاذاة الساحل . وأمامنا مشى نيل ، أوليڤر تويست ، السيد مكاوبر ، وكلب يرتدي قميص المنتخب الإنجليزي لكرة القدم ، وكان هذا افتتاح مهرجان برودستيرز ديكنز السنوي وكان الجميع مرحب به هنا .

حسب ما قرأته مؤخرًا ، فإن ديكنز اعتاد أن يزور برودستيرز بشكل منتظم من سنة ١٨٣٧ وحتى إقامته الدائمة فيها سنة ١٨٥١ عندما عمّد المدينة . في سنة ١٩٣٦ ، الذكرى المئوية لرواية ديكنز «مذكرات بيكويك» ، وتم عرض مسرحية من وحي الرواية . وفي السنة التالية ١٩٣٧ ، تم إعادة عرض هذه المسرحية كأهم فقرة في حفل أقيم للاحتفال بمرور مئة سنة على أول زيارة قام بها ديكنز لبرودستيرز . «تحت قيادة غلادي واترر ودورا تاتام ، اللذان عاشا في منزل ديكنز ، نهض هذا المهرجان ، وباستثناء توقفه خلال سنوات الحرب ، فإنه لم يتوقف أبدًا . وفي الخمسينات كان محبو ديكنز يسيرون بأزيائهم وألوانهم لإحياء المهرجان .» والآن تم السماح للكلب بالدخول إلى مقر المهرجان ، كما تم السماح للكلاب جميعًا بحضور كل الاحتفالات العامة في إنجلترا في القرن الحادي والعشرين ، لتقف صفوف الكلاب بجانب الملكة ، في مناسبات عديدة ، من أكثرها شهرة حفل افتتاح الألعاب الأولمبية سنة ٢٠١٢ .

«تعالوا إلى برودستيرز» كتب ديكنز في إحدى رسائله إلى أصدقائه يدعوهم لزيارة برودستيرز . «تعالوا إلى برودستيرز ، تعالوا الآن» وكما تفصله كلير تومالين في مذكراتها الأخيرة ؛ أن تكون صديقًا لديكنز فهذا أمر متعب جدًا . لقد كان كثير المطالبات ، ومن الصعب إقناعه ، لقد كان يجبر أصدقاءه على الأكل معه ، والاستماع له وهو يقرأ ، وهو يرتجل ، ولعب البلياردو معه حتى الفجر ، المشي معه لأميال بمحاذاة حقول كينتش ، دعمه في حملات الإصلاح الدستوري ، التجول في إصلاحيات الأحداث ، تفقد غرف الموتى ، الضحك بصخب ، البكاء بصخب ، و ، إن كان أصدقاؤه مازالوا قادرين على التنفس ، المجيء إلى برودستيرز .

برودستيرز مازالت تبدي عرفانها لديكنز حتى بعد مرور ١٥٠ سنة ، وليس لأسبوع واحد في شهر يونيو ، بل طوال السنة ، باسم المتاجر والمحلات المصطفة في المهرجان : متحف بيت ديكنز ، بالتأكيد ، ولكن أيضًا مقهى بيغوتي ، مطعم كوبرفيلدز ، وأماكن أخرى كثيرة .

كان من الصعب علي التفكير في كاتب بريطاني تم الاحتفاء به بهذه الطريقة ؛ شكسبير بالتأكيد ، ربما أوستن أو برونتي ، ولكن هذه جميع الأسماء المحتملة . مازال البريطانيون يحبون ديكنز ، حتى لو لم يطلعوا على أي من كتبه . لم يسبق لكاتب أن أتى بهذا الكم الهائل من الأمثال التي انتقلت إلى مخيلة الجموع بهذه الطريقة . شخصيات ديكنز أكبر من الحياة ، وكذلك كان هو ، لدرجة أنه هنا في برودستيرز ، كان من الطبيعي جدًا أن يتم تمثيل شخصية ديكنز لتقف على المسرح برفقة الشخصيات التي قام بخلقها في رواياته . لقد كان ديكنز نفسه شخصيةً من صنعه ،

بطل حياته وما بعدها ، ولا يمكن للعامة نسيان ذلك .

وبشكل محتوم ، كانت بعض الشخصيات أكثر شهرة من غيرها . لم يكن أحد من السكّان مستعدًا لتمثيل أدوار بعض الشخصيات في روايات أقل شهرة مثل «مارتن تشزلوت» أو «برنابي ردج» ، وبالتأكيد لم يكن أحد من بين الجموع قادرًا على تمثيل رواية ديكنز الأخيرة التي لم يكملها «سر إيدون دروود» . إلا إن كنت قد تذكرتني . إلى هنا قادتني «قائمة الإصلاح» : عائدًا إلى برودستيرز وعائدًا إلى بوز . لقد كنت حينها أقرأ هذه الرواية ، وهي العمل الوحيد لديكنز الذي لم أقرأه بعد . وكانت ، كما توقعت ، رائعة .

منذ أن تعثرت بقراءة «مئة عام من العزلة» ، انطلقت «قائمة الإصلاح» بشكل متزن ودون أية حوادث . بدأت بتدوين ملاحظاتي حول الكتب وأفكاري في مدونة أنشأتها . كان قراري بقراءة «سر إيدون دروود» في هذه المرحلة ، بسبب إلهام هذا المهرجان في برودستيرز ، ولكنه أيضًا بسبب أنني نجحت في إكمال قراءة ثلاثين كتابًا ، وأردت أن أجرب شيئًا مختلفًا بقراءة هذا الكتاب لروائي أعرفه تمامًا وأحب أعماله . وبدا ديكنز كمرشح واضح . لقد قرأت جميع أعماله تقريبًا ، ودرستها في الجامعة . لقد كان كاتبًا محليًا .

(أقول أنني اخترت «سر إيدون دروود» لأنها رواية ديكنز الوحيدة التي لم أقرأها . حتمًا ، فإن هذا ليس دقيقًا تمامًا . لأخبركم بالحقيقة ، لا أستطيع تذكر إن كنت قد قرأت «مارتن تشزلوت» أو «برنابي ردج» أو ربما كنت قد قرأتها قبل وقت طويل ونسيتها تمامًا . على كل حال ، كنت متأكدًا أنني لا أعرف أي شيء عن «سر إيدون دروود» . وشعرت بالسعادة فجأة لأنني أدركت أنه لم يسبق

لي الكذب وادعاء قراءة هذه الرواية ، ولكني بالتأكيد قد عبرت عن حبي لديكنز بشكل مبالغ فيه ، وادعيت قراءة «كل» أعماله ، وهذا أمر لا أمل في تغييره .)

شهرة ديكنز - ولا أعني بذلك فقط شهرته في المعارض كروائي وكمؤدي ، بل أيضًا حقيقة كونه ناجحًا جدًا - كانت سببًا ربما في التقليل من أهميته ككاتب من الطراز الأول . هل يمكن لكاتب بهذه الشهرة ، أن يكون جيدًا في الكتابة بالدرجة نفسها؟ ?يرجينيا وولف ، بينما كانت تعترف بعظمته ، وضعته في مستوى تولستوي وقالت عنه «الواعظ والمعلم» ، على عكس أوستن وتورجينيف ، اللذان وصفتهما بالفنانين . بالنسبة للكثيرين يعتبر ديكنز كاتبًا ريفيًا في الهوية الثقافية الإنجليزية . وبالتأكيد يمكن وصف مهرجان برودستيرز للاحتفال بديكنز بأنه مهرجان ريفي إنجليزي محض ؛ ولكنه كان أيضًا مهرجان بسيطًا صادقًا ، غير متكلّف ولا متصنع . لقد كان عالمًا بعيدًا عن بلوومزبيري .

كانت فعاليات المهرجان على وشك الانتهاء ، لذلك قررنا أن نذهب إلى بيت تشارلز ديكنز (زرنا خلال أسبوع ديكنز وسوف تتحقق «توقعاتك العظيمة») . وفي الداخل ، كان جميع من يعملون في البار الأسترالي يرتدون أزياء من حقبة قديمة ، بحمالات البناطيل ، والقبعات . ولم يكن واضحًا عليهم الارتباك بسبب هذه الأزياء القديمة ، ربما لأن جميع الأستراليين يستمتعون بالإثارة .

«ماذا تريد أن أحضر لك؟» سألني ساقي البار المبتسم .

كنت أفكر في كتابين قد قرأتهما قبل «سر إيدون دروود» . كتاب هيلاري مانتيل «ما بعد السواد» ، والذي كان تحالفًا عميقًا بين قصص الأشباح والقصص الهزلية السوداء ، وكانت تدور

أحداثه في منتصف إنجلترا حيث عاش معظم السكّان ، ولكن نادرًا ما كتب أي من الروائيين المعروفين بعاطفة عن هذه المنطقة من إنجلترا .[(١)]

«انضمت كوليت إلى إليسون في تلك الأيام عندما أشعل المذنب هيل-بوپ ، وكأنه ريشة الإله ، النيران على مدن السوق ومنازل الريف وحتى حقول إتون ، على مجمعات أكسفورد التجارية ، على المدن المزدحمة مثل وكنغ وميدينهيد : الطرق المختنقة وتقاطعات M4 ، فوق المتاجر الضخمة ، ومستودعات السجّاد ، المستشفيات والسجون ، الحفر والمجاري ، الحقول الخضراء لمقاطعاتنا التي مزقتها آلات شركة JCB .»

الضواحي ، وبطريقة أخرى ؛ أرض قلبي . وهكذا بدأت بقراءة «ما بعد السواد» .

أما الكتاب الآخر فقد قدّم ما يشبه المعضلة . لقد كان يتحدث عن الضواحي أيضًا ، ربما يكون من أكثر الكتب التي تتحدث عن الضواحي أهميةً - «مذكرات نكرة» لجورج وويدن غروسميث .[(٢)] بطل هذه الرواية ، تشارلز پوتر ، لقد كانت هذه الشخصية مرسومة بشكل مميز إلى درجة دخولها إلى المعجم .

الكلمة في المعجم هي «Pooterish» : وهي صفة تمثل

(١) أنتجت البي بي سي أخيرًا محاكاة جيدة لكتاب سر إدوين دروود سنة ٢٠١٢ للحديث عن ولادة ديكنز .

(٢) مذكرات نكرة يعتبر من كتابة جورج غروسميث وحده ، بمساعدة أخيه الذي كان يمده بالأفكار والرسومات .

الشخصية الروائية Pooter وتعبر عن التحلي بصفات برجوازية ، أو التصرف بطريقة أنيقة ، أو ادعاء الأهمية .

يدين الكثير من الروائيين ومحرري الصحف وكتّاب الكوميديا من The Good Life وحتى Peep Show للأخوين غروسميث بالكثير من الامتنان ، وربما المال .

ولكن ما هي المعضلة التي واجهتني في هذا الكتاب؟ لقد كانت كالتالي : لم أستطع أن أقرر إن كان من المقبول أن أعجب بالكتاب أم لا . لقد علمت أنني أعجبت بالكتاب ، ولكنني لم أعرف إن كان يجب علي ذلك . بدايةً ، تمتلئ هذه الرواية بالحقد الطبقي - وأقصد أن الأخوين غروسميث هما مصدره ، وليس پوتر . ولكن في المقابل فإن الكتاب مضحك ، وإنساني ، ويعبر عن الحقيقة . ولكن هل يعود صمود الرواية لكل هذه السنوات وبقائها في الأذهان إلى هذه المميزات التي ذكرتها؟ هل كنا نضحك على تشارلز پوتر ومن خلفه أو كنا نضحك معهم؟ بالنسبة لي نادرًا ما أستخدم الوصف Pooterish إلا إن كنت أصف به نفسي . لأنني طالما شعرت أنه يتضمن إساءة للغير .

«مذكرات نكرة» ظهرت لأول مرة في حلقات ونشرت في مجلة Punch . وفي الفصل العشرين من الرواية ، تتم دعوة السيد والسيدة پوتر إلى عشاء في پيكهام على شرف السيد هاردفر هتل ، «كاتب ذكي جدًا للصحف الأمريكية» بملاحظة پوتر ، «بلاغته رائعة إلى درجة جعلت آراءه غير المرحب بها تتحول إلى آراء إيجابية مقنعة» :

«لن أنسى أبدًا تأثير الكلمات ، متوسط سعيد ، لقد كان رائعًا في الكتابة ، وجريئًا في استخدامه للكلمات . لقد حذرني

بشكل إيجابي . لقد قال شيئًا أشبه بالتالي : متوسط سعيد ، حتمًا . هل تعلم أن «متوسط سعيد» كلمتان تعنيان «رديء وتعيس»؟ . المتوسط السعيد يعني الاحترام ، والاحترام يعني الملل . أليس كذلك يا سيد پوتر؟

لقد كنت مندهشًا لدرجة لم أستطع فيها إلا أن أنحني معتذرًا ، وأقول بأنني لست مؤهلًا لعرض رأيي في هذا الشأن .»

لقد عرفت سبب خوف پوتر ، لأنه قد وقع في كمين نصبه له السيد هتل . ولدي ثلاث ملاحظات قصيرة . أولًا ، هذه كتابة كوميدية دقيقة ، متوازنة بشكل مثالي ، ومتقنة من ناحية اجتماعية . ثانيًا ، الأشخاص الذين يحملون آراءً غير مرحب بها مثل السيد هتل - سيكونون دائمًا معنا . وأخيرًا ، هؤلاء الأشخاص يتوقعون منا أن نضحك على أنفسنا ، وغالبًا ما نحقق لهم هذا التوقع . ونحن لم نحاول إلا أن نكون مؤدبين معهم .

جالسًا في حانة تشارلز ديكنز ، وإلى جانبي نسختي من «إيدون دروود» ، قمت بإخراج صحيفة محلية من حقيبتي . وأنا في القطار قادمًا إلى هنا ، قرأت خبرًا لفت انتباهي . نادي الكتاب الذي سيتجنب النقاشات الرفيعة والمتعالية ، وهذا نص الخبر :

«إن كنت قد فكرت من قبل في الانضمام إلى نادٍ للكتاب ولكنك متخوف من النقاشات المعقدة التي قد لا تستطيع مجاراتها ، قد يكون هذا النادي مناسبًا لك . نجتمع في هذا النادي كل شهر في «مركز المظلّة» لنناقش الأدب - ولكن ليس عليك حتى أن تقرأ الكتاب كي تأتي للجلسة . كما أوضحت المنسقة ليز دبليو . أن الفكرة متعلقة بالاستمتاع بالوقت والتعرف على أصدقاء جدد . «نختار كتبًا من السهل قراءتها ، وكتبًا تحولت إلى أفلام ،

حتى لا يضطر المشاركون لقراءة الكتب حتى ، سيكون الأمر تجربة اجتماعية ممتعة جدًا .» تم إنشاء هذا النادي بعد أن اشتكى الكثير من الناس من خوفهم من الذهاب إلى اجتماعات القراءة في منازل معارفهم لأنها متكلفة وعالية المستوى .»

وفي نهاية الخبر كان هنالك رقم للتواصل مع النادي . لحسن الحظ ، كنت عضوًا في نادٍ آخر للكتاب ، وإلا كنت قد اتصلت بهم فورًا . بدت فكرة هذا النادي محيرة ، ولا مفر منها في الوقت نفسه : نادي للقراءة لا تحتاج فيه للقراءة . أينما كانت ترقد ?يرجينا وولف الآن ، أظنها ستلكم وجهها بنفسها .

قررت أن ألتحق بنادٍ للكتاب بعد أزمة الثقة التي سببها لي كتاب «مبتدئون جدًا» وكتاب «مئة عام من العزلة» . ربما يكون مفيدًا لي أن أحاول التأقلم مع المجتمع وأن أصبح معاصرًا في قراءاتي . أخبرني صديق أنه يعرف أحد أندية الكتب في المدينة الذي خسر أحد أعضائه للتو ، وبإمكاني أن آخذ مكانه . كان هذا النادي النقيض تمامًا من النادي الذي قرأت إعلانه في الصحيفة - كان الاجتماع يعقد مرة في الشهر في منزل أحدهم ، وكان على الأعضاء قراءة الكتاب المختار . ربما لم يكن هذا النادي مسليًا لأشخاص آخرين ، ولكن كان ممتعًا بالنسبة لي . كان اسم النادي (نادي الكتاب) إسبارطة ، قبل الميلاد ، وكان العنوان يعكس إحساسًا بالالتزام وبالزهد أيضًا .

«نحن نقرأ الروايات المعاصرة غالبًا ،» قال صديقي . «الشهر الماضي قمنا بقراءة «الجسيمات الأولية» للكاتب الفرنسي ميشيل ويلبك . بعض الأعضاء لم يعجبوا بالكتاب أبدًا .»

كان ويلبك ضمن قائمتي ، قلت له . ثق بي .

كان أعضاء نادي الكتاب لطيفين، متحمسين، ولديهم آراء مثيرة للاهتمام، منهم المحامي، ومنهم طالب الكتابة الإبداعية، والنجار، ومعلّم الغناء، وثلاثة أطباء نفسيين.

كنت محظوظًا لدخولي إلى هذه المجموعة المتنوعة. أغلب مجموعات القراءة الأخرى تمتلئ بالنساء حسب بعض الإحصائيات، ربما تصل نسبتهن إلى ٩٠٪ وهنالك مقياس من الغرور موجه ضدهن، يصفهن بأنهن ضعيفات الثقافة وأنهن يمثلن المعادل الحديث لصباحات القهوة ومجموعات الحياكة، وما يصفه الأكاديمي بيث دريسكول بأنه «feminized middlebrow». إنه تمييز جنسي أن تصف جميع مجموعات القراءة على أنها غبية ونسائية، وأنها ليست سوى حجة لاجتماع النساء وتبادل النميمة عن الأطفال، المدارس، والتسوق، إلخ. وكيف لنا أن نقارن هذا مع الإعلان الذي قرأته في الصحيفة - لا يجب عليك أن تقرأ الكتاب حتى - أو مع هذه التغريدة التي كتبتها إحدى الأمهات بالأمس على تويتر؟ «نادي الكتب الليلة = نقاش سريع حول كتاب + نقاش طويل حول المدارس، الأطفال، العمل، العائلة، النميمة + نبيذ، يبييي!»

الاجتماعات القليلة الأولى لنادي إسبارطة كانت إسبارطية باتفاق الجميع، بطريقة إنجليزية تنتمي للقرن الحادي والعشرين. كان هنالك بعض النبيذ الأحمر؛ وكانت رقائق البطاطا مرشوشة بمسحوق الفلفل الأحمر، وملح البحر. كان هنالك بعض الأحاديث القصيرة عن المدارس والأطفال. وكانت هنالك أيضًا قواعد صارمة لا يجرؤ على خرقها أحد. كان ذلك سيئًا ومتحضرًا وكان الجميع متحضرًا بشكل سيء. كان عليك أن تحتفظ بخفة دمك لنفسك. في البداية، استمتعت بالجلسة.

أيًا يكن ، بدأت خيبـة الأمل بالتسلل إلي خلال نقاش حول رواية سومرست موم «كعك وبيرة» . لم تكن هذه الرواية التي تأتي فيها النادلة بل رواية أخرى تمامًا . في رواية «عن عبودية الإنسان» ، المومس من الطبقة المسحوقة التي تقلب رأس البطل تدعى ميلدرد ، وستذكرون أنها كانت نحيلة ومصابة بالأنيميا . ولكن في هذه الرواية «كعك وبيرة» ، مومس الطبقة المسحوقة التي تقلب رأس البطل كانت بدينة ؛ وبحث موم كثيرًا عن اسم مناسب لها حتى وجده : روزي . ميلدرد أصغر من بطل «عن عبودية الإنسان» . بينما في رواية «كعك وبيرة» كانت روزي أكبر من البطل . ورغم هذا كان هنالك فرق كبير واحد بين هذين الكتابين ، يتمثل في أن رواية «كعك وبيرة» أقصر بمئة صفحة . ولكن حين عبرت عن رأيي هذا أمام المجموعة ، شعرت أن بعض الموجودين اختلفوا معي . بالتحديد سيدتان من إسبارطة شعرتا أنني أسأت الحكم على روزي . وبدا شعورهما بالإهانة . أردت أن أقول بأنني في صفهما ولكنني لم أستطع توضيح وجهة نظري . وعدت إلى المنزل غاضبًا ، مثلهما بالتأكيد .

وبعد ليلة لم أنم فيها وعدة أيام قضيتها وأنا أفكر فيما حدث ، توصلت إلى أن الخطأ بأكمله كان خطأي . لم أكن أريد قراءة رواية «كعك وبيرة» من الأساس ، ولذا عندما قرأتها فعلت ذلك دون إخلاص ، وانتهى بي الأمر أن نقلت كل مشاعري السيئة على هيئة رفض للكتاب والذي تحول لسخط لا مفر منه تلقّاه مَن اختار الكتاب من الأساس . لقد حولتُ الأمر إلى قضية شخصية . وكان التفسير البديل بسيطًا جدًا وهو اعترافي بأنني كنت متسرعًا فيما يتعلق برواية «كعك وبيرة» . ولكن هذا سخيف .

وعندما أتى دوري لاختيار الكتاب القادم ليقرأه الجميع ، قررت

أنني بحاجة إلى اختيار كتاب أستطيع أن أكون واثقًا من إعجابي به . اخترت «ما بعد السواد» . كانت القصة قوية ، والموضوع متاحًا للجميع ، رغم أنه كان ملتويًا بعض الشيء ، كانت المشاهد مألوفة وقدرة هيلاري مانتيل على الكتابة لا تدع مجالًا للشكوى . بإمكاني تزكية هذا الكتاب لأنني قرأته ضمن «قائمة الإصلاح» ، ولكن إن كان زملائي في إسبارطة لا يثقون برأيي ، فبإمكانهم دائمًا الاستماع لرأي فيليب بولمان ، هيلين دنمور ، فاي ويلدون ، أو أي رأي آخر من آراء الكتّاب والمحررين المطبوعة في مقدمة الكتاب . وإن لم ينجح فهذا ، فإن هناك في الغلاف الخلفي للكتاب مقتطفات من حوار أُجري مع هيلاري مانتيل وبعض الملاحظات لمجموعات القراءة . بصراحة ترقبت الاجتماع التالي لنادي القراءة حتى يشكرني الجميع على اختياري الرائع لهذه الرواية وعلى تقديمهم لعالم هيلاري مانتيل ، وبالتأكيد سوف تتم مسامحتي على ما حدث مع رواية «كعك وبيرة» .

ما حدث كان أنني لم أستطع العودة من لندن في الوقت المحدد سلفًا للاجتماع ، وفاتتني الجلسة . وبعد عدة أيام ، صادفت أحد الأطباء النفسيين من النادي في الشارع العام . اعتذرت له على عدم حضوري ، بسبب بعض الأعمال . ثم سألته عما حدث خلال الجلسة؟

حك الطبيب النفسي ذقنه ثم قال : «أظننا كنا بحاجة إليك حينها .»

لماذا؟ سألته .

لم يستطع أحد أن يفهم لماذا قمت باختيار هذا الكتاب ، أجابني . لا يبدو أنه يستحق النقاش .

وقبل أن أتمكن من إيقافه ، أخبرني بكل اعتراضاتهم على الكتاب . بدا الكتاب وكأنه من الوزن الخفيف . لم يكن مضحكًا . الحبكة غامضة ، والشخصيات لا تسمح بالتعاطف معها . وألم تكن الكاتبة تحتقر أهل القرى؟ لقد بدا غريبًا أنك اخترت كتابًا كهذا .

حسنًا ، أجبته . فهمت .

أراك الشهر القادم ، قال لي الطبيب النفسي بصوت مبتهج . وانطلق بعيدًا .

القاعدتان الأولى والثانية من فيلم Fight Club (لا تتحدث عما يحدث داخل النادي .) يجب أيضًا أن يتم تطبيقهما على أندية القراءة . أعلم ذلك . ولكني يجب أن أتحدث كي لا أنفجر . سريعًا أصبحت رواية «ما بعد السواد» نكتة لدى أعضاء إسبارطة . كلما ذكر أحد هذه الرواية ، ضحك الجميع وسخروا منها . وفي كل شهر ، مهما كان الكتاب المختار للقراءة بليدًا أو سيئًا ، كان هنالك دائمًا شيء واحد جيد بشأنه على الأقل ، وهو أنه ليس «ما بعد السواد» . ولكنني رغم كل هذا ، لم أشكك لحظة واحدة في عظمة رواية «ما بعد السواد» وفي يقيني أن كل أعضاء نادي القراءة على خطأ . إلى هيلاري مانتيل أعتذر ؛ وآمل أن يجعلك فوزك المتكرر بجائزة البوكر تضعين هذه الحادثة البسيطة وراءك . إلى رفاقي في إسبارطة ، لا أعتذر إليكم ؛ أتمنى أن يكون فوز هيلاري مانتيل المتكرر بجائزة البوكر دليلًا قاطعًا على الخطأ الذي قمتم بارتكابه .

سأبين لكم المشكلة في منطق أندية القراءة والطريقة التي تدار بها . للجميع حق التعبير عن رأيهم . ولكل الآراء الوزن ذاته . ولكن الآراء متباينة الأهمية حتمًا . وبعض هذه الآراء سوف يتم تقييمها واكتشاف عدم صلاحيتها . ولكن إن كان للآراء جميعها الوزن ذاته

ومن حق الجميع التعبير عن آرائهم الخاطئة ، ما فائدة أن تكون على صواب إذن؟ وإن كنت سأعبر عن هذا الحال في معادلة فإنها ستكون كالتالي : نادي الكتاب = حديث سريع عن الكتب + حديث طويل عن المدارس ، الأطفال ، العمل ، العائلة ، بعض النميمة + نبيذ . يبييي!

لنقل أنني كنت على خطأ بشأن رواية «كعك وبيرة» ، رغم أنني لم أكن على خطأ ، وكانوا جميعًا على خطأ بشأن «ما بعد السواد» ، وكانت هذه الحقيقة فعلًا . ما الذي استفاده الطرفان من اختبار استمتاعهما بهذه الكتب؟ جدال وليلة بلا نوم ، لقد تم إفساد استمتاع كل طرف بالكتاب الذي يحب بسبب مشاركته ومناقشته مع قرّاء آخرين لم يستمتعوا به - في حالة «ما بعد السواد» ، لأشهر قادمة طويلة . ولن تستطيع أي لجنة تغيير ذلك .

وعندما احتجنا فعلًا لحل وسط ، ما هي القواعد المشتركة التي يمكن لنا أن نعود إليها؟ لم يكن أيٌّ منا أكاديميًا . ولم نكن أصدقاء . ربما سمحت لنا وظائفنا بأن نلقي الضوء على بعض الجوانب في الكتاب من حين إلى آخر - وكانت مجموعتنا بالتحديد ماهرة في التحليل النفسي . وأغلب ما كنا نتحدث عنه هو مشاعرنا تجاه الكتب ، وما هي الشخصيات التي تشبهنا في الكتب ، وهكذا : ولكني لم أنضم إلى نادي الكتاب كي أتحدث عن مشاعري . لقد أردت الحديث عن الكتب : كيف تنسجم مع بعضها ، ولماذا تنجح في إدهاشي بمعجزة الخيال . وهذه ليست وجهة نظر رجل يخفي مشاعره . أحب أن أتحدث عن مشاعري . ولا أظنني بحاجة لنادي قراءة كي يساعدني في فعل هذا ، حتى لو كان هذا النادي يضم ثلاثة أطباء نفسيين .

وصلت إلى استنتاج أن أندية قراءة قد لا تناسبني . لم يكن هذا خطأ المحامي ، طالب الكتابة الإبداعية ، المحامي ، معلم الغناء ، أو أيًا من الأطباء النفسيين الثلاثة . لقد كنت أنا السبب . كمحرر وكاتب ، كنت مؤهلًا أكثر من اللازم .

لم أصل إلى هذا الاستنتاج بسرعة ، وقد يندهش القارئ عندما يعلم أنني بقيت في نادي إسبارطة لثلاث سنوات بعد هذه الحادثة ، إنها مدة أطول من بعض الزواجات ، ولكنها ليست أقل دموية . عشنا معًا الأوقات السعيدة والأوقات السيئة . تعلمت أن أعرف ذوق كل عضو في المجموعة ، وتعلمت أن أفضّل لهم ما يريدون حتى أحصل على أقل قدر ممكن من الضرر . وعندما حان وقت الوداع ، انتهينا بطريقة مسالمة . استمتعت بقضاء الوقت معهم . وأصبحوا أصدقائي . اللعنة . لكني لم أغير من آرائي أبدًا بسبب أي مداخلة أو تحليل من أحدهم . نظرت مرة أخرى إلى رواية «كعك وبيرة» قبل أن أكتب هذا الفصل ، مازلت أظن أنها سيئة للغاية .

في يوم مشمس في برودستيرز ، أيًا يكن ، لم أجد أي ظلال . في بيت تشارلز ديكنز ، أنهيت شرابي ، أخذت حقيبتي وخرجت إلى شمس الظهيرة . وفي المدينة ، انتشر محبو ديكنز . وفي الأمام ، السيد مكاوبر أغمي عليه في الحر وأخذته سيارة إسعاف إلى المستشفى .

وهكذا عندما جاء دوري لاختيار الكتاب مرة أخرى في نادي إسبارطة ، رشحت رواية «سر إيدون دروود» . وبرغم أن نسبة الحضور في ذلك اليوم كانت أقل من العادة ، إلا أن معلم الغناء كان هناك والنجار ، وطبيب نفسي واحد ، وقد انتهى الجميع من قراءة الكتاب . تناقشنا حول اختفاء دروود غير المفسر ، وطبيعة شعور جون جاسپر بالذنب ، عدم تناسق لون شعر ديك داتشري

الأبيض ، وحواجبه السوداء . تعجبنا معًا من روعة جمل ديكنز ، وصوره الخلّابة «فيلة بيضاء في ألوان جميلة لا تحصى ، أبدية في أعدادها وفي حضورها .» شعرنا بالشك والحيرة كلما فكرنا في هوية القاتل ، وإن كانت هناك جريمة قتل من الأساس . لم نجد الكثير مما يشبه حياتنا اليومية في الرواية ، ولكن هذه لم تكن مشكلة . شربنا الكثير من النبيذ ، وضحكنا كثيرًا . استمتعنا حقًا . وكل ما تحدثنا عنه كان الكتاب وحسب .

في اليوم التالي ، مازال رأسي يدور ، كتبت كل ما دار في الجلسة على مدونتي . كانت المدونة في جزء منها محاولة لكتابة التقارير عن تقدم «قائمة الإصلاح» ، وفي جزء آخر منها كانت محاولة شبيهة بمحاولة الانضمام لنادي الكتاب ، كي أحول قراءتي للكتب إلى فعل اجتماعي ومعاصر أتشاركه مع الآخرين . وأحببت فكرت أنني أقرأ مع أشخاص لا أعرفهم ولا أخطط للقائهم في المستقبل . من يعلم ربما تمكنت من الحديث عن هذه التجربة في كتاب يصبح بالغ الشهرة مثل تشارلز بودلير الذي قال : «أيها القارئ ، أيها المرائي يا شبيهي يا أخي!»

«لماذا لا أنشر مذكراتي؟ لطالما رأيت مذكرات أشخاص لم أسمع بهم من قبل ، ولا أستطيع أن أعرف -لأنني لست «أحدًا»- لماذا لن تكون مذكراتي مثيرة للاهتمام؟ ندمي الوحيد هو أنني لم أبدأ بكتابتها منذ أن كنت شابًا .

تشارلز پوتر
The Laurels,
Brickfield Terrace,
Holloway.

الكتب ٤١ و٤٢

سيلڤر سيرفر الأساسي ، المجلد ١- ستان لي ، جاك كيربي ، جون بوسيما

كراوتروكسامپلر - جوليان كوپ

«ورغم كل شيء . ما هذا . أمامي . .؟ . بقايا أي عصر ماضٍ مدهش هذه التي دخلت إليها؟»

سيلڤر سيرفر #١

«(الأب لا يستطيع الصراخ) كان هذا تمرينًا ساحرًا ومفيدًا ، ربما أصبح ت . س . إليوت فخورًا فيه . في مقاله «الشعراء الماورائيون» ، وبخ إليوت الفهم الذي يرى التشابه بين الفنانين على أنه نقطة سلبية . لماذا ، كان يسأل ، لم يكن من الممكن أن نعود إلى وجهة نظر الأوائل الذين قبلوا بسعادة استخدام المبتدئين لتقنياتهم وتتلمذهم على أيديهم؟ فقط بقبوله لما قد حدث في الماضي ، يستطيع الإنسان أن يتقدم للأمام .»

كراوتروكسامپلر

مر الصيف في ضباب «جين اير» ، «بحر سارغاسو الواسع» ، «على الطريق» ، «مجنون أمريكي» ، «أسفل البركان» ، «ملحمة جلجامش» . وكلما تقدمت في القراءة ، كتبت في مدونتي أكثر .

أمطرت بعض الكتب بالمديح ، والبعض الآخر بالتحليل . ومن حين إلى آخر قد أجد بعض التعليقات في المدونة على آرائي . كنت أحاول أن أرد بطريقة بسيطة لكي يأخذ الأمر منحى المحادثة . ولكنني لم أستطع المتابعة . وكلما كتبت أكثر في المدونة ، كلما قل معدل قراءتي . بالإضافة إلى أنني لم أكن أحصل على المال مقابل هذه المدونة .

في بداية سبتمبر ، بعد أن لخصت رواية «الفردوس المفقود» في كلمتين لست صاحبهما حتى -»غير مؤذية في الغالب»- كنت أفكر في أن كتابة انطباعاتك عن الكتب في مدونة قد يكون مفيدًا لبعض القرّاء . ولكنني أشعر بالأسف فعلًا لأنني وجدت المدونة مشتتة لي في أغلب الأحيان ، حتى أنها تحولت في النهاية إلى روتين . لقد كانت كتابة المراجعات والآراء حول الكتب أمرًا مختلفًا تمامًا عن قراءتها . لأنك سوف تقرأ الكتاب ، وتبقى متيقظًا للثيمات المهيمنة ، الجمل الرائعة ، تلك التي سوف تتحدث عنها في تدوينتك القادمة ، وعندما تصل إلى مرادك ، فإنك لن تتمكن من الغوص أكثر في أعماق النص ، لأنك امتلكت ما جئت لأجله من الأساس ، وأصبح بإمكانك الآن كتابة قطعتك الرائعة في مدونتك عن الكتاب . رواية «مجنون أمريكي» ، على سبيل المثال ، بدأت بقرأتها وأنا أحمل انطباعًا عنها بأنها سوف تناقش مبدأ الاستهلاك . وكنتيجة لذلك لم أستطع التركيز على الكتاب بشكل كامل ، بل على محاولتي لتطبيق انطباعي المسبق عنه ، وكيف يمكنني صياغة هذا الانطباع بأفضل صورة ممكنة وكتابته على المدونة . ولكن المتعة تختبئ خلف الفكرة لا خلف التعبير عنها . بالإضافة إلى أنني -مرة أخرى- لم أكن أحصل على المال مقابل هذه المدونة .

لا أحد يكتب مجانًا سوى شخص أبله ، هذه عبارة صامويل جونسون ، ولقرون عديدة صمدت وثبتت صحتها . ولكن في عصر الإنترنت ، حيث التعليقات أصبحت مفتوحة ومن حق الجميع أن يعبر عن رأيه الخاطئ ، يكتب الحمقى آراءهم بحماسة ، ودون أي فائدة . أصبح لديهم منصة لا مثيل لها في التاريخ الإنساني . والمشكلة التي تواجه وسائل الإعلام التقليدية ، والنقاد المختصين تحديدًا ، بسنواتهم الطويلة من الخبرة ومهاراتهم الفريدة في صناعة الجمل ، هي أن رأيهم أصبح بالكاد أكثر أهمية من هؤلاء الأفراد الذين يجلسون على أجهزتهم المتنقلة والذين لم يسبق لهم قراءة كتاب واحد في حياتهم .

قد يظن البعض أنني سأكون سعيدًا لوجود العديد من المدونات ، التي يكتب فيها العديد من النقاد غير المختصين والذين لا يستمعون لأحد . ولكن ألا تدركون أنني لا أصبح سعيدًا أبدًا؟ لقد وصف أحدهم الإنترنت أنه تلك المكتبة التي دخل إليها شخص وألقى بكل الكتب التي فيها على الأرض . عدم تنظيم ليس المشكلة . الإنترنت يمثل أعظم مكتبة في الكون ؛ لكن للأسف ، تخلّص أحدهم من كل اللوحات التي كانت تشير إلى أن الكلام ممنوع في هذه المكتبة .

لحسن حظي ، كان العنوان التالي في قائمة الإصلاح «سيلڤر سيرفر الأساسي» . مع إيقاف المدونة مؤقتًا ، هذا كتاب بإمكاني الاستمتاع به دون القلق بشأن ما سأكتب عنه لاحقًا أو بشأن آراء الآخرين عنه . لقد كان يحتوي على الكثير من الصور المثيرة . لقد كان هذا العنوان ينتمي لمجموعة مار?ل في الستينات . يصنف على أنه رواية مصورة ، ولكني أعتبره رواية بمعنى الكلمة مثل رواية

ديكنز «سر إيدون دروود» ، ولكن مجموعة مارڤل قامت بإلغاء السلسلة بعد العدد رقم ١٨ .

لقد كان «سيلڤر سيرفر» يحتوي على كل العلامات المميزة للعصر الفضي للقصص المصورة والذي تقف خلف مجموعة مارڤل بالتأكيد : الأبطال والأشرار ، القصص المثيرة والديناميكية . عندما كنت طفلًا ، كنت أحب شخصية سيرفر . بقواه الكونية ، بأناقته ، بمنظره الفضائي ، وانتقالاته الرشيقة بين الأماكن ، كان سيلڤر سيرفر - جوّاب السماء في طرق الفضاء! - ضيفًا دائمًا في قصص مارڤل الأخرى مثل سبايدر-مان ، و ذا فانتاستيك فور . كنت أملك بعض النسخ الأصلية من قصص سيلڤر سيرفر ، ولكني لم يسبق لي أن استمتعت بقراءة سلسلة كاملة من قصصه دون انقطاع حتى الآن .

ككتاب ، أيًا يكن ، كان «سيلڤر سيرفر الأساسي» مخيبًا للأمل . لأن نسختي كانت مطبوعة بالأبيض والأسود ، بينما كانت النسخ الأصلية منه ملونة ؛ بالإضافة إلى عدم وجود الإعلانات القديمة ، لم أرى هوستس توينكيز ، سي منكيز . كانت قراءته كفصول في كتاب ، فصلًا بعد فصل في جلسة سريعة سمحت لعيوب الحبكة أن تظهر وتكشف سر معادلة قصة سيلڤر سيرفر بالنسبة لي . نورن راد والذي يسمى بسيلڤر سيرفر ، تم نفيه إلى الأرض بواسطة سيده ومصممه غالاكتوز . يتجول سيلڤر سيرفر بحزن على لوحه الطائر وتدعمه قوى ذاته الكونية . يحاول أحيانًا اختراق الحاجز الذي وضعه له غالاكتوز حول الأرض كي لا يغادرها ، ولكنه يفشل . وفي خلال محاولاته يلتقي بعدد مع الأشرار الذين يريدون تدمير كوكب الأرض . يحاربهم سيرفر ويهزمهم ، مخاطرًا بحياته لحماية البشر ، ولكن هل يشعرون

بالامتنان له؟ بالتأكيد لا . على العكس تمامًا ، يجعل البشر مدة بقاء سيرفر على كوكبهم أكثر صعوبة ، بإطلاق نيران البنادق والصواريخ عليه . وبسبب حديث سيلڤر سيرفر إلى نفسه كثيرًا بصيغة المخاطب ، كيف ستكون سعادة سيلڤر سيرفر عندما يعود إلى عالمه زِن-لا ، إلى أي درجة يشتاق سيلڤر سيرفر إلى حبيبته شالا بال ، وكم هو مؤسف عدم فهم أي أحد لأفكار ومشاعر سيلڤر سيرفر . وبعد فوات الأوان ستدرك أن سيلڤر سيرفر كان مراهقًا مشوشَ اللغة ومصابًا بعقدة الضحية أكثر من كونه مقاتلًا في طرقات الفضاء ، وربما يكون هذا السبب الذي جعله محبوبًا لدى آندي ميلر المراهق .

ويكتشف نورن راد في كل عدد من أعداد سيلڤر سيرفر أنه لا يستطيع العودة إلى وطنه . إن قراءة هذه المجلات الآن ، يصدر فعلًا عن شعور بالنوستالجيا . كانت هذه المجلات مكتوبة بطريقة مبتذلة إلى درجة يمكن أن تعتبرها فنًا هابطًا . ولكن رغم هذا ، رغم كل هذا . هنالك عنصر سحري فيها . الرسومات الحركية لم تفقد بريقها ، والقصص مازالت طموحة . في أربعين صفحة مليئة بالمغامرات والأحداث ، بالإضافة إلى بعض الإعلانات ، ناقشت هذه القصص قضايا هامة كسباق التسلح ، معاناة السود ، مبادئ الميتافيزيقا ، ونسب الإنسان . وفي عدة مناسبات واجه سيلڤر سيرفر الشيطان نفسه (العدد التاسع ، أكتوبر ١٩٦٩ ، سرقة روح سيلڤر سيرفر!) ولأسباب متعلقة بالحساسية الدينية ، وحقوق الملكية الفكرية تم تسمية الشيطان باسم آخر : ميفيستو ، عاهل الشر . لقد كانت الفردوس المفقود لفن البوب .

ربما تمكنت من الغفران كثيرًا لقصة سيلڤر سيرفر لأنني مازلت

قادرًا على حب هذه الشخصية التي أعرف أنها وحيدة رغم امتلاكها لقوى خارقة . برغم أنه يشعرني بالغثيان أحيانًا ويتحول إلى شخص أخرق ، وغير مفهوم . ولكن هذه هي الطريقة التي يشعر بها الأطفال أحيانًا ، وربما بعض البالغين أيضًا . مهما كانت عيوب المجلات المصورة وأبطالها الخارقين ، إلا أنها وجدتني ووجدتها في الوقت المناسب من حياتي ، وبقيت معي ، بالطريقة ذاتها التي بقيت فيها رواية «مبتدئون جدًا» معي . ولهذا السبب حاولت قراءة كتاب كيرواك «على الطريق» ولكنني لم أستطع ، لأن لحظة قراءة هذا الكتاب قد مضت . وعندما حاولت قراءته الآن كبالغ ، بمخاوف وانشغالات رجل بالغ ،لم يكن كيرواك يملك ما أبحث عنه . كنت بحاجة إلى إيقاع جديد .

بقيت كتب قليلة في «قائمة الإصلاح» ، ولكن الإجابة التي كنت أبحث عنها ، الإجابة عن سؤال الحياة ، وسؤال الكون وكل الأشياء ، كانت ماتزال بعيدة جدًا ، وغير معروفة . لم أكن أعرف السؤال حتى . كان علي الإيمان بأن الكتاب القادم سوف يساعدني على معرفة كل هذا ، ولكن حتى لو امتلكت كل العزم الموجود في العالم ، بدا لي الأمر غير ممكن الحدوث .

الكتاب رقم ٤٢ في القائمة كان كتاب جوليان كوپ ، «كراوتروكساميلر» ، كان هذا الكتاب دراسة ذاتية عالية للمغني السابق لفرقة Teardrop Explodes حول موضوع موسيقى الروك التقدمية في نهاية ستينات القرن الماضي وبدايات سبعيناته ، وتشمل الدراسة فرقًا أخرى مثل Tangerine Dream ، NEU! ، وAmon Düül II . لقد كانت موسيقى من النوع الكوني الذي تخيلت سيلڤر سيرفر يستمع إليها بينما يسافر من كوكب إلى آخر ،

أو حين يجلس وحيدًا في غرفته بعد جولة أخرى مع غالاكتوز. ومثل سيلڤر سيرفر كان جوليان كوپ أحد أبطالي المفضلين منذ وقت بعيد؛ كانت موسيقاه ترافقني في عزلتي، ومازالت ترافقني حتى الآن في منزلي؛ وفي سن صغير تعلم ألكس أن يضرب بصحنه على طاولة المطبخ على لحن أغنية «World Shut Your Mouth». لم أملك أي توقعات عظيمة بخصوص كتاب «كراوتروكسامپلر» أو أنه سيكون من طراز «آنا كارنينا»، أو «دون كيشوت»؛ وكان الدافع لقراءته يشبه الدافع لقراءة سيلڤر سيرفر، تأمل الماضي والتسامح مع الذات. أيًا يكن، لقد استحققت هذه الاستراحة لأستمتع بشيء من سحر الروك آند رول.

ولكن كانت هنالك عقبة في طريقي. لقد كنت أملك كتاب «كراوتروكسامپلر» منذ تاريخ نشره سنة ١٩٩٥. والآن حان الوقت لقراءته، ولكن للأسف يبدو أن الكتاب قد اختفى. لم أستطع إيجاده في أي مكان. لم يكن مع مجموعة الكتب الموسيقية التي أملكها في غرفة المعيشة، ولا مع أسطوانات جوليان كوپ في مكتبي، ولا في غرفة النوم مع بقية كتب كوپ، «Head-On»، «Repossessed»؛ «The Modern Antiquarian»، ولم أجده حتى في صناديق التخزين التي أملكها في المستودع. أوه حسنًا، قلت لنفسي، علي أن أشتري نسخة جديدة. كان «كراوتروكسامپلر» غير متوفر في المتاجر. وأرخص نسخة مستعملة وجدتها على الإنترنت كان ثمنها قرابة ١٠٠ باوند. شايسه! (Scheiße!) لقد أحببت شراء الكتب، ولكني لم أكن مختلًا عقليًا. وبكل أسف، قررت أن أنتقل إلى العنوان التالي في «قائمة الإصلاح»، وكان رواية «بورتريه سيدة» و«حكاية الخادمة»، حتى تظهر نسختي من

«كراوتروكسامپلر» من تلقاء نفسها .

ولكن عدم قدرتي على الوصول للكتاب ، دفعتني للجنون . احتجت إلى قراءته فورًا ، قررت أنني لا أستطيع الانتظار حتى أنتهي من هذين الكتابين ، ويجب علي أن أقرأ «كراوتروكسامپلر» الآن ، حتى لا أفسد نظام «قائمة الإصلاح» - ربما كنت مختلًا عقليًا فعلًا . بحثت عنه في قاعدة بيانات المكتبة البريطانية . إن تمكنت من أخذ يوم إجازة من عملي ، يمكنني أن أذهب إلى المكتبة وأقرأ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف في قاعة القديس بانكراس هناك . لقد أعجبتني الفكرة أكثر ، وبدت بالتحول إلى هوس .

بحثت أيضًا في قوقل عن نسخة رقمية للكتاب ، ولكن عيني التقطت شيئًا آخر ، كان ذلك عبارة عن مدونة أحد المهووسين بجوليان كوپ ، وفيها وجدت رابطًا لكتاب «كراوتروكسامپلر» بنسخة PDF . حملت الكتاب ، وحفظته في جهازي بسرعة ، حيث بقي هناك بطريقة غير قانونية حتى اليوم . إنه مفتوح الآن على سطح مكتبي بينما أكتب هذه الكلمات وأستمع إلى فاوست . إلى جميع المدونين ، أرجوكم سامحوني . يبدو أنني أدين لكم باعتذار .[1]

---

(١) نسختي الأصلية من كراوتروكسامپلر لم تظهر أبدًا . ويبدو أن من قام بتحميل النسخة الإلكترونية من الكتاب على الإنترنت قد قام باستخدام الماسح الضوئي وهو في عجلة من أمره . الصفحتان ٩٨ و٩٩ مفقودتان ، وهذا يعني أنني قد لا أتمكن من معرفة رأي كوپ في ألبومات فرقة Amon Düül II . هل تملكون هذين الصفحتين المفقودتين؟ هل تعرفون أحدًا يملكهما؟ أرجوكم تواصلوا معي .

نجم روك ، رجل معرفة ، باحث في الحقول ، مقاتل لأجل السلام ، مسافر عبر النجوم ، شخصية كارتونية : إن لم يكن جوليان كوب شخصية حقيقيّة ، فإن مجموعة مارڤل كانت ستقوم بابتكاره - جوليان الجوّاب . وللمعلومة فقط ، فإن فرقة جوليان كوب The Teardrop Explodes أخذت اسمها قصة Daredevil المصورة . وبعد انفصال الفرقة ، تناول جوليان كوب كمية كبيرة من عقار LSD وقام بتسجيل ثلاثة ألبومات بمفرده : World Shut Your Mouth ، Fried وSaint Julian . وخلال هذه الفترة فهم جوليان تمامًا أهمية تسريحة الشعر الجيدة . في ديسمبر من سنة ١٩٨٩ ، جرّب جوليان سلسلة من التجارب والرؤى القوية والإيجابية ، ووصف هذه التجارب بأنها غيرت مسار حياته . أعلن بعدها كوب أنه أصبح معالجًا روحيًا ورجلًا صوفيًا . وسلك بعدها طريقه الفقهي ليتبع ربّات إلهامه أينما ذهبن - ليرسم خريطة للآثار الصخرية من الحضارات السابقة في بريطانيا وأوروبا ويصدر مجموعة من الأغاني الصوتية ، «الأخاديد التأملية» و«المحيط المعدني» عبر موقعه على الإنترنت تحت اسم Head Heritage ، ليقدم محاضرات تصل مدتها إلى ثلاث ساعات في المتحف البريطاني ، ولينضم في احتجاجات سياسية وإيكولوجية ، كلما سنحت له الفرصة ، بينما يقيم في غرف فنادق Travelodges الرخيصة . ولاحقًا ، لأسباب فنية وغيرها ، ارتدى صاحب الشعر الرائع ، قبعة أثارت الجدل ليحاول إيضاح الأمر قائلًا : «إنها قبعة القوات الجوية الألمانية Lutfwaffe ١٩٥٥ ، وليست قبعة نازية ،» هكذا أخبر جون ساڤاج . «علي أن أكون حذرًا جدًا هنا ، لأنني لست نازيًا .»

يقوم كوب بكل شيء في حياته بطريقة مثيرة للفضول ودقيقة

التفاصيل لدرجة السخف . وفي نهاية الثمانينات ، حدث أن قرأ كوپ رواية «المعلم ومارغريتا» لميخائيل بولغاكوف .» لقد التهمتني وغمرتني ، لقد كانت فريدة من البداية ولا تشبه غيرها ، ورغم هذا تحدثت لغتها عبر العصور ونادت علي أنا كتجربة كونية . لقد كانت وستبقى مختفية داخلي للأبد ولطالما علمت أن موسيقى الروك التي طالما ركضت وراءها كانت داخلي طوال الوقت .» هكذا شعر جوليان كوپ بعد قراءته لرواية بولغاكوف . واستمر جوليان في توسيع فكره بقراءة غوردجيف ويونغ ، ليستر بانقز ، جون سنكلاير ، وهكذا شكّلت الكتب نوع الموسيقى التي ألفها كوپ في تلك الفترة . في سنة ١٩٩٢ قام بإصدار ألبومه «Jehovahkill» ومعه كتيب بصفحة عنوان ، وبعض القصائد ، وصور لصخور دائرية ، رسومات ، واقتباسات من كتّاب مثل ويليام بليك ، جورج برنارد شو ، وفيليب كاي . ديك .

ولكن النار التي أشعلتها رواية «المعلم ومارغريتا» انتشرت إلى أبعد من موسيقاه . «كانت سنة ١٩٨٩ سنة تأثير وتغيير بالغ سيطر علي واستهلكني إلى درجة اقتراني بالأكوان ،» هكذا كتب كوپ بعد عشر سنوات من قراءته لرواية «المعلم ومارغريتا» .

«لم يسبق لي أن كنت كاتبًا أو حتى مدونًا للمذكرات ، ولكني برغم هذا بحاجة الآن للكتابة المستمرة .» وجدت هذه الطاقة الخفية جوابها عندما أنتج كوپ لاحقًا أربعة كتب رائعة في العقد التالي .

«كراوتروكسامپلر» كتاب يمثل الكثير من الأشياء . إنه كتاب مذكرات ، ووحدة تاريخية ، رسالة من معجب ، تفسير ، قائمة تسجيلات – ولكن عندما قرأته على شاشة جهازي بنظام تشغيل

ويندوز ميلينيوم ، كان أشبه بالوحي . بدا لي أن ما فعله جوليان كوب في هذا الكتاب يشبه الفعل البطولي . مستفيدًا من أدواته اللغوية التي كان يملكها في سن السابعة والثلاثين ، حبه للموسيقى ، رغبته في البحث والحفر ، إعجابه الشديد بكل من بانقز وسينكلاير ، مهمته التي كلّف نفسه بها كمعالج روك آند رول ساحر ، وتلميذ عسكري للروح ، بالإضافة إلى إيمانه العميق بالقوة المتحولة لكل ما تم ذكره أعلاه - لقد أقسم عندما كان مراهقًا بينما كان في تامورث في ستافوردشاير يستمع إلى جون پييل يضع أغنية Hallogallo لفرقة NEU! ، ويحيلها إلى نص مقدس بطريقته الخاصة ، عمل من أعمال الصالحين ، من أعمال المشاغبين . وهكذا كان «كراوتروكسامپلر» ، ولهذا أعتبره كتابًا عظيمًا .

كتب جوليان كوپ في مقدمته للكتاب : «كتبت هذا التاريخ المختصر بسبب ما كنت أشعر به تجاه الموسيقى ، أن سحرها العالي وطاقتها بقيت مجهولة لفترة طويلة .» لقد كنت أعتقد أن قراءتي لهذا الكتاب ستكون عودة للوراء ، لذكريات المراهقة ، وأفكار الصبى ، واتضح أنه الأمر معاكس تمامًا . وبينما كنت أتصفح كتاب جوليان في الملف اكتشفت أن جوليان حقق ما يريده فعلًا . وبالنظر إلى ماضيه استطاع جوليان أن ينتج بالخيمياء شيئًا هائل الطاقة ، حديثًا ، وبإمكانه الاستمرار في الحياة .

انتهيت من قراءة «كراوتروكسامپلر» في أقل من ثلاث ساعات . ثم قرأته مرة أخرى ، وأنا أستمع إلى ألبوم Monster Movie ، لفرقة Can الألمانية . وAffenstunde لفرقة Popol Vuh ، وأيضًا ألبوم Tarot للرسام والموسيقي Walter Wegmüller ، الذي يحلله كوپ بطريقة غير علمية البتة ويقول عنه : «إنه صوت

الكون!!!» لماذا ، سألت نفسي ، لماذا لا يمكن شراء هذا الكتاب العظيم؟ بالتأكيد فإن هنالك قراءً سيستمتعون بقراءته؟ ولكني علمت لاحقًا أن كوپ بنفسه قرر أن يوقف طباعة الكتاب . لأسباب قانونية بعد سلسلة من الأحداث المتعلقة بردود الفعل حول الكتاب ، لقد بدأ كل شيء من دافع تلقائي وحب للموسيقى ، ووصل إلى درجة إحياء موسيقى Krautrock من جديد ، والذي أدى بعد ذلك إلى انتقادات من بعض الهواة الذي يطلقون على أنفسهم اسم Kosmische Musik ، حيث اتهموا جوليان بأن كتابه غير مكتمل وغير موثوق ، ومسيء لاستخدامه للمصطلح Krautrock . وفي تصريح وضعه كوپ في موقعه ، رد قائلًا : «لا أشعر حقيقةً أنني أريد إعادة كتابة الكتاب من جديد - إنه قطعة كتبت في وقتها ، حين لم يكن أحد هؤلاء الحمقى مهتمًا بهذا النوع من الموسيقى والآن يجتمع حولي كل هؤلاء الأشخاص الجدد الذين يدعون الانتماء إلى Krautrock ويتهمون الكتاب بأن تاريخ صلاحيته قد انتهى . سحقًا لهم! . كانت هذه الحركة من الموسيقى متعلقة بالتنوير ، وليس بالكمال المزيف لبعض البرجوازيين الذين يجمعون التسجيلات للتفاخر بنقائها لاحقًا .»[(١)]

والآن تنتقل نسخ «كراوتروكسامپلر» الإلكترونية من مستخدم إلى آخر على الإنترنت ، كتلك النسخ التي كانت تسرّب من رواية «المعلم ومارغريتا» قبل خمسين سنة . ربما كان كوپ يفضل انتقال الكتاب بهذه الطريقة . لينفصل عن الوسط الإعلاني ، ويصبح

---

(١) للاستزادة : www.headheritage.co.uk/julian_cope/qa2000ce/krautrock

بعيد المنال ، ومتاحًا في الوقت ذاته ، بإمكان الكتاب أن يجدد مهمته التنويرية . بعد إهماله ، سبح في الفضائي الافتراضي ، كوحدة متراصة ، تصدر إشعاعات رسالتها الثورية إلى أي إنسان يستطيع استقبالها .

كنت أنا هذا الإنسان .

حول تلك الفترة ، كانت تلك هي تجربتي ورؤيتي التي غيرت حياتي . لم يكن كتاب «كراوتروكسامپلر» أفضل كتاب في «قائمة الإصلاح» -مازلت أبحث عن هذا الكتاب- ولكن «كراوتروكسامپلر» أثبت أنه أكثر كتاب ملهم على طول الطريق . الكتاب الذي بين يديكم الآن لم يكن ليخرج لولاه .

كما قلت سابقًا ، كتابة المراجعات الكتب في المدونة ، أثبتت أنها تجربة غير مرضية بالنسبة لي . في النهاية ، سلسلة تدوينات في مدونة لم يكن ليكتب لها إلا أن تكون كذلك ، تمامًا كأعداد مجلة سيلڤر سيرفر . شعرت ، أن القراءة المستمرة دفعتني إلى رغبة ملحة ومتراكمة لكتابة كتاب جديد . لتدفع المحرر الذي بداخلي بعيدًا ، وتحضر الكاتب .

«كراوتروكسامپلر» كان الكتاب الذي آراني الطريق . إن كان كوپ يستطيع أن يحول إلهام مراهق إلى شيء ساحر ، جريء ، ومفيد ، قد أتمكن من فعل المثل؟ ولكن كما هو واضح ، فإن حياتي لا تقارن أبدًا بحياة نجم روك ، ولم أكن أملك موهبة المبالغة البطولية في الوصف ؛ فأي كتاب سأقوم بتأليفه ، سيكون من صميم تجربتي الواقعية ، وسيحتوي على أوصاف أقل ضجة من أوصاف جوليان كوپ ، وعلامات تعجب أقل من علاماته بالتأكيد . ولكن «كراوتروكسامپلر» أثبت لي أنه من الممكن أن نعود إلى الماضي ،

«إلى تلك الصور القليلة العظيمة والبسيطة التي في حضرتها بدأ القلب بالنبض» ، وفي هذه المحاولة يمكننا أن ننشط الحاضر والمستقبل . وإن كان خمسون ألبومًا من موسيقى Krautrock تستطيع فعل هذا ، لماذا لا تستطيع خمسون كتابًا أن تفعل المثل؟

وهكذا ، برغم أنه كان احتمالًا بعيدًا ، حصلت على بعض الإجابات التي كنت أبحث عنها في «كراوتروكسامپلر» -وإن لم تكن تلك إجابات أسئلة الحياة ، الكون ، وكل شيء- إلا أنها كانت كافية لقضاء وقتي أشرب الشاي في الظلام مع روحي . إن حدقت بما يكفي ، بإمكانك أن تختلق الأكوان!

بينما كان جوليان يتصور كيف سيكون عليه كتاب «كراوتروكسامپلر» ، قام بتسجيل أغنية روكي إركسون ، I Have Always Been Here Before ، ليقوم بتعديل الكلمات كي تتناسب مع مرحلته السحرية الجديدة ، الرابية الطويلة من ويلتشاير ومقالة لكارل يونغ ، يلخصها جميعًا في أربع دقائق ونصف .

«الرجل الطفل يتضاءل عائدًا من العالم المجهول
والرجل الناضج مهدد بالتضحية
كل من يبالغ في حماية نفسه من الجديد والغريب
فهو هارب من الماضي .»[1]

---

(١) قارن هذا بمقالة يونغ ، مراحل الحياة : كل مَن يحاول حماية نفسه من الجديد والغريب ويهرب للماضي ، يسقط في الفخ نفسه الذي يسقط فيه كل مَن يربط نفسه بكل جديد ويهرب من الماضي . الفرق أن أحدهم يهرب من المستقبل ، والآخر يهرب من الماضي . رجل حديث يبحث عن روح ١٩٣٣ ، الصفحات ١٠٤-١٠٨ .

هنا ، وجدت الدرس الذي كنت أبحث عنه ، ليس هذا درس «كراوتروكساميلر» وحسب ، بل درس «قائمة الإصلاح» بأكملها . لا تخف من الحاضر ولا من الماضي ؛ بل استخدمهما معًا لتواجه المستقبل .

ربما قد حان الوقت ، إن لم يكن لوضع الأشياء الطفولية جانبًا ، ربما لمشاركتها مع الطفل الذي يسكن في الغرفة التي بجواري . جمعت كل القصص المصورة التي كنت أملكها وقصص سيلڤر سيرفر وتركتها في صندوق في غرفة ألكس . كي أدعه يعثر عليها بنفسه عندما يكون مستعدًا لهذا . قد تكون هذه المجلات مادة لحوار شيق بيني وبينه عندما يكبر .

حاشية: كن حذراً من أمانيك .

أجلس على مكتبي ، وأفكر في طريقة جيدة لإنهاء هذا الفصل ، وفجأة يطرق أحدهم على باب مكتبي .

«أبي؟»

«نعم ، ألكس ، ماذا تريد؟»

«هل أستطيع أن أسألك سؤالًا؟»

«اسألني .»

«أبي ، عندما كنت طفلًا ، مَن كنت تحب من الأشرار في قصص سبايدر–مان؟»

«أوه ، لا أستطيع تذكر أسمائهم ، ساعدني ببعض الأسماء .»

«مايستيريو ، سيد الوهم .»

«نعم ، كنت أحبه .»

«النسر .»

«كان جيدًا .»

«الكنغر .»

«لا أتذكر هذه الشخصية . هل كان هنالك فعلًا شخصية بهذا الاسم ، أم أنك اختلقتها من رأسك؟»

يذهب ألكس إلى غرفته ويعود سريعًا ليريني مجلة سبايدر–مان ، العدد رقم ٨١ ، «عودة الكنغر!»

«إنه يقفز قفزات هائلة ، انظر .»

«أرى ذلك . هل يحمل نسخة مصغرة منه في جيبه الأمامي أيضًا؟»

«أبي! هل كـان غـالاكـتـوز الشـرير المفـضل لديك في سلسلة سبايدر-مان؟»

«أفترض ذلك . ولكنه لم يكن في سلسلة سبايدر-مان بشكل أساسي ، تجده أكثر في ذا فانتاستك فور أو في قصص سيلڤر سيرفر .»

«مَن كان الشرير المفضل لديك في سبايدر-مان إذن؟»

«همم . . أحببت العفريت الأخضر .»

«الأول أم الثاني؟»

«انظر ألكس ، لدي عمل لأنجزه .»

«أوه حسنًا .»

لاحقًا .

«أبي؟»

«ألكس؟»

«في قصة سيلڤر سيرفر ، هل كان ميفيستو هو الشيطان؟»

«نعم . في الحقيقة ، لا . ربما . الأمر معقد بعض الشيء .»

«هل كان ابن الشيطان هو ابن ميفيستو؟»

«لا ، لا أعتقد ذلك .»

«هل يلتقي ميفيستو بالشيطان في القصة؟»

«ألكس ، أحتاج أن أنهي عملي .»

لاحقًا .

«ألكس ، سألتني إن كان ميفيستو سيلتقي بالشيطان أبدًا ، أرسلت السؤال إلى ستيوارت لأنه يعرف أكثر مني بهذا الخصوص .

ورد علي ، (آه ، أعتقد أن الشيطان وميفيستو وحدتان منفصلتان عن بعضهما . الشيطان بالتأكيد شخصية مستقلة وأتذكر هذا السطر الذي يصفه «إنه واحد من الحكّام للأبعاد الكونية .» أتمنى أن يساعدكم هذا .)»

«أبي ، عندما كنت طفلًا ، من كانت أحب شخصيات مارڤل إليك؟»

«سبايدر-مان ، إكس-من ، سيلڤر سيرفر ، فانتاستك فور ، آڤنجرز . أحببتهم جميعًا . لقد تعلقت بهم عندما كنت في عمرك . إنهم أحد الأشياء الهامة في طفولتي . أتساءل ما هي الأشياء الهامة التي ستتذكرها من طفولتك حين تكبر .»

«أنت تكتب كتابك لأوقات طويلة جدًا وطويلة وطويلة ثم تقول بأنك انتهيت منه ثم تعود لكتابته لأوقات أطول وأطول بعد ذلك .»

«أوه . . .»

«ولكن هذا يجعلك تجلس في البيت لمدة أطول ، وبإمكاني رؤيتك ، فلذلك لا أمانع .»

«شكرًا ، ألكس .»

وهكذا ، ليس لأول مرة خلال كتابتي لهذا الكتاب ، إن كان بإمكاني أن أطلق عليه Greatbooksampler ، أغلقت باب مكتبي علي وبكيت مثل نورن راد .

الكتاب ٤٥

الجسيمات الأولية - ميشيل ويلبك

(كتب إضافية من ثلاثة إلى عشرة - «أيًا يكن» ، «منصة» ، «لانزاروتي» ، «احتمالية جزيرة» ، «إتش . بي . لفكرافت : ضد العالم ، ضد الحياة» ، «فن المعاناة» ، جميعها من تأليف ميشيل ويلبك.
«أعداء عموميون» - لميشيل ويلبك وبيرنارد-هنري ليڤي)

«إحدى رسائل القرّاء التي منحتني أعظم متعة في حياتي كانت من ذلك الرجل الذي بدأ بربط (بموهبة عالية) قصصًا مختلفة من حياته الخاصة ، ثم أدرك أن هذا ليس كافيًا ، وأن عليه أن يرسم الخطوط العريضة للثيمات الأساسية في هذه القصص ، وأن يضع شخصياته الأولية ، وأن يحدد الضوابط الاجتماعية ، وأشياء أخرى كثيرة قام بتدوينها والعمل عليها ، ليصل لاستنتاج لخصه في جملة واحدة ، كانت هذه الجملة هي ما أردت أن أسمعه لوقت طويل : (شكرًا لكل العمل الشاق الذي تقوم به .)»
أعداء عموميون

كلمة توضيحية أخرى

هل تتذكرون كيف كانت بداية هذا الكتاب، في المقدمة، كان هنالك اقتباس للكاتب مالكولم لوري يصف فيه الكتاب ويقول بأنه أشبه بآلة؟ بدأ الأمر هكذا: «يمكن قراءته ببساطة على أنه قصة بإمكانك تجاوزها إن أردت. ويمكن قراءته على أنه قصة سوف تحصل منها على الكثير إن لم تتجاوزها.» وتقرأ ذلك المقطع وتفكر، «ماذا يقصد؟، ما علاقة هذا الكلام بأي شيء؟» حسنًا، الفصل التالي لهذا المقطع كان مرتبطًا جدًا به. ولكنه غريب ومحير وربما ستريد أن تتجاوزه. ولو كنت محرر ذلك الكتاب لحذفته. ولكني لست المحرر، بل الكاتب. ولبعض الوقت، بإمكان الكاتب أن يتحكم في هذه الآلة أخيرًا.

ما يعقب ذلك المقطع هو رسالة معجب كتبها آندي ميلر إلى ميشيل ويلبك بعد أن انتهى من قراءة روايته «الجسيمات الأولية». وكغالب رسائل المعجبين إلى الكتّاب كانت الرسالة مشوهة ومتدفقة، ومخجلة قليلًا، ولكنها تقبض على شيء ثمين يتمثل في اندفاع الحماسة، والاستسلام الكامل، الذي يظهر لمرات قليلة في حياتنا، عندما نقرأ كتابًا للمرة الأولى ونفكر: نعم، إن العالم هنا بالضبط.

قبل رواية «الجسيمات الأولية»، قرأ آندي ميلر العديد من الكتب العظيمة؛ ومؤخرًا ألهمته القراءة ليكتب كتابًا جديدًا بنفسه. وفي هذه الرسالة إلى ويلبك التسمم المسكر للقراءة من أجل القراءة. بالتأكيد نحن سكارى، وبالتأكيد فإننا نقوم أحيانًا بفعل أشياء نندم عليها لاحقًا.

إن كنت ستقرر أن تستمر بالقراءة من هنا، علي أن أذكرك

بتصريح آخر للكاتب من مقدمة هذا الكتاب : «أنا لا أحاول إقناعك بقراءة كل الكتب المذكورة في هذا الكتاب .» منذ أول صفحة في رواية «الجسيمات الأولية» شعر آندي ميلر أنها رواية عظيمة ، أعظم ما قرأه خلال سنوات ، كما ستعرف إن قررت ألاّ تتجاوز هذا الفصل . أتفق معه . ولكنك لست مُجبرًا على مشاركتي هذا الشعور . وكأعضاء نادي الكتاب الذي كان يحافظ عليه آندي ميلر ، قد تكون قرأت «الجسيمات الأولية» قبل سنوات مضت ولم تُعجب بها ؛ أو ، بناءً على ما رأيت وقرأت في الصحف والمجلات ، قد تشعر أنك تعرف كل ما تحتاجه عن كاتبها المثير للجدل . حاول ألا تدع كل هذا يمنعك من اقتحام غموض النقطة التي هي : مهما كان سنّك ، لا تستبعد احتمالية وجود كتاب سيجعلك تتدفق وتشتعل حماسًا وتقدم على فعل شيء ستندم عليه لاحقًا . هذا يعني أنك مازلت على قيد الحياة .

والآن لنقرأ الرسالة ونحسم الأمر .

إم . ميشيل ويلبك
في مكان ما في إيرلندا ، أعتقد

العزيز ميشيل ويلبك ،

اسمي آندي ميلر . لا ، لست ذلك الشخص . أنت لا تعرفني . لم يسبق لنا أن التقينا ، وبعد أن تقرأ هذه الرسالة ، سوف أصلي وأدعو أن لا ألتقيك على الإطلاق . كما يقول مارك إي . سميث ، «لا ينبغي لك أن تلتقي بأبطالك أبدًا ، أتعلم ما أقصده؟ والعكس صحيح .» .

إنني أكتب إليك من بهو المكتبة البريطانية في لندن . منشأة القديس بانكراس ، والتي تتكون من غرف للقراءة ، معارض ، عدد من المقاهي ، ومتجر ، وتم تصميمها بواسطة المصمم المعماري كولن سانت جون ويلسون ، لتفتتح أبوابها سنة ١٩٩٧ . إنها أكبر منشأة عامة تم بناؤها في المملكة المتحدة خلال القرن العشرين ، وتم استهلاك عشرة ملايين لبنة بناء و١٨٠,٠٠٠ طنًا من الأسمنت لإنهائها . في وسط المنشأة هنالك برج زجاجي يتكون من أربعة طوابق ويحتوي على مكتبة الملك ، ويبلغ عدد الكتب فيها ٦٥,٠٠٠ نسخة بالإضافة إلى الكتيبات والمخطوطات والخرائط التي جمعها الملك جورج الثالث بين سنة ١٧٦٣ وسنة ١٨٢٠ المجموعة الرئيسية التي تتكون من أكثر من ١٥٠ مليون عنصرًا ، تزداد أعدادها كل سنة بمقدار ثلاثة ملايين عنصر سنويًا ، كالبكتيريا أو كخلايا السرطان عندما تنتشر في جسد المريض .

إنني أجلس قرب مدخل المكتبة على منحوتة للفنان بيل وودرو تحت اسم «الجلوس على التاريخ» . المنحوتة تأخذ شكل كتاب مفتوح ، مصبوب بالبرونز ، ومربوط إلى كرة وسلسلة . الكتاب المفتوح يؤدي وظيفتين في مدخل المكتبة ، أولًا يؤدي وظيفته كقطعة فنية ، ثانيًا يؤدي وظيفته ككرسي يمكن للزوار الجلوس عليه . أراد وودرو لهذه القطعة أن ترمز إلى الكتاب كآسر للمعلومات التي لا نستطيع الهرب منها . وبدا لي أن هذا العمل الفني يحمل رسالة متشائمة ، ولا تتناسب مع موقعه عند مدخل المكتبة . ولكن ربما كنت قد قرأت العمل بطريقة خاطئة .

القبو أسفل المنشأة له عمق يبلغ ٢٤,٥ مترًا . أنا مدين لويكيبيديا مثلك تمامًا .

ميشيل ، لقد اخترت هذه البقعة لأنني اعتقدت أن المفارقة ستُعجبك ، وأيضًا لأنه لا يوجد مكان آخر للجلوس هنا اليوم . عندما بدأت بالتردد على هذه المكتبة قبل خمسة عشر عامًا ، القليل من الناس كانوا يملكون حاسبات محمولة . كان الجميع يدونون الملاحظات على الورق ، بأقلام الرصاص . أما اليوم فالممرات مليئة بالزوّار المستخدمين للإنترنت ، بظهورهم المنحنية ، وأعينهم المشغولة بالتحديق إلى الشاشات . ونتيجة لجلوس العديد من الزوار على أرضية مدخل المكتبة لإيصال أجهزتهم بالكهرباء ، قامت إدارة المكتبة بإعادة النظر في سياسة السماح باستخدام المقابس الكهربائية في البهو وفي عدة قاعات عامة أخرى . لقد تم تسجيل العديد من حالات الإصابات بسبب تعثر البعض بأسلاك الأجهزة في الممرات الخاصة بالمكتبة ؛ بالإضافة إلى ذلك يقوم الزوار بتغيير أماكن الأثاث بشكل مستمر ، ويتسببون في منع الوصول إلى دورات مياه ذوي الاحتياجات الخاصة ، ومعدات مكافحة الحريق . وحسب موقع bl.uk فإن العديد من زوار المكتبة يقومون باستخدام مقابس الكهرباء فيها لشحن هواتفهم النقالة ، مشغلاتهم الموسيقية ، وحتى فرش أسنانهم الكهربائية . أرجو منك ملاحظة أن التوصيلات الكهربائية غير مسموح باستخدامها في المكتبة .

وبالتأكيد فإنني عرضة لهذا التغيير أيضًا . أكتب إليك من حاسبي المحمول الفضي من طراز Sony Vaio ، بشاشة حجمها ١٥,٥ إنش ، ومعالج من نوع Intel® Core™ 20.53 GHz ، مساحة الرام فيه ٤ غيغابايت ، ومساحة ذاكرته ٥٠٠ غيغابايت ، ويحتوي على مشغل أقراص DVD ، وأستخدم برنامجًا لتحرير النصوص يدعى OneNoteInte™ Mobile ، إنك بحاجة إليه . أنصحك

بإعادة صقل مواهبك في برنامج Excel- ستحصل على بعض الدروس المصورة إن أردت التعلّم! هذا الجهاز Vaio ، ليس جهازًا سيئًا ، ولكن أداء بطاريته ضعيف ، وهي نقطة ضعف في هذا الطراز ، قرأت عنها في بعض مراجعات المستخدمين على الإنترنت . حاليًا ، أحتاج للوقوف والبحث عن مقبس كهربائي حتى أتمكن من شحن الجهاز . بالإضافة إلى أن «الجلوس على التاريخ» أثبتت أنها تسبب ألم المؤخرة .

حسنًا ، لقد انتقلت إلى الطابق العلوي حيث غرفة القراءة الخاصة بالكتب وتسجيلات الموسيقى النادرة . حيث بإمكاني أن أجلس بطريقة مريحة على كرسي باستخدام واحد ، وبإمكاني أيضًا أن أصل جهازي المحمول بمقبس الكهرباء ، لأستطيع استكمال كتابة هذه الرسالة ، ولأتمكن من تفادي التسبب في إصابة أحد المارة في أروقة المكتبة بسبب تعثره المحتمل بسلك الجهاز . ٢٩٤ هو رقم الطاولة التي أجلس عليها . في هذه الغرفة ، وعلى هذه الطاولة ، تعرفنا على بعضنا - برغم أننا ، كما قلت سابقًا ، لم يسبق لنا أن التقينا . لقد اخترت أحد أيام عطلتي لأقرأ فيه رواية غراهام غرين «اسم الحركة» . لقد كان غرين يكره هذا الكتاب ، وبعد نشره المبدئي سنة ١٩٣٠ ، قام بإلغاء توزيعه وطبعه ؛ ولم يظهر بعدها أبدًا ، وأصبحت نسخه الأصلية الأولى تباع بمئات الدولارات الآن . وبناءً على طلبي ، تم توفير نسخة نادرة في غرفة القراءة التابعة للمكتبة العامة هنا . لقد حصلت على ٢٣ يوم إجازة من عملي هذه السنة . من الأفضل لي أن أقضيها هنا على أن أقضيها في فندق في دوردوني في الجنوب الفرنسي ، لأتعرض للنصب بواسطة مزارع من أهل البلدة وابنه الطماع ، الذي سينتحل أقرب

فرصة يرى فيها والده يحتضر، كي ينقله إلى منزل للمسنين دون أن يزوره بعدها.

قبل عدة سنوات، عندما كنت أبحث عن كتاب يتحدث عن فرقة The Kinks، أمضيت أسبوعين كاملين في منشأة المكتبة البريطانية في كولينديل، شمال لندن. وعلى عكس منشأة القديس بانكراس التي كانت مصممة بطريقة لامعة تشعرك بأنك تجلس في مبنى من المستقبل، كانت المباني في كولينديل أشبه بمشهد من كوميديا الأخوين Boulting من خمسينات القرن الماضي. لم تكن هنالك كافتيريا أو مطعم، مجرد غرفة للقراءة بمقاعد بلاستيكية حمراء، وآلة لبيع الوجبات الخفيفة. وفي وقت الغداء، كان جميع القرّاء والباحثين في الغرفة تناول طعامهم - الذي قاموا بإحضاره معهم- دون النظر إلى بعضهم البعض. وكنت أشاركهم في هذا الفعل وأدعو في سري أن يتركوني وشأني.

الجو العام في غرف قراءة القديس بانكراس لا يجعلك تشعر بأنك منغمس في فعل محرج. الأشخاص هنا يقومون بالقراءة بشكل يستحق المحاكاة. هنالك إحساس بالسمو يشعرني به التأمل الواضح الذي أراه من حولي، لدرجة أنه حتى لو كان أحد الموجودين هنا قد أتى ليقرأ للمتعة فقط -إن كان هذا الشيء موجودًا حتى الآن- فإنه يشعر بالتحاقه بهدف جماعي نبيل. تم كتابة الكثير عن تهمة الإيروتيكا التي تحوم حول مكان كهذا. هل أرى أي نساء جميلات، مهووسات بالقراءة، بصدورهن الكبيرة هنا؟ هل يذهبن لزيارة دورات المياه بشكل مستمر لممارسة الجنس؟ لا، لأن هذه مكتبة عامة وليست إحدى روايات ميشيل ويلبك.

في الوقت الذي كان يحدث فيه كل هذا، كنت على وشك

الانتهاء من رحلة طويلة قضيتها في قراءة خمسين كتابًا عظيمًا كنت قد كذبت بشأن قراءتها في الماضي ، منها الروايات ، والكلاسيكيات ، بعض كتب السياسة والفلسفة . بعض الاختيارات التي قمت بها كانت متوقعة مثل : «موبي-ديك» ، «كبرياء وتحامل» ، «جين اير» . وتنوعت اختياراتي كثيرًا . لقد كان مشروعي يتكون من قراءة عدد من الكتب ، لكنني كنت أشعر أنني أقوم بجهد بطولي . وخلال قيامي بهذا الجهد ومعاناتي ، كنت آمل أن أجد دهشة الحب من النظرة الأولى ، أو لمعان الضوء الذي سيريني الطريق أمامي . لقد غيرتني هذه الكتب وألهمتني وجعلتني أشعر بالتواضع الشديد - مَن يستطيع قراءة «آنا كارنينا» دون أن يجرّب كل هذه المشاعر؟ - ولكني كنت على موعد غامض مع دهشة حقيقية قادمة وجديدة . كانت رواية «المعلم ومارغريتا» شديدة الوقع علي ، وكذلك كتاب جوليان كوپ «كراوتروكسامپلر» . ولكنني رغم هذا كنت مازلت أنتظر كتابًا آخرًا يستطيع أن يزلزلني ويدهشني تمامًا .

الكتابان اللذان انتهيت منهما أخيرًا كانا «حبيب» لتوني موريسون ، و«ضد الطبيعة» لهويزمانز . كانت رواية موريسون رائعة ، كأنها نموذج للإنجاز التقني في الكتابة ، كأنها منتج بديع الصناعة . وماذا يمكن أن أقول عن هويزمانز دون أن أكرر المديح الذي قيل عنه آلاف المرات؟ إنه مضحك ، ناضج ، منحط ، وغير قابل للهدم ؛ بإمكاني أن أملأ الرسالة هذه باقتباسات من كتاب «ضد الطبيعة» ، مقاطع كاملة ، أدهشتني بغرابتها وبحس الفكاهة والتجديد فيها . إنها رواية شريرة ، وعظيمة في الوقت نفسه . لقد التهمت وقدّرت هذين الكتابين «حبيب» ، و«ضد الطبيعة» لقيمتهما الأدبية

والثقافية ، واستمتعت جدًا خلال قراءتي لهما ، ولكنهما كانا مجرد كتابين ؛ ربما لم يكن من المنطقي توقع تجربة أكثر عمقًا مما حصلت عليه . كانا يشبهان ألبومين من ألبومات نيل يونغ ، «Sleepless with Angels» ، و«Trans» على التوالي ، كان الأول دليلًا ناضجًا على إتقان الصنعة الفنية ، وكان الثاني نتيجة مرحلة من التجريب تستحق التأمل ، وكلاهما يتناسبان مع تجربة نيل يونغ ، ومحبوه يعرفون هذا جيدًا . أو هكذا كان إحساسي في ذلك الوقت .

إنني في الأربعين من عمري ، متزوج ، وأب ، مهما حاولت الالتفاف على هذه الحقائق ، إنني رجل ناضج . في منتصف رحلة الحياة ، كان من غير الواقعي ، إن لم يكن من المثير للشفقة أن أتوقع من الكتب أن تكون أكثر من مجرد كتب .

في طريق خروجي من المنزل ذلك الصباح ، أخذت معي نسختي من رواية «الجسيمات الأولية» من على الرف ، لأنها كانت الرواية التالية في القائمة ولأنني كنت بحاجة لكتاب أقضي معه رحلة القطار . كانت هذه النسخة هي ذاتها التي اشتريتها في نهاية القرن العشرين دون أن أقرأها . وفي المحطة بدأت بتصفح مجلة بدلًا من قراءة الرواية ، يبدو أنها عادة من الصعب التخلص منها . وبينما كان الخريف يغادر مسرعًا ، كنت أقلب صفحات المجلة وأحدّق خارج النافذة ، لأحافظ على طاقتي لكتاب «اسم الحركة» . عندما وصلت إلى المكتبة ، كنت سعيدًا وأنا أراقب نظام المكتبة الجديد ، حيث يمكنني وضع متعلقاتي في خزانة لأدخل المكتبة وفي يدي قلم رصاص ، مذكرة ، ورواية . صعدت على السلم المتحرك إلى غرفة الكتب والموسيقى النادرة ، وجدت الطاولة رقم ٢٩٤ ،

أحضرت نسخة من «اسم الحركة» ، جلست على هذا الكرسي الممتاز وبدأت بالقراءة .

لقد كانت الرواية سيئة . وبدا وكأن أحدًا قام بتلفيق كتاب لهجاء إحدى روايات غراهام غرين . لا عجب أن غرين حاول أن يتخلص منها . لم يكن هذا الأمر شبيهًا برفض نيل يونغ إصدار ألبومه «Time Fades Away» سنة ١٩٧٣ ، والذي يعتبر بالمناسبة أحد أفضل ألبوماته على الإطلاق . كانت رواية «اسم الحركة» سيئة على كل المستويات ، وضع المشاهد ، الثيمات ، الشخصيات والحبكة ، كل هذا كان عبارة عن هراء . قد لا يمثل هذا الكتاب أي أهمية إلا لأولئك الذين يريدون قراءة أعمال غرين كاملة . ولكن رحلتي كانت متعلقة بالتنوير ، وليس الكمال ، لست أحد البرجوازيين الذين يحبون جمع الأشياء والاحتفاظ بها .

التقطت كتابك ، ميشيل ، وفتحته . ومثل كتاب غراهام غرين ، كانت تلك الطبعة الأولى منه ؛ وكان اسم الناشر ويليام هاينمان . والذي انضم إلى دار النشر الشهيرة بينغوين راندوم هاوس بعد مفاوضات طويلة في الثمانينات ، لتصبح الشركة تضم أكثر من ١٠ آلاف موظف حول القارات الخمس ، وتتعامل مع ما يقارب ٢٥٠ مكتب تحرير في المملكة المتحدة ، أهم كتّابها على الأغلب حضرتك والمتأخر مايكل جاكسون . وبنصف تركيزي ، قمت بالنظر إلى افتتاحية المقدمة في كتابك :

هذه مبدئيًا قصة الرجل الذي عاش أكبر جزء من حياته في أوروبا الغربية ، في النصف الأخير من القرن العشرين . رغم أنه كان وحيدًا في معظم الوقت ، إلا أنه كان على اتصال دائم بالرجال الآخرين . لقد عاش في عصر تعيس وبائس . كانت البلاد التي

ولد فيه تتجه ببطء لتنضم للبلدان الأقل تطورًا ؛ وكانت غالبًا ما تحيطه الأفكار البائسة ، ورجال جيله الذين كانوا يعيشون حياتهم الوحيدة والمُرّة أيضًا . كانت المشاعر الطبيعية مثل الحب ، الحنان ، والرفقة الإنسانية ، على وشك الاختفاء ؛ كانت العلاقات بين معاصريه مليئة باللامبالاة في أفضل الحالات ، وقاسية في أغلبها .

ها! كان هذا جيدًا .

أقرأ المزيد . عالم أحياء يدعى ميشيل دجرزينسكي كان قد أقام حفلة شراب بسبب مغادرته لمؤسسة الأبحاث بعد أن عمل فيها لسبع سنوات . كانت الحفلة فاشلة بطريقة كئيبة ؛ وبحلول الساعة السابعة والنصف كانت الحفلة قد انتهت . يمشي ميشيل مع إحدى زميلاته ليوصلها إلى سيارتها ، كانت السيارة من نوع غولف . يبتسم ، يصافحا بعضهما . يتذكر أن يبتسم ، ليستعد نفسيًا ، ويتساءل إن كان بإمكانهما تحية بعضهما بتقبيل الخد ، «مثل زوّار كبار الشخصيات أو الأسماء الشهيرة في الوسط الإعلامي .» وعندما لا تقوم الزميلة بتشغيل سيارة مباشرة ، يذهب ميشيل ليجلس في سيارته تويوتا ويصيبه الفضول لمعرفة ماذا تفعل في سيارتها . هل كانت تستمتع لموسيقى برامس؟» يقود ميشيل سيارته عائدًا إلى شقته الباريسية ، ويشعر بأنه «شخصية خيالية في فيلم قد رآه خلال دراسته بالجامعة» . اكتشف أن طائر الكناري الذي يملكه قد مات . يتناول وجبة جاهزة ، ويضع الطائر الميت مع النفايات : «ماذا كان يجب عليه أن يفعل؟ يصلي لروحه؟» يذهب ميشيل للسرير ، يحلم بكابوس فيه الكثير من الديدان العملاقة ، يستيقظ ، يشرب قهوة باردة ويتناول فطائر بالجبنة وصلصلة الطماطم ، يبتلع عددًا من الحبوب المنومة ويغمى عليه . «هكذا

انتهت أول ليلة له من الحرية .»

كان هذا كافيًا . جمعت أشيائي ، وأعدت «اسم الحركة» إلى طاولة إعادة الكتب ، أخذت حقيبتي من الخزانة عند بوابة الدخول ، ودون أن ألتفت حتى إلى «الجلوس على التاريخ» ، اتجهت مباشرة إلى شارع إيوستون وركبت باص رقم ٣٩٠ واتجهت إلى منطقة آرك–واي . والدهشة التي انتظرتها طويلًا ، حضرت للتو .

بينما كنت أقرأ هويزمانز قبل عدة أيام ، قمت بكتابة هذا المقطع من «ضد الطبيعة» ، وفيه استطاع هويزمانز أن يقبض على ما كنت أبحث عنه : «مهما حاول القارئ تبرئة نفسه من تحيزاته وعواطفه ، إلا أنه يفضل بشكل تلقائي تلك الأعمال التي تتفاعل مع شخصيته بشكل حميم . لقد أراد ، بشكل مختصر ، عملًا فنيًا لذاته ولما يسمح له العمل أن يكون ، وكأن العمل الفني أشبه بصديق يقف إلى جانبنا ، أو مركبة تحملنا إلى حيث نريد .» وهنا كنت ، تحملني روايتك «الجسيمات الأولية» ويحملني باص رقم ٣٩٠ إلى آرك–واي . لو كان هذا كتابًا ، لكان مثاليًا تقريبًا .

وصلت إلى آرك–واي تاڤرن حيث الحانة التي التقطت فيها فرقة The Kinks صورة غلاف ألبومهم Muswell Hillbillies سنة ١٩٧١ . شعرت أنني منجذب للمكان مثل قطعة سالمون ، أو مثل فيل يحتضر ، أو ، لأكون دقيقًا أكثر ، مثل كهل معجب بفرقة The Kinks . ومثلما فعلت حين استمعت إلى رواية «اللامسمّى» لصامويل بيكيت في حانة – إنها قصة طويلة ، ميشيل – أردت أن أخرج من العالم ، بكأس في يدي ، وبآلات الموسيقى من حولي ، وبعض زوار الحانة الإيرلنديين . لقد شعرت بالحدس أن رواية «الجسيمات الأولية» كانت رواية حية ، ولهذا السبب لم أكن

بحاجة لقراءتها في المكتبة ؛ المكتبة التي احتجتها كانت بداخلي .

سأخبركم لماذا أعجبتني «الجسيمات الأولية» : لقد كانت مضحكة بشكل وحشي ، مر ، ومفزع . جلست في تلك الحانة وكنت أضحك بشدة وفي أغلب الأحيان كان علي التوقف ووضع الكتاب جانبًا كي أتمكن من فرك عينيّ . نعم لقد كانت كئيبة . وبالتأكيد كانت رواية قذرة ، ولكنها كانت حيّة وشعرت أنها تتحدث إليّ بشكل مباشر . لقد كنت مندهشًا لدرجة لم أستطع فيها إلا أن أضحك .

لست متأكد إن كنت أستطيع أن أقع في حب كتاب دون أن أجده مضحكًا ، ولو قليلًا . قد يكون هذا فشلًا من جانبي ، ولكن إن لم يستطع الكاتب أن يمنح القارئ أي مسكن يمكنه من التعامل مع الألم ، فإني أجد صعوبة في أخذ عمل الكاتب على محمل الجد . ربما كان السبب في هذا هو أنني إنجليزي . وفي نهاية «الجسيمات الأولية» هنالك شخصية إنجليزية تتحدث قائلة :

«يقول البعض أحيانًا أن الإنجليز باردون كالأسماك ، متحفظون ، أنهم ينظرون إلى الأشياء بطريقة خاصة -حتى المآسي- يتناولونها بشكل ساخر . هنالك بعض الحقيقة في هذه النظر ؛ ولكنها غبية جدًا أيضًا . السخرية لن تنقذك من أي شيء ؛ الفكاهة لا تفعل شيئًا على الإطلاق . بإمكانك أن تنظر للحياة نظرة ساخرة لسنوات طويلة ، وربما لعقود طويلة ؛ هناك بعض الأشخاص الذين يقضون حياتهم بأكملها وهم ينظرون فقط للجزء الساخر من الحياة ، ولكن في النهاية ، تتمكن الحياة دائمًا من تحطيم قلبك . لا يهم إلى أي درجة كنت شجاعًا أو متحفظًا أو إلى أي درجة استطعت تطوير حس الفكاهة لديك ، سوف ينتهي بك

الأمـر بقلب مـحطّم . في تلك اللحظة سـتـتـوقف عن الضـحك . وبعـدها ، لن تجـد سـوى الصـمت البـارد والوحـدة . وربما سـتـقـول ألاّ شيء بعـد ذلك سـوى الموت .» هل من الخطأ أن أجـد هذا المقطع مسليًا؟ لا أقصد أن «الجسيمات الأولية» كانت رواية مضحكة فقط –لقـد كـانت صـاعـقـة للدمـاغ ومـحطمـة للقلب ، وكل الصـفـات الأخـرى التي ذكـرتهـا بالأعلى– ولا أنهـا كـانت مـجـرد رَواية مضحكة . بالنسبة لرجل مثلي يقترب من عيد ميلاده الأربعين ، لم تكن مطمـئنة على الإطلاق . كل الشـخـصـيـات التي وصلت العقد الخامس في الرواية كانت مكتئبة ، منفرة ، أو معذبة جنسيًا ، يلاحقها الشعور بالشيخوخة التي تقترب ببطء ، ليمزقها السرطان أو الموت . ولكن وجـهـة النظر التي قدمتـها الرواية عن الحياة الحـديثة بدت حقيقية للغاية بالنسبة لي ، شديدة الحساسية وشجاعة ، بإمكاني فقط أن أضحك بينما أشعر بالامتنان والتقدير . لقد كان الوجود يتكسّر إلى جسيماته الأولية : العمل ، الرغبة ، الشيخوخة ، الموت ، والوجـبـات الجـاهزة . في ذلك اليـوم بالذات في آرك–واي تافرن ، أمـامي كـأس بيـرة من Guinness ، ومـوسـيـقى The Kinks تعزف في الخلفية ، لـم أشعـر أن «الجسيمات الأوليـة» كـانت رواية التـتـمـة أو المقـدمـة لأي من الكتب التي قـرأتهـا في «قـائمـة الإصلاح» . بل شعرت كأنها الحياة .

هل استمعت إلى ألبوم نيل يونغ «Rust Never Sleeps» الذي أصـدره سنة ١٩٧٩؟ عليك أن تسـتـمع إليـه الآن ؛ في رسـالـة إلكترونية إلى برنارد–هنري ليڤي ، تكتب : «لو كانت هنالك فكرة ، فكرة واحدة تتمحور حولها كل رواياتي ، ستكون استحالة توقف أي عملية من عمليّات الفناء عندما تبدأ .» لماذا تستخدم ثلاث كلمات

في حين أن ثلاثين كلمة ستؤدي المعنى ، هاه ميشيل؟ الآن قرأت أعمالك الأخرى ، الروايات ، كتب الشعر ، شاهدت الأفلام التي أخرجتها ، حتى أنني استمعت إلى تسجيل الألبوم الذي قمت بالعمل مع برفقة برتراند بورغالات -تعلم أنني أحبك ، آسف ، ولكنه سيء جدًا- بإمكاني تأكيد صحة هذا التصريح . ولكني أقدر التكرار في كتبك : الاجتهاد في وضع أسماء الفرق الموسيقية بشكل صحيح ، المراجع والإشارات للأفلام والموسيقى والتي ، على عكس الكثير من كتّاب الرواية ، تنجح في تدوينها بدقة . رسمك لبورتريه المجتمع حيث يتحول كل شيء فيه إلى سلعة . لستُ متضايقًا من الكمية الهائلة التي تحصل عليها شخصياتك من الجنس أو بالسيناريوهات شبه الإباحية التي تصفها .

أين كنا؟ أوه نعم .

هنا في المكتبة البريطانية - والتي هي ، إن كنت تتذكر ، المكان الذي كنت أكتب فيه هذه الرسالة اليوم - بدأت الناس من حولي بإغلاق أجهزتهم المحمولة وفصل أسلاكهم من المقابس الكهربائية . غرفة الكتب والموسيقى النادرة ستُغلَق قريبًا وعلي أن أجمع أشيائي وأذهب إلى المنزل أيضًا . ولكنني استمتعت بجلوسي هنا ، ميشيل ، وأنا أتحدث إليك بهذه الطريقة .

إنني أكذب عليك طبعًا . لم يكن الأمر ممتعًا ؛ ولست في المكتبة البريطانية حتى . في الواقع ، لقد تركت الطاولة رقم ٢٩٤ منذ أكثر من أسبوع ، بعد أن بدأت بالمقارنة بين «ضد الطبيعة» و«حبيب» بعدد من ألبومات نيل يونغ الغريبة . هذه الرسالة ، والتي لن تُرسل أبدًا ، أخذت من وقتي الكثير : في القطار ، في مكتبي ، في المقهى ، على الأريكة وأنا أشاهد Oggy et les Cafards مع

ابني . والآن أنا في المنزل ، أجلس إلى مكتبي وأفكر فيما سأتناوله غدًا في وجبة الغداء . أيًا يكن ، كي نحافظ على هذا الوهم الجميل لفترة أطول ، لنتظاهر معًا ، بعد كتابة ٤٠٠٠ كلمة في اليوم ، ها ها ها ها ، أنني تركت المكتبة البريطانية وكنت مرة أخرى في حانة آرك-واي تاڤرن ومعي كأس من البيرة ، لأنسى هذه الرسالة تمامًا . يبدو ذلك معقولًا .

عندما كنت طفلًا ، كان دوغلاس آدمز أول بطل عرفته في عالم الأدب . كنت أحب كُتّابًا آخرين في طفولتي بالتأكيد ، ولكن دوغلاس آدمز كان الكاتب الأول الذي كنت أرى فيه صورة الكاتب الذي يجلس إلى مكتبه ويستخدم محرر النصوص بطريقة ذكية ، عفوية ، ورائعة ، لينتج نصوصه بعدها بكل سهولة . حتى في الأوقات التي لم يكن يكتب فيها شيئًا ، وكانت هذه الأوقات كثيرة جدًا ، كان مايزال ملهمًا لي . عندما كنت أبلغ من العمر اثنا عشر عامًا أتذكر أنني كنت مندهشًا جدًا بكتابته «المطعم في نهاية الكون» : «إلى ألبوم باول سيمون One-Trick Pony والذي استمعت إليه عندما كنت أكتب هذا الكتاب . خمس سنوات مدة أطول من أن تحتمل .» واو . هاهي الوظيفة التي تمكنك من البقاء في منزلك ، لتتناول السندويشات ، وتستمع إلى ألبومات موسيقية تحبها . من خلال تجربتي ، بقيت هذه كأفضل الإكراميات التي يمكن الحصول عليها خلال الكتابة .

رشفة متخيلة من بيرة Guinness لترافق هذا السندويش الحقيقي .

هل أخبرك أحد من قبل إلى أي درجة تذكّر أعمالك بسلسلة روايات دوغلاس آدمز «دليل المسافر إلى المجرة»؟ لو كان هنالك

جملة مكتوبة على غلاف روايتك «الجسيمات الأولية» فإنها حتمًا لن تكون الجملة الشهيرة على غلاف روايات دوغلاس DON'T PANIC . ولكن استمع إلي . أنت ودوغلاس آدمز تنسجان قصصكما من وحي النظريات العلمية والفلسفية . ترسمان صورة الفرد تحت رحمة كون سخيف وعدائي . لديكما حس فكاهة ملفت ، بالتأكيد ، برغم أنك أكثر سوداوية وتوحشًا من آدمز . لا أدري إن كنت ستشعر بالإطراء أم بالفزع من هذه المقارنة ، ولكني أرميها عليك كقط يرمي جثة طائر ميت عند أقدام مالكه .

في رواية «المطعم في نهاية الكون» ، اخترع آدمز آلة شيطانية تدعى «دوّامة المنظور الكامل» ، والتي تستطيع استخراج الوجود بأسره من قطعة كعك : «عندما تُوضع في الدوّامة فإنك سترى في لحظة واحدة لمحة من الأبدية اللامتخيلة للخلق ، وفي مكان ما داخلها هنالك علامة صغيرة ، نقطة مجهرية على نقطة مجهرية ، تقول (أنت هنا)» . قد قرأت هذه الجملة أكثر من ألف مرة في السنوات الثلاثين الماضية ؛ ولم تخفق أبدًا في جعلي أبتسم . بطلك إتش . بي . لفكرافت بنى قصصه المرعبة والخارقة للعادة على المبدأ ذاته – معاناة العقل البشري في فهم ما أسماه «الآفاق المخيفة للواقع» . جملة إليوت الشهيرة من «برنت نورتون» تشير إلى النقطة ذاتها ولكن بالشعر : «الجنس البشري لا يستطيع تحمّل الواقع» . وما أراه في كتبك يا ميشيل ، عبارة عن مركّب من الطرق الثلاثة – الكوميديا ، الرعب ، والشعر اليومي . وإن كان آدمز بطلي عندما كنت صبيًا ، فإنك بطلي الآن . استمتع بطائرك .

عندما كنت في السابعة عشرة ، توفي والدي . في صباح يوم ما ، قبل أن أستيقظ أصابته نوبة قلبية . كنت أراقب حدوثها .

جاءت سيارة الإسعاف وأخذته للمستشفى، ثم ذهبت إلى المدرسة؛ وتوفي هو بعد عدة أيام في المستشفى. لقد كان وحيدًا عندما مات. وبعد سنوات طويلة، قد أكون تمكنت من تخطي تلك الصدمة، وقد لا أكون - مازال الوقت مبكرًا للحكم. ولكن يبدو أن تلك اللحظة المُرّة قد جمّدت ردود أفعالي تجاه الثقافة، وشكّلت عاطفة جامحة بحاجة إلى استعادة تلك المشاعر؛ وكبالغ، مازلت لا أعرف كيف أستعيدها. أليست الرغبة في البحث عن الأبطال - حتى لو كان من يمر بها رجل في منتصف عمره- رغبة مراهقة؟ وكذلك انتظار التحفيز والنصيحة من أشخاص لم يسبق لك أن التقيت بهم؟ ورغم هذا لا يبدو أنك تخليت عن أبطالك - ليس فقط لفكرافت ونيل يونغ، بل بودلير، دوستويفسكي، باسكال، شوبنهاور. نحن الاثنان نعود لأبطالنا للسبب ذاته: لأنهم يخبروننا دائمًا بالحقيقة.

التقيت بدوغلاس آدمز عدة مرات، أربع إن لم أكن مخطئًا. رأيت بطلي وجهًا لوجه. تفاصيل هذه اللقاءات مخيبة للأمل عليها أن تنتظر لوقت لاحق حتى أسردها بإسهاب. يبدو أنهم يعلنون عن قرب موعد إغلاق الحانة في آرك-واي تارڤن - أسرع، لو سمحت، الوقت حان! - وعلي أن ألحق بقطاري أيضًا. أخذت كأس البيرة المتخيّل وشربته دفعة واحدة.

آخر قصتين سأخبرك بها قبل أن أرحل. قبل عدة أشهر كنت في نيويورك عندما أقام نيل يونغ عدة حفلات موسيقية في ماديسون سكوير غاردن. حصلنا على تذاكر ليلة الافتتاح، في الخلف عند الشُرفة العلوية. وعندما أظلمت القاعة، قام رجلان أمامنا بالوقوف وقرع الأكواب الورقية للاحتفال تحية لنيل يونغ.

وبدأت الموسيقى وكانت أجمل أغاني نيل وأكثرها ضجيجًا :
“Hey Hey ، My My - Into the Black", "Powderfinger", "Cinnamon Girl", "Cortez the Killer" ...

ثم بدأت الفرقة بعزف أغنية لا يبدو أن أحدًا كان يعرفها سوى من على خشبة المسرح . عندما انتهت ، بدا أن عددًا قليلًا من الحضور كان راضيًا . ثم تلتها ثلاث أغنيات غير معروفة أيضًا ، بدأ الرجلان اللذان كانا يقفان أمامنا بفقد صبرهما وصرخ أحدهما : « نيل! اعزف أغنية نعرفها!» صديقه الذي كان يرتدي تي شيرت عليه صورة نيل يونغ ، والذي اشتراه للتو من المتجر في الخارج ، صرخ أيضًا « نيل ، إنك أخرق! لا نريد مزيدًا من الهراء!» بعدها ، اقترب نيل من مكبر الصوت ، وقال «أنت ، إننا نقدم تجربة أداء أمام شركة التسجيلات القديمة التي كنا نعمل معها . رئيس الشركة ، مديرها التنفيذي ، جميعهم هنا الليلة . لذا عندما تستمعون إلى هذه الأغاني الجديدة ، سواءً أعجبتم بها أم لا ، عليكم التصفيق بحرارة ، حسنًا؟» وبعدها قام بغناء أغنية فاشلة أخرى . صرخ جيراننا «أخرق!» . وكان الجميع سعيدًا .

وبشكل مشابه ، في قصته القصيرة «الأختان ڤين» يلعب ڤلاديمير نابوكوف -الفنان المبدع الذي أظن أنك لا تقدّره كثيرًا- لعبة بارعة مع القارئ . يخفي نابوكوف رسالة من الأختين جاءت على شكل لغز شعري ، يتم تفكيكه بأخذ الحرف الأول من كل كلمة في المقطع الأخير لتشكيل لوح ويجا يمكنك من قراءة الرسالة من العالم الآخر . هذه ليست رسالة مشفرة لغرض التشفير فقط . نابوكوف يريدنا أن نحقق في نظرتنا للطريقة التي يتشكل بها العالم بواسطة قوى تختبئ أسفل السطح : الذاكرة ، القصص ، الألعاب .

ولكن عندما أرسل هذه القصة القصيرة لنشرها في مجلة ذا نيويوركر ، رُفضت بسبب غموضها . وعندما نُشرت أخيرًا في مجلة إنكاونتر بعد رفضها بثمان سنوات ، كانت المجلة مُجبرة على تحذير القرّاء من صعوبة فهمها بطريقة منطقية لأنه لا يستطيع أحد ، بما في ذلك الكاتب نفسه ، أن يكون متأكدًا من فك شفرتها . وكتب نابوكوف لاحقًا «هذه الخدعة بالتحديد يمكن استخدامها فقط مرة واحدة كل ألف سنة من الكتابة ، لكن هل أثمرت عن شيء؟ هذا سؤال آخر .»

ميشيل ، في الختام أريد أن أشكرك بطريقتي الخاصة ، لقد أعددت لك لغزًا خاصًا وضعته في المقاطع الأخيرة لهذه الرسالة . وأعني بها مزحة أتمنى ألاّ يفهمها غيرك . هل سينجح اللغز في تحقيق هدفي أم لا ، هذا سؤال آخر .

لماذا يحتاجنا أبطالنا؟ لنقدّسهم؟ لندفع فواتيرهم؟ لنحدث ضجيجًا حولهم؟ إن سقطت شجرة في غابة ولم يتمكن أحد من سماع صوتها ، هل يجب على الشجرة أن تطبع قصة لن يفهمها أحد؟ إن عزف نيل يونغ أغانيه الجديدة في الغابة ، هل من حق السناجب أن ترشقه بالجوز وتصدر أصواتها الغاضبة لأنه أزعج العالم الحر؟ هذه أسئلة صعبة الإجابة . ولكن دون أبطالٍ ينيرون لنا الطريق ، سنبقى نتخبط في الجوار ، ضائعين في الضَّباب ، وحيدين .

الوقت يتلاشى ، غنّاها نيل مرة بصوت أنثوي ، «un peu de la femme, du vieilliard ou d'enfant» . إننا نسافر إلى الماضي ، بحثًا عن تلك الصور البسيطة التي بسببها فُتح قلب حاضرنا . لا نعرف إلى أي وجهة ننظر ، فقط نعلم أن علينا متابعة النظر ؛ السكون التام

موت . نستمع إلى أصوات أخرى ، وعّاظ ، معلمون ، فنانون حقيقيون ، ولكنهم بعيدون عنّا جدًا . هناك يقف المذنب ، يتحدث بحقيقة يجدها الآخرون بغيضة ، وتوقفنا هذه الحقيقة في مساراتنا . قد يأتينا الصوت من موسكو قبل مئة سنة أو من لوس أنجلوس في سبعينات القرن الماضي أو باريس في زمننا هذا أو لاورلس ، بريكفيلد تيرس ، هولواي . يتحدث إلينا الصوت ونسير باتجاهه على الطريق الصخري الوعر . نسقط على ركبنا ، ولكنه مازال يدعونا . رسالته قديمة : حافظوا على الحب ؛ استمروا بالمسير ؛ لا تشعروا بالنكران . إنه الجسر من تاريخهم إلى تاريخنا ، الأغنية التي سترافق مستقبلنا ، لتذكرنا بالرحلة ، بالرقصة الأخيرة .

ميشيل ، لا يهم أي شيء الآن ، لأنه بأكمله مجرد هراء : إليك الجملة التي خططت لإنهاء الرسالة بها . ولكن اللحظة حانت الآن ، وأشعر أنني لا أستطيع أن أفعلها . ربما تكون مضحكة ، لو بالنسبة لي وحدي ، ولكنها لن تكون حقيقية . كتبك المخزية ، بكل سخريتها ويأسها ، وتجاهلها التام للمجتمع المعاصر وهوسه بحتمية فناء الجسد ، تشاؤمه المتأصل المُر ، عرض عليّ ما أدرك الآن أنه ما كنت أبحث عنه منذ وقت طويل : الأمل . بإمكانني الآن أن أعيش في العالم ، طالما أنه يمتلئ بكتب مثل «الجسيمات الأولية» .

رجاءً – je vous en prie!– خذ الكلمة الأخيرة :

«إنه صوت البشر ، يخبرنا بشيء سخيف ومهم : سيظل العالم دائمًا على هذا الحال ، إنها طريقته ، وهذا ليس سببًا يجعلنا نستسلم ونتوقف عن محاولة جعله أفضل .»

المخلص

أ . ميلر

كلمة توضيحية أخيرة

حسنًا ، لا تقل أنني لم أحذرك .

القرّاء الذين وصلوا إلى هذه النقطة من الرسالة قد يشعرون بالفضول الآن تجاه طبيعة اللغز الذي يشبه لغز نابوكوف والذي تحدثت عنه مسبقًا في الرسالة . في الصفحة التالية أرجو منكم الإشارة إلى بداية المقطع المجاور «Time Fades Away» . . وفي المقطع خبأت أسماء أغاني نيل يونغ من هذا الألبوم بالترتيب ذاته التي تظهر به في الألبوم : اسم الأغنية :

"Journey Through the Past," "Yonder Srands the Sinner"

وهكذا .

يحتوي هذا المقطع أيضًا على صور معينة وعبارات من كتاب «سنة القراءة الخطرة» من المستحيل تمييزها إلا من قبل الكاتب ، أو بعض القرّاء شديدي الملاحظة الذين لم يقلبوا الصفحات لقراءة فصل «الحرب والسلام» .

ما يحاول الكاتب قوله هو - اللعنة ، ما أحاول قوله هو أنه في هذا المقطع يبدو اللغز واضحًا جدًا ، إنه أكثر تعبير مزخرف يمثل فكرة تتكرر على مدار صفحات هذا الكتاب وكأنها حلزون مزدوج . إننا مخلوقات مصنوعة من الفن والتجربة ، وما نقرؤه في الكتب هو محصلة لهما . وإن كان ميشيل ويلبك على حق ، وكانت الحياة دائمًا قادرة على تحطيم قلبك - عندما تبدأ عمليات الفناء فإنه لا توجد رجعة - الفن هو ردة الفعل المساوية والمعاكسة لذلك الشعور المحطم للقلب ، إن كان كتابًا عظيمًا أو أحد ألبومات نيل يونغ المنسية .

الوقت يتلاشى ، وبمعنى آخر ؛ وهذا ليس سببًا لجعلنا نتوقف عن محاولة جعله أفضل .

الكتب ٤٩ و٥٠

الحرب والسلام – ليو تولستوي
شفرة وودسترز – بي .جي . ودهاوس

«لم يكن فوقه الآن سوى السماء – السماء الشامخة ، ليست صافية ولكنها شامخة بشكل هائل ، بسحب رمادية تتحرك ببطء عبرها . (كم هِي هادئة ، مسالمة ، ومهيبة ؛ ليست مثلي عندما جريت تلك المرة ،) فكّر الأمير آندرو (ليست مثلنا عندما جرينا ، وكنا نصرخ ونقاتل ، ليست مثل المسلحين والرجل الفرنسي بأوجههم الغاضبة والخائفة وهم يحاولون مسح المنطقة : كم هي مختلفة عنا تلك السحب وهي تنزلق عبر السماء الشامخة اللامنتهية! كيف لم ألاحظ هذه السماء الشامخة من قبل؟ كم أنا سعيد لأنني وجدتها أخيرًا! كل الأشياء غرور ، كلها خطأ ، عدا هذه السماء اللامنتهية . لا شيء ، لا شيء عداها . ولكن حتى السماء غير موجودة ، لا شيء سوى الهدوء والسلام . شكرًا للإله! . . .)»
الحرب والسلام ، الكتاب الأول ، الجزء الثالث ، الفصل ١٦

«أوقفت السيارة .
(انتهت الرحلة ، جيڤيس؟)
(هكذا أتخيل ، سيدي .)»

شفرة وودسترز

على بعد خمسة وعشرين دقيقة بالسيارة من منزلنا على طريق الساحل ، توجد أنقاض دير من القرون الوسطى . في الأيام المعتمة ، عندما يمتلئ الهواء بالمطر ويصطدم ماء البحر المالح بالصخور في الأسفل ، لا توجد وجهة أكثر رومانسية من هذا المكان . السماء واسعة ، والنور سماوي ، والاحتمالات هائجة ودراميّة . هذا المكان ، تتحدث إلى نفسك ، إنه من المشاهد التي يلتقطها ترنر في أحد مناظره البحرية ، أو أحد المناظر التي ألهمت ديبوسي للعمل العظيم «La Mer»[(١)] . وكلما درست هذا المنظر بإمعان ، يصبح من الصعب عليك الحفاظ على انطباع الأفق اللانهائي . بعض توربينات الرياح الصناعية تظهر في المشهد . وبعيدًا عبر ضباب طبقة الأوزون ، ترى عيناك الأبراج الخرسانية للبحر الجنوبي وجزيرة شيبي . تذكر نفسك بأن هذا ليس البحر الواسع الكبير لملفل أو مردوخ ، بل إنه البحر الذي يستقبل آلاف الجالونات من المخلفات البشرية يوميًا . وتتذكر أنه في منتصف هذا البحر تندفع مياه المجاري ، وتتذكر أيضًا أن محافظ لندن كان يأمل قبل عدة سنوات أن يطفو بمطار دولي هنا . تشتري كوبي قهوة من الآلة في مركز الزوّار بقلب مثقل .

«عيد ميلاد سعيد ،» قلت لزوجتي وأنا أضع القهوة وأبعد

(١) أوه ، حظ سيء! قام ترنر برسم العديد من اللوحات الرائعة المشابهة لتلك التي رسمها لشاطئ كينت ؛ ولكن أغلبها تم رسمها من غرفة مقابلة للبحر في فندق غراند هوتيل ، في الشاطئ الجنوبي ، وليس الشرقي . نعم لقد عدت لكتابة الحواشي ، هل اشتقتم إليها؟ لم أضع أية حواشي في الفصل السابق لأنه اتخذ شكل رسالة طويلة .

بيدي الأخرى ما على الطاولة من مخلفات السكر والمناديل الورقية الخاصة بمن كان يجلس هنا قبلنا .

كان أنف تينا يسيل وكان خدّاها محمرّين لإصابتها بالبرد . «لقد كنت أحتاج تلك المناديل» قالت لي . بجانبنا كان ألكس ، يرقد في عربته . شربنا قهوتنا بطريقة صامتة يطلق عليها خبراء العلاقات اسم «الصمت اللطيف» .

لقد كنا في بداية أكتوبر ، موسم السحب ، الثمار اليانعة ، وعيد ميلاد زوجتي . لقد مر ما يقارب العام على رحلة برودستيرز ، والتي بدأت معها دون قصد رحلة «قائمة الإصلاح» . لقد كنّا جميعًا أكبر بعام ، على الأقل . خلال ذلك الوقت ، كنت قد انتهيت من قراءة ثمانية وأربعين كتابًا عظيمًا . لم يكن الأمر خاليًا من الألم أو المأزق ، لذلك عندما اقتربت من خط النهاية ، كنت مصممًا على اجتيازه ؛ لن أقوم بأي فعل غبي على طريقة قصة «عدّاء المسافات الطويلة» . بعد أن حصدت غنيمتي من «عن عبودية الإنسان» ، ومن «كبرياء وتحامل» ، قبل الكريسمس ، تعلمت درسًا هامًا جدًا : اركض حتى نهاية السباق . لقد كفّرت عن أخطائي السابقة ، وعن سلكي لطرق مختصرة في بعض المناسبات ، لقد عمّقت معرفتي وتقديري للمناظر الطبيعية ، وأججت بداخلي الرغبة في الخروج واستنشاق الهواء وممارسة التمارين ، وبهذا أعني العكس تمامًا ، الجلوس في المنزل ووضع أنفي في الكتب .[1] وأكبر جائزة حصلت عليها هي أنني تعلمت من أخطائي السابقة . بثمانية وأربعين كتابًا ورائي ، وكتاب واحد لدان

(١) استعارة! ما فائدتها؟ لا شيء بالتأكيد .

براون ، لقد درّبت نفسي على القراءة بشكل جيد مرة أخرى . وأصبحت الآن أعيش بلياقتي الكاملة . ولم أكن لأسمح لكل هذا أن يضيع دون جدوى .

بينما كنا عائدين إلى السيارة بعد مغادرتنا لمركز الزوّار ، بدأت الرياح تشتد ، وبدأ المطر بالهطول ، في تلك اللحظة ناديت تينا وقلت لها : «أريد أن أستقيل من وظيفتي ، وأعمل لحسابي الخاص .»

«صحيح ،» أجابتني من داخل قبعة معطفها المبتل ، المعطف ذاته التي جلبته معها في شهر العسل الذي قضيناه في اسكتلندا .

«أيضًا ، أريد أن أكتب كتابًا آخر .» قلت لها .

«هل هذه الأخبار هي هدية عيد ميلادي؟» قالت لي بينما كانت تفتح باب السيارة ، وكانت بالمناسبة ڤوكسفاغن پولو ، وهي السيارة ذاتها التي اشتريناها قبل سنتين ، ووعدت أن أتعلم قيادتها دون أن أفي بوعدي .

«بالتأكيد لا ،» أجبتها .

«هل علي أن أمثل دور السيدة پڤسنر هذه المرة؟»[١] سألت تينا بحذر .

---

(١) هذه ليست إشارة لشيء قد يحدث في غرفة النوم . عندما انتقلنا في بداية التسعينات للعيش معًا ، استأجرت وتينا شقة في بناية المقر الرئيسي للمجتمع الڤيكتوري في حديقة بيدفورد . كان المجتمع الڤيكتوري عبارة عن منشأة خيرية وضعت تقديرًا للجهود المبذولة في دراسة وحفظ المعمار الڤيكتوري ، ومن بين أهم الأعلام التي ساهمت في هذا المعماري الألماني نيكولاس پڤنسر ، الذي قام بكتابة العديد من الكتب في هذا الشأن . وبالطبع لم يتمكن پڤنسر =

«لا أظن ،» قلت لها .

«شكرًا للسماء على هذا ،» قالت . «كم من الوقت سيستغرق الأمر؟»

«١٨ شهرًا . . .؟» أجبتها بتردد ؛ «لا أظن أنه سيستغرق أكثر من هذا .»

«حسنًا ، إذن ،» قالت زوجتي ، بينما كانت تركب السيارة . «ما هي هدية عيد ميلادي؟»

«الحرب والسلام ،» قلت . «هل ستقرأينها معي؟ لدي نسختان منها في المنزل . ولكني لم أغلف نسختك بعد .»

نظرت إليّ تينا بعينيها الذابلتين الزرقاوين ، العينان ذاتهما اللتان كانت تنظر لي بهما طوال العشرين عامًا الفائتة ، بقعة من اللون البندقي في عينها اليمنى . عيناها اللتان بإمكانهما التواصل بمدى واسع من المشاعر ، من الدهشة إلى الغضب إلى السخط المُنصبِّ على الرجل الذي يجلس بجانبها في مقعد الراكب ، والذي سيكون مؤهلًا لإبداء رأيه في مهارات إيقاف السيارة بطريقة

= من إنهاء هذه الكتب وحده . كانت زوجته لولا بجانبه دائمًا . كانت تنتظره في السيارة بينما يتفحص الكنائس ويسجل ملاحظاته عليها ، وكانت توصله إلى مكان الإقامة الذي حجزته ، وتأكل السندويشات التي أعدتها له خلال الطريق ، وتظل مستيقظة حتى ينتهي من كتابة ملاحظته كاملة حول الرحلة . وهكذا كل يوم ، حتى تمكن زوجها من كتابة ثلاثين مجلدًا عن المعمار الڤيكتوري . وأصبح أحد الروّاد في الحياة الثقافية البريطانية بعد الحرب . كان نيكولاس يعرف كيف يقود السيارة ، ولكنه يفضّل ألاّ يقودها . كانت هذه العلاقة هي ما تعنيه تينا بالضبط .

متوازية عندما ، وفقط عندما ، يتعلم كيف يقود السيارة . عيناها اللتان أراهما في طفلنا ألكس ، تلك المرأة التي وقعت في حبهما بينما كانت تتجول في متجر للكتب ، قبل وقت طويل في مجرة بعيدة .

«حسنًا ،» قالت .

«شكرًا ،» أجبتها .

تدرس تينا تعابير وجهها في المرآة الجانبية للسيارة وهي تعاكس اتجاه الريح .

وبينما كنا نتجه من موقف السيارات إلى الطريق المؤدي إلى الخط السريع ، تحت أبراج الدير المقابلة للخليج والسماء الخفيضة . «من الماء يبدو وكأنها منظر متحرّك على حافة الصخور الكئيبة ،» هكذا يصفها كتاب دليل پڤسنر الخاص بشمال شرق منطقة كينت . يستمر الدليل بذكر الصفات المعمارية لمبنى ما ، يتحدث عن عدد الأعمدة الموجودة فيه ، وخصائص المواد المستخدمة في بنائه ، ثم فجأة ، ينفجر بطريقة غريبة لينتقد أي مبنى بشع أساء إلى ذوقه ونظره : «تحول هذا المبنى إلى مكان يستقبل قوافل من الزوار ، وأصبح مبتذلًا ، ربما يكون أكثر الأماكن ابتذالًا في البلاد .»

العديد من كتبي المفضلة تقوم بتقليد دليل پڤسنر في هذه الطريقة ، عندما يتم وضع الحكّاء مع الموضوع الذي يحكي عنه في مكان متصاعد الإيقاع ، ويظن القارئ أنه متحكم بسياق الأحداث ، حتى ينقلب كل شيء فجأة : «نار باهتة» لڤلاديمير نابوكوف ، «ثورة في الرأس» لإيان ماكدونالد ، «بغبغاء فلوبير» لجوليان بارنز ، أغلب روايات بي .إس . جونسون ، وحتى روجر لويس .

أيًا يكن ، لا أظن أن تينا زوجتي تملك الوقت الكافي لقراءة كتب تنتمي للمدرسة التناقضية . ويبدو أن هذا فن كتابي يمارسه ويستمتع به الرجال فقط ، وهذا يصيبني بالإحباط . في عيد ميلاد سابق ، أهديتها كتاب إيان ماكدونالد «ثورة في الرأس» ، وتوقعت أنها ستحب الكتاب ، لأنها تحب فرقة ذا بيتلز كثيرًا ، والكتاب يتحدث عن التأثير الثقافي للفرقة على المجتمع والعالم ؛ كانت إحدى أولى الأشياء التي أعجبت بها في زوجتي تينا ، هي قدرتها على تذكر أغاني الكريسمس الخاصة بهم . ولكنها لم تعجب بالكتاب على الإطلاق . ربما كان هنالك صفة ذكورية في جوهر فكرة أن يأخذ الكتاب تاريخ الفرقة كاملًا ويضعه بترتيب زمني ، ليزنه ويقيسه ، ثم يشتكي ويتذمر من الأجزاء التي لم تعجبه فيه . لقد حاولت أغلب فترات حياتي ألاّ أتصرف كرجل تقليدي ، لأكتشف بعد سنوات طويلة أن ذوقي في اختيار كتابٍ ما قد لا يكون محكومًا بذوقي أو باختياري ولكن بموضع الكروموسومات والأمشاج في تركيبي .

أغلب الرجال مُخجلون . يستمتعون بمشاهدة الأفلام الإباحية ، قنوات الرياضة ، سباقات السيارات ، حفلات الشواء وأدوات البناء ؛ روائحهم تشبه مزيل العرق Lynx . برغم أنهم يفضلون دائمًا صحبة الرجال ، إلا أنهم يخافون أن يعتقد أحد أنهم نساء أو مثليون . وبشكل عام يرون أن القراءة فعل أنثوي ، وبرغم أنهم قد يمارسون قراءة الكتب ، إلا أن الكتب التي يختارونها تميل لأن تكون عن جو سترمور ، أو عن المافيا ، أو لها علاقة بتطبيقات عملية جادة ، «كيف تقيم حفلة شواء وتبقي على صورتك كرجل» . صدرت إحصائية مؤخرًا تقول بأن هنالك أربعة من بين كل خمسة

آباء لم يسبق لهم أن جلسوا مع أبنائهم لقراءة قصص ما قبل النوم ، لأنهم يرون أن هذا من واجب الأم . أربعة من بين كل خمسة آباء! علي أن أتشارك دورات المياه العامة مع هؤلاء الحمقى .

لطالما قالت تينا أنها لا تستطيع تزوج رجل لا يحب الكتب . هل كانت تعي درجة طيش هذه الفكرة؟ لقد قامت بتقليص عدد شركاء الحياة المحتملين لها بنسبة ٨٠ بالمئة . فعلًا ، لا أمل من تذكيرها بأنها كانت محظوظة لأنها عثرت علي . وماذا لو لم أتعلم قيادة السيارة؟ لدي أسنان كاملة وأفضل أن أصرف قيمة اشتراك في قناة رياضية في شراء الورود وتذاكر حفلات ويست إند الموسيقية - والكتب ، طبعًا .

إنني أكافح كي لا أتصرف كرجل تقليدي . وكذلك تينا ، لا تتصرف كامرأة تقليدية على الإطلاق ، ولا تتجول في المنزل بكعبها العالي بالتأكيد . تينا ليست من نوع النساء اللواتي يذهبن مع صديقاتهن لقضاء نهاية الأسبوع في منتجع صحي لفندق فاخر ، أو حتى شراء أحمر الشفاه . لقد اعترفت لي أنها كانت معجبة بديڤيد تنانت عندما كان يمثل دور «دكتور هو» ، وكذلك كنت أنا معجبًا به . في الحقيقة ، كنا كلما تناقشنا عن علاقتنا ببعضنا توصلنا إلى أنها عبارة عن فعل مزدوج أكثر من كونها زواجًا تقليديًا . وخلال سنة الإصلاح ، دعمتني تينا وساعدتني . كانت تتكفل بكل مهام المنزل ، وتعتني بألكس في نهاية الأسبوع كي أتمكن من قراءة الخمسين صفحة التي أسعى لإنهائها خلال أيام السبت والأحد . أحيانًا أختفي وأذهب إلى مكتبة البلدة ، أو الواجهة البحرية ، وربما أحضر معي بعض الحليب أو الكعك عندما أنتهي ، بينما تكون تينا في المنزل تراقب ألكس وتلاعبه . كنت

أعلم أنني أتصرف كالآباء السيئين الذين أكرههم ، ولكن تينا كانت تعلم أنني لم أكن أحاول الهروب من مسؤولياتي ، وعندما أخبرتها أنني أريد الاستقالة من عملي ، وأسوأ من هذا ، وضع العائلة بأكملها في مأزق العمل على كتاب جديد ، كانت ردة فعلها إيجابية .

«سيكون كل شيء بخير ،» قالت لي لاحقًا تلك الليلة . «بالإضافة إلى أنني لا أريد لألكس أن يكبر ووالده غاضبٌ طوال الوقت .»[1]

قبّلتها .

«انتظري مكانك ، لم أغلّف هديّتك بعد ،» قلت لها .

كنت أقرأ وحدي أغلب السنة ؛ وكل محاولاتي لمشاركة تجربة القراءة مع أحد -نادي الكتاب ، المدونة- كانت تنتهي بطريقة سيئة وتشتتني عن هدفي الأساسي . أيًا يكن ، عندما حان الوقت لقراءة رواية «الحرب والسلام» ، تأملت جمال فكرة قراءة هذه الرواية مع امرأة أحبها ، وأحترم رأيها حتى لو اختلفت معه . لم تكن لدي أدنى فكرة عن طول رواية «الحرب والسلام» ، أو تعقيدها ، أو اتساعها الهائل ؛ ولم أعلم أنها ستكون مستهلكة للوقت بشكل كبير بالنسبة لشخصين لديهما وظيفة وطفل . كنت أعتقد أنها ستكون مثل «آنا كارنينا» ، ملونة ومشرقة . وكنت

(١) كأب ، لقد كان من المفيد بالنسبة لي اكتشاف أن الحب الغريزي العميق الذي أشعر به تجاه طفلي توازنه الكراهية التي أشعر بها تجاه أطفال الأشخاص الآخرين . ولهذا السبب تذهب الأم لخوض الحروب بحسب رأي تولستوي .

متأكدًا أنها ستعجب تينا ، لذلك اشتريت نسختين وتخلصت من إيصال الشراء فورًا .

وهكذا تمكّنا من إنهاء «الحرب والسلام» معًا خلال خمسة أسابيع . لقد أعجبت بها تينا كثيرًا . أظن أنه بإمكاني إخباركم بأننا ساعدنا بعضنا خلال هذه الرحلة ، خاصةً في الأجزء العصيبة من الرواية ، استعنّا بمهارات بعضنا لاجتياز كل عقبات تولستوي . ولكن لن أقول لكم أيًا من هذا ، لأنه لم يحدث على الإطلاق . قد يكون هذا مفاجئًا لكم ولكن «الحرب والسلام» كانت رواية سهلة القراءة .

«مدل مارش» كانت رواية صعبة . «موبي-ديك» ، «اللامسمّى» ، «أسفل البركان» : جميعها كانت أعمالًا صعبة القراءة . أما «الحرب والسلام» فقد كانت طويلة جدًا جدًا جدًا . لحسن الحظ فإنها كانت ممتعة بالدرجة ذاتها .

إليكم خمس نقاط في خطة تينا لقراءة الكتاب الذي تقول عنه ، «الكتاب الوحيد الذي ستحتاجه في حياتك» :

- اقرأ ٥٠ صفحة في اليوم .
- استخدم قائمة للشخصيات الأساسية في الرواية .
- انتبه! عمّا قريب ستكتشف أن تولستوي كان يقوم برفع الأثقال عنك .
- لا تتضايق إن لم تستمتع بجزء السلام من الرواية ، فإن الحرب ستأتي مع الأحداث .
- عندما تصل إلى النهاية ، اقرأها مرة أخرى .

لحظة انتظري تينا ، قد تود أن تقول لها . لا أملك الوقت «الحرب والسلام» من الأساس كي أعيد قراءتها . علي أن أحضر

الأولاد من المدرسة ، ثم علي أن أذهب إلى مغسلة الملابس . إلى جانب أنني لم أقرأ «علينا أن نتحدث عن كيڤن» بعد وقد قال عنها غوك وان أنها رائعة . بالإضافة إلى أنني رجل ، وقراءة الروايات تجعلني أتوتر ؛ لا أريد لأحد أن يتهكم علي ويقول بأنني هش . أظن أنني سأنتظر حتى يتم إصدار تطبيق «الحرب والسلام» للهواتف الذكية . حسنًا؟

جميعنا مشغولون ، ترد عليك تينا . حاول أن تجد وقتًا لهذه الرواية ، وستكون ممتنًا أنك فعلت . ٥٠ صفحة في اليوم ، إنها أشبه بمشاهدة حلقتين أي مسلسل تلفزيوني ؛ وإن كان «علينا أن نتحدث عن كيڤن» مهمًا لهذه الدرجة ، فإنه سيظل موجودًا للقراءة بعد مئة وخمسين سنة . تجاهل كل هؤلاء الصبية ، إنهم حمقى . أما ملابسك ، فتحتاج للقليل من مسحوق ڤانش .

ولكن تينا ، ترد عليها بصوت حزين ، لماذا علي قراءة «الحرب والسلام»؟ إنه كتابٌ طويل جدًا ، ووقتي ثمين . لماذا علي أن أقوم بأي شيء صعب على الإطلاق؟

لأنه يجب عليك أن تتعلم ألا تكون خفيف الوزن طوال حياتك ، تقول تينا . قبل أن أنجب ألكس ، كنت وآندي محبين للكتب . «الحرب والسلام» أثبتت لنا أنه بإمكاننا أن نكون آباء جيدين وقرّاء جيدين في الوقت نفسه . هذا كل ما في الأمر . لا أريد مناقشة الأمر أكثر .

ممتلكات تولستوي في يسنيا پوليانا تقع على بعد ١٠٠ ميل جنوب موسكو . ويقارن الزائرون من كل أنحاء العالم بين بيت تولستوي وغريسلاند . وكل شيء بقي على حاله كما كان في حياة تولستوي ؛ وتبدو الغرف في القصر غير أنيقة على الإطلاق . كيف

تمكنت المملكة الصغيرة من احتواء ملك كتولستوي؟

تحتوي مكتبة تولستوي على أكثر من ٢٢ ألف كتاب ودوريّة، لتغطي كل أنواع العلوم والمعارف الممكنة. لديه كتب من آداب العالم أجمع، موقعة ومهداة إليه من أعظم كتّاب العصر: غوركي، غلاسورثي، ستيد، برنارد شو، وآخرون. وهنالك العديد من كتب الفلسفة، الأديان، تاريخ الفن، العلوم الطبيعية، الجغرافيا، والتعليم. «هنالك شيء بوهيمي متعلق بهذه الكتب في هذا المنزل الهادئ بصرير أرضيته الخشبية،» كتب أحد الزوار لمنزل تولستوي سنة ٢٠١٠.

يقال أن تولستوي يمتلك ذاكرة معجزة لكل ما يتمكن من قراءته. هل قرأ جميع الكتب في مكتبته من الغلاف للغلاف؟ بالتأكيد لا؛ كان تولستوي يفضّل أن يتصفح الكتب بسرعة، ليقرر إن كانت تستحق القراءة أم لا، وربما يضع بعض العلامات على المقاطع التي قد تفيده لاحقًا. هل امتلك كتبًا أكثر مما كان يحلم أن يقرأ؟ بالتأكيد؛ كان تولستوي يتحدث ١٥ لغة، بما فيها الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، العبرية، واليونانية القديمة، ومكتبته كانت تحتوي على كتب بأكثر من ٢٥ لغة: السواحيلية، السانسكريتية، الإسبرانتو. وبعد موت تولستوي، قام سكرتير بالاتصال ببولغاكوف - ليس بولغاكوف ذاته للأسف - وبدأ بعملية تصنيف هذه المجموعة التاريخية، وكانت المهمة ضخمة لدرجة أنه تلاميذه وأتباعه مازالوا يعملون حتى اليوم، يحررون «مجلات اللغات الأجنبية» و«الموسيقى والمسودات»، المجلد الرابع والخامس على التوالي، من المكتبة العظيمة لتولستوي التي تحتوي على كتب تتحدث عن كتب تتحدث عن كتب.

قضى تولستوي في مكتبته ست سنوات قاسية حتى انتهى من كتابة رائعته «الحرب والسلام» . وغالبًا ما شعر بنقص الإلهام وعدم الاستقرار ، ولكن شغفه للقراءة دفعه للأمام ، وكذلك فعلت زوجته صوفيا . «لديه الكثير من الأفكار ولكن متى سيتمكّن من كتابتها؟» هكذا كتبت عنه في مذكراتها - ظلال كاساوبون ودوروثيا .[1] لقد نهب تولستوي أرفف مكتبته لصالح الخلفية الاجتماعية والتاريخية للكتاب ، كان يعتمد على المذكرات ، كتب التاريخ ، والسير الذاتية ، وأيضًا على رسائله ومذكراته الخاصة ، بالذات تلك التي عاصرها في حرب القرم ، حين خدم في الجيش كملازم ثانٍ . ولكن الكتاب الذي أثّر في «الحرب والسلام» أكبر تأثير كان كتاب الفيلسوف الألماني شوبنهاور «العالم كإرادة وتصوّر» . كتب تولستوي إلى أحد أصدقائه بينما كان ينهي الفصل الأخير من روايته : «هل تعرف ماذا يعني لي هذا الصيف؟ سعادة مستمرة بسبب شوبنهاور ، وسلسلة كاملة من البهجة الروحية لم يسبق لي أن مررت بها من قبل ،» يعترف تولستوي بوضوح وشفافية عالية أن الاستنتاجات الفلسفية في «الحرب والسلام» وخاصةً تلك المقاطع الطويلة التي تتحدث عن التاريخ وإرادة الفرد - وأفعال الرجال العظماء - جميعها نبعت من أفكار شوبنهاور . يأمر الجنرال بالهجوم ولكن نتيجة المعركة تحكمها قوى ليس للجنرال

(١) هل سبق لكم وأن فكرتم كيف تمكن الكتّاب قبل عصر الكمبيوتر أو حتى الآلة الكاتبة من جمع أعمالهم؟ لقد جعل تولستوي زوجته تنسخ رواية الحرب والسلام كاملة بخط يدها والتي تتكون من ثلاثة آلاف صفحة ، ليس مرة واحدة ، بل سبع مرات .

سيطرة عليها : هذه هي طريقة فهم التاريخ . في يومنا وعصرنا هذا ، تحاول الشخصيات الملهمة للملايين أمثال ستيف جوبز وبيل غيتس أن تفرض إرادتها على العالم لأسباب تتعلق بالطموح الشخصي ، المال ، «الرؤية» ، وغيرها ؛ ولكن الآثار التي تأتي بها التكنولوجيا التي جاءت مع هذه الشخصيات ، تعتبر نتيجة لأفعال ملايين من البشر ، ليس شخصًا أو شخصين . لقد كتب تولستوي التاريخ حين كتب «الحرب والسلام» ؛ أعاد كتابة التاريخ ، قليلًا ، في كل مرة يقرر أحدٌ منا قراءتها .

برغم أنني وتينا استمتعنا بقراءة «الحرب والسلام» معًا ، إلا أننا أعجبنا بأشياء مختلفة في الرواية . تينا ، التي لم يسبق لها أن قرأت تولستوي ، سحرتني قدرته الفائقة على إدراك الطبيعة البشرية ، وتصوير جميع مراحل الحياة ، كشعوري بالضبط في الكريسمس عندما كنت أقرأ له «آنا كارنينا» . «إنه لمن المطمئن جدًا معرفة أن هذه معاناة بشرية واحدة نتشارك فيها جميعًا ، ونتشارك في حلّها أيضًا ،» كتبت إليّ تينا في رسالة ، ورفضت أن تتراجع عن رأيها حتى بعد أن أخبرتها بأن هذا ما يقوله الناس بالضبط عن «كيف تظهر جميلًا وأنت عاري» .

أما بالنسبة لي ، فقد ذُهلت من التوتر الذي تتميز به «الحرب والسلام» في قصص تولستوي التي يحكيها بنفسه - ملحمة عائلات روستوف ، بولكونسكي ، وبيزوخوف ؛ بتفاصيل دقيقة لحملة نابليون الكارثية سنة ١٨٠٥-١٨١٢ ؛ تاريخ لكل الطبقات الروسية خلال الحقبة التاريخية ذاتها - ونفاد صبره مع مرور الوقت بسبب الشكل الذي كان يروي فيه كل هذه الحكايا . وعندما انتهى من كتابة «الحرب والسلام» كان قد أصابه الملل من فن الرواية

بأكـمله ؛ وأصـبح كل مـا يريد التـحـدث عنه هو بعض الأفكار الفلسـفيـة المستوحاة من شوبنهاور . مشاعر تولستوي المضطربة تجاه فن الرواية استـمرت في التزايد حتى وصل إلى مرحلة تمكن فيـها من توحيد القصص المتضاربة في خاتمة واحدة طويلة ، وكان يتدرب فـيـه هذه المقـدمـة على صـيـاغـة أفكاره الفلسـفـيـة والتـاريخـيـة عن الإرادة . وكل هذا ، في رأيي ، جـعل من «الحرب والسـلام» قطعـة فنية متناقضة .

السـؤال المهـم المتـعلق بالناحـيــة التـقـنيّـة لكتـابة «الحـرب والسلام» : هل «الحرب والسلام» رواية فعلًا؟ هذا ما أغاظ البـاحثين منذ وقت صدورها ؛ وأغاظ تولستوي نفسـه ، الذي قال بأنها ليست رواية ؛ «ليست رواية ، حتى أقل من كونها قصيدة ، وأقل من كـونها وقـائع تاريخـيـة» ، هذه كلمـات تولسـتوي . بعـد عـدة سنوات عـاد تولسـتوي إلى «الحرب والسـلام» وقام بمراجعـتـهـا ، ليـحـذف الخـاتمة الثانية وكل المقاطع الفلسـفيـة اللاحقـة لها بنيّـة نشرها في كـتـاب منفـصل . وبعد إنهاء «آنا كـارنينا» بوقت قـصير سنة ١٨٧٧ «روايتي الأولى» ، كما وصفها - خضع تولستوي وتحوّل إلى مسيحي زاهد ، وقـاده هذا لاحـقًا إلى تأسيس طائفته الدينيـة الخاصة به وإعـلان نفسه قائدًا لها ، وتخلّى عن كل رواياته عدا تلك التي تحتوي على أهداف أخلاقية عالية . سنة ١٨٨٦ ، صوفيا ، التي أصبحت محررة لأعمال زوجها ، المنفذة والممثلة الرسمية له على كوكب الأرض ، وأول قـرار اتخـذته كـان إعـادة «الحـرب والسـلام» إلى صـورتهـا الأصلية ، لأن النسخة التي قام تولستوي بتعديلها أصبحت تميل أكثر لكونها نسخـة تعليـمية من الكتـاب ، ولم يكن هذا ما يريده القرّاء .

كان هنالك الكثير من الخيال في رواية «الحرب والسلام» ، والتاريخ كذلك ، الفلكلور ، الفلسفة ، الشعر ، والسياسة : محتويات مكتبة تولستوي العظيمة . وهذه صفة في «الحرب والسلام» دائمًا ما يتم النقاش حولها ، وهي أنه كتاب يحتوي على كتب عديدة بداخله ، ولذلك قالت تينا أن عليك العودة إليه مرة بعد أخرى ؛ بالنسبة لتينا ولمحبي «الحرب والسلام» ، فإنه الكتاب الوحيد الذي قد تكون بحاجة لقراءته . لقد غيّرت «قائمة الإصلاح» حياتي ، بشكل تدريجي وبطيء ، خلال مرور أيام السنة ؛ كتابًا بعد كتاب ، لقد أنارت لي هذه العملية طريقًا آخر لأسلكه ، طريقًا للأمام . ولكنني وصلت إلى مفاجأة اللحظة الأخير . إلى كتاب غير حياة زوجتي للأبد . تقريبًا في ليلة واحدة ، لقد جعلتها «الحرب والسلام» تستغني عن كتب العالم .

علي أن أقول بأنني أتحدث عن شراء الكتب ؛ بعد «الحرب والسلام» ، قرأت تينا كتبًا أكثر ، وتعرفت على أنواع مختلفة من الكتابة الأدبية . واستمرت في إهداء الكتب وتلقيها ؛ مازالت تحضر الكتب لألكس ليقرأها ، وتستعيرها من الأصدقاء أو من المكتبة العامة ، المكان الذي تأخذ ألكس إليه صباح كل سبت ، كما كان يفعل والداي معي . ولكن الرغبة في تملّك كتب فقط لمجرد تملكها ، يبدو أنها اختفت من تينا . وأشعر أنها اختفت مني أنا أيضًا . لشعورنا أننا وجدنا كتابًا يحتوي على جميع الكتب ، نظرنا من حولنا وسألنا أنفسنا : ما فائدة كل هذه الكتب الأخرى؟

«أظن أن عليك الإلقاء بهذه المجلات في سلة النفايات ،» قالت تينا بعد عدة أسابيع من إنهائنا لرواية «الحرب والسلام» . كنا نقف معًا في قبو المنزل وننظر إلى صناديق المجلات والدوريات التي

جلبناها معنا من لندن عندما انتقلنا إلى هنا قبل سنتين .

«ماذا عن الكتب؟» سألتها . كان هنالك ما يقارب اثنا عشر صندوقًا من الكتب هنالك لم نفتحها حتى . وفي المنزل كانت أرفف الكتب مليئة ومزدحمة . «هل تستطيع تذكر ما تحتويه هذه الصناديق؟» سألتني تينا .

فجأة تذكرت وقلت لها : «نسختي من كتاب «كراوتروكسامپلر» ، لا شيء غير هذا .»

«هاهي إجابتك ،» ردت علي .

وهكذا بدأنا بتفريغ الصناديق في القبو ، وفي العلية ، وفي المطبخ . وقمنا أيضًا بإفراغ كل ما في غرفة التخزين من صناديق . وشيئًا فشيئًا استطعنا أن نختار الكتب التي أردنا الاحتفاظ بها ، والتي أردنا التبرع بها ، والتي أردنا بيعها . والبقية عرضناها على أصدقائنا في أندية الكتب ، والذين كانوا انتقائيين بشكل مبالغ فيه بالمناسبة . وبعد هذا لم أستطع معرفة إن كنت تخلصت من حمل ثقيل على ظهري ، أو تسببت في إحداث فجوة في داخلي لن تلتئم أبدًا . في هذه المرحلة من الصعب معرفة ذلك .(٤٥)

بهذه الطريقة ، جددنا نذورنا للقراءة .

أرجوكم ألاّ تفهموا الأمر بطريقة خاطئة : مازلنا نملك عددًا

---

٤٥ أعلن جوليان كوپ مؤخرًا أنه ينوي بيع كل التسجيلات التي يملكها . قال : إنها سنة ٢٠١٢ إخوتي وأخواتي ، ولدي نية في نشر كل ما أستطيعه من إرشيفنا ، حتى الآلات الموسيقية - حتى أتمكن وعائلتي من السفر بحريّة في السنوات القادمة . أربعون سنة من الأسطوانات القديمة؟

هائلًا من الكتب . دون أن نتحدث عن الكتب الإلكترونية ، إننا نملك ثلاث ترجمات مختلفة لرواية «الحرب والسلام» وحدها . العديد من الأرفف الإضافية تم تركيبها في غرفة النوم وغرفة المعيشة وجميعها ممتلئة . مازالت هناك صناديق لم تُفتح في القبو ، وكتب طبخ لم تُقرأ في المطبخ . ولكن بيننا ، كنا نحاول أن نصنع مكتبة فريدة نستطيع أن نستفيد منها ، ويستفيد منها ألكس في المستقبل ويكون فخورًا بها ، وأردنا لها أن تحتوي على كتب تعني لنا الكثير ، أو كتب ستعني لنا الكثير عندما نقرر قراءتها أخيرًا . إننا نفكر مليًا قبل أن نضيف كتابًا إلى هذه المكتبة ، نعم أننا نملك الحظ الذي مكننا من الحصول على كل هذه الكتب دون عناء . إنها ليست كمكتبة تولستوي ولكنها مكتبتنا - إن كنت ستستعير كتابًا ، حاول فقط ألَّا تفسد غلافه .

بعد «الحرب والسلام» ، تبقى أسبوع واحد على انتهاء سنة القراءة الخطرة . كانت الخطة هي أن أنهي السنة بقراءة كتاب إي . إم . فورستر «نهاية هاوردز» ، دون أي سبب سوى احتواء العنوان على كلمة «نهاية» .

«أريدك أن تختاري الكتاب الأخير في القائمة ،» قلت لتينا .

فكرتْ قليلًا ثم قالت لي : «هل قرأت أي كتاب لودهاوس؟» .

إذن بهذه الطريقة سوف تنتهي «قائمة الإصلاح . لقد كنت متأكدًا من امتلاكي لنسخة من كتاب ودهاوس «شفرة ووسترز» في مكان ما من المنزل . ربما كانت في رف قرب سريرنا . قرأناها معًا في الأيام التالية واستمتعنا بها كثيرًا . لقد كان كتابًا مضحكًا عن سرقة الوعاء الخاص بإعداد القشدة المستخلصة من البقر . أنهينا الكتاب وأعدناه إلى الرف . خلال عدة أيام لاحظت أنه بعد

خمسين كتابًا عظيمًا وبعد سنة من القراءة الخطرة حان وقت البداية من جديد .

مثلي ، قامت تينا بقراءة جزء كبير من «الحرب والسلام» في القطار المتجه من وإلى لندن . في صباح يوم ما في نهاية أكتوبر ، بعد عدة أسابيع وصلت إلى المكتب وفي يدها الكتاب العظيم . لاحظت زميلة لها ذلك وسألتها عنه . أجابتها بصراحة أننا قضينا معظم الليلة الفائتة ونحن نتجادل بشأن إن كانت رؤية بولكونسكي تمثل إثباتًا أو إنكارًا لوجود الله ، خلاف لاهوتي شعرنا بالحماسة ونحن نتناقش حوله ، حتى انتهى بي الأمر لأنام في الطابق السفلي على الأريكة .

«هذا جميل جدًا ،» قالت لها زميلتها . «لا أستطيع تخيل نفسي أخوض حوارًا كهذا مع زوجي .»[(١)]

لاحقًا في «الحرب والسلام» ، بينما يستلقي آندرو بولكونسكي جريحًا على الأرض ، يشعر بما يشبه التجربة الروحية : «الحب هو الحياة . كل شيء أفهمه ، أفهمه فقط لأنني أحب .» يا لها من كلمات رحيمة ويا له من شعور روحي عميق . ولكن تولستوي يلاحظ بعد جملة قليلة : «كانت هذه الأفكار مريحة لبولكونسكي ، ولكنها لم تكن سوى مجرد أفكار .» هنا ، هذه الميزة بالنسبة لي هي دلالة على عبقرية تولستوي ؛ لقد كان ملتزمًا دائمًا

---

(١) أحد القرّاء لمسودة هذا الفصل أخبرني باعتراضه على هذه القصة ، إنها تشعره بالحاجة للتقيؤ . وهذا الشخص كان إشبيني في يوم زواجي . على أية حال ، المحادثة حول الحرب والسلام دارت كما ذكرتها هنا بالضبط . إن كانت تزعجك لهذه الدرجة حاول أن تأخذ بعض الحبوب لعلاج عسر الهضم .

بإخبار الحقيقة ، كما يراها ، ولم يغض الطرف حتى عن رجل يحتضر . وكلنا كنّا نحتضر .

لذلك بدلًا من هذا ، سوف أقترح مقطعًا بديلًا للمقطع الختامي من مكان آخر في الكتاب :

«في وسط وحشية الطبيعة ، ينجح البشر أحيانًا (نادرًا) في خلق واحات صغيرة محمية بالحب . مساحات صغيرة ، محصورة ، مغلقة لا يحكمها سوى الحب والذاتية المشتركة .»

إلى هنا قادتني «قائمة الإصلاح» ، إلى واحة صغيرة محكومة بالحب والذاتية المشتركة ؛ لقد كنت سعيدًا لعودتي إلى وطني .

وبما أنني كتبت عن التزام تولستوي بإخبار الحقيقة في أعماله . أشعر أنه علي فعل المثل .

أولًا ، ذلك الاقتباس من «الحرب والسلام» الذي يتحدث عن واحة صغيرة يحكمها الحب والذاتية المشتركة؟ للأسف علي إخباركم أنه ليس من الحرب والسلام . وقد لا يكون لتولستوي من الأساس . عندما قلت أنه من «مكان آخر في الكتاب» ، كنت أقصد هذا الكتاب ، الذي تقومون بقراءته الآن . الذي حدث أنني خلال قراءتي لكتب «قائمة الإصلاح» قمت بكتابة هذا الاقتباس على قصاصة ورق ، ونسيت أن أكتب اسم صاحبه ؛ والآن لا أستطيع التذكر . بحثت أكثر مرة دون نتيجة تذكر . أعتذر عن هذا .

بالتأكيد ، يجب ألا يحدث هذا فرقًا في السياق ، مهما كان الكتاب الذي جاء منه الاقتباس ؛ إنني أقف وأعتز بكل كلمة فيه . ربما يكون تولستوي صاحب الاقتباس فعلًا ، لقد قرأت كتابين له ضمن القائمة ، هذا يعطيه احتمالات أفضل من أي كاتب آخر قرأت له . وأشعر أن الاقتباس له أسلوب تولستوي . ولكن كلما

قرأته أكثر، كلما راودتني الشكوك. ربما جاء من «مدل مارش»، أو «البيان الشيوعي»، أو ربما كان كتاب پڤسنر؟ ربما كان من «مذكرات نكرة»؛ قد يكون هذا محتملًا. لا أظنه من «موبي-ديك»، أو «جلجامش»، والإحساس العميق فيه يستبعد تمامًا أن يكون لويلبك؛ ولكن «وحشية الطبيعة»، قد يكون هذا الوصف لأي كاتب من هؤلاء: موريسون، بوكوفسكي، كيرواك، برونتي. يبدو وكأنه شيء يمكن لإغناطيوس أن يقوله بينما يدفع عربة النقانق الخاصة به على الرصيف. أو بيهموث، القطة الشيطانية من رواية «المعلم ومارغريتا»؛ أو الشيطان ربما. أو السيد جيمي تيباغ أو أيًا كان اسمه من «شفرة داڤنشي».

همم. ربما قد يشكل الأمر فرقًا.

ويلبك يحب الاقتباس لشوبنهاور، وأنا أحب أن أقتبس لهما، لذلك يبدو من الصواب أن أحيل الأمر إليهما:

شوبنهاور: «نحن نتذكر حياتنا أقل بقليل مما نتذكر رواية قرأناها ذات مرة.»

ويلبك: «الحقيقة هي أننا في النهاية، ننسى حتى كتبنا. ولا أعلم لماذا، ولكن صباح اليوم، وجدت أن هذا أمر مريح فعلًا.»

ثانيًا وأخيرًا، قد تتساءلون، ماذا عن الكتاب الآخر؟ كان «شفرة داڤنشي» أحد الكتابين غير العظيمين، ولكن العنوان الفرعي ينص على وجود كتابين غير عظيمين؛ فأين الكتاب الثاني؟ حسنًا، سأعترف: كنت سأقوم بشراء رواية أخرى لدان براون، ولكن عندما حانت تلك اللحظة، لم أستطع أن أواجهها.

أعتذر للجميع . إن كان هذا مزعجًا لكم فعلًا ، فإني أمنحكم حق خدش كلمة «كتابين» من العنوان الفرعي ، واستبدالها بكلمة «كتاب» . وبالطبع فإنكم لستم بحاجة إلي لأمنحكم هذا الحق ، الكتاب أصبح ملكًا لكم .

أدرك الآن أن هذا قد يظهر على أنه تصرف وقح ؛ ولكن ونحن نرى خط النهاية أمامنا ، أقف هنا ، أضع يديّ على خصري ، أنظر إليكم في أعينكم . ألا ترون؟ لقد انتهى السباق وتمكنا من قطع شريط خط النهاية معًا . ربما كنت قد تظاهرت بأنني بعد خمسين كتابًا ، وبعد سنة من الإصلاح ، أصبحت شخصًا ألطف ، وأكثر تسامحًا كقارئ ، أقل ازدراءً ؛ ولكنها ستكون حكايةً خيالية ، وكذبة .

أنا كما أنا مرة أخرى . ولكنني توقفت عن الكذب بشأن الكتب .

«والآن أغتنم الفرصة وأترك ذلك الشاب الذي يجلس وحيدًا في الردهة ويقرأ الكلاسيكيات . يا له من منظر كئيب! ماذا يمكنه أن يفعل بهذه الكلاسيكيات؟ هل نجح في ابتلاعها؟ الكلاسيكيات . ببطء ، ببطء ، إنني قادم إليها - ليس بقراءتها ، وإنما بكتابة كلاسيكيات تضاهيها .»

هنري ميلر ، الكتب في حياتي

«دفع آرثر بنفسه على الباب ليغلقه ، ولكنه كان مركبًا بطريقة خاطئة من الأساس . ظهرت أصابع فرو من بين الشقوق ، وبدا أنها ملونة بالحبر : كانت الأصوات تتزايد بشكل مجنون . «فورد ،» قال له ، (هنالك عدد كبير من القردة في الخارج ، إنهم يريدون الحديث معنا عن ذلك السيناريو الذي كتبوه من «هاملت») .»

دوغلاس آدمز ، دليل المسافر إلى المجرة

ما فائدة المخلب والناب لنمر يحتضر؟ في براثن أفعى لأجعل الأمر أسوأ؟ ولكن يبدو أن هذا النمر لا ينوي أن يموت بعد . على العكس تمامًا ، لقد أراد أن يقوم بجولة للتنزه ، ويأخذ الأفعى معه ، ليتظاهر للحظة أنها لم تكن موجودة .»

مالكولم لوري ، أسفل البركان

الخاتمة

هذا الصباح قبل أن أبدأ بالعمل ، بعد أن أحضرت لزوجتي كوب الشاي في السرير ، وأعددت لألكس فطوره ، وأخذت فيتاميناتي وشربت عصير البرتقال ، دخلت إلى الإنترنت وحملت ملف تورنت غير قانوني يحتوي على ٤٠٠١ كتاب إلكتروني . شغل الملف ما يقارب ٢ غيغابايت من ذاكرة جهازي ، وهو الحجم المعادل تقريبًا لمجلد صور العائلة أو عدد من الأفلام . إن تمكنت من قراءة كتابين كل أسبوع ، ومع تقلّبات التكنولوجيا وقوة النظر ، سيستغرقني الأمر أربعين سنة لأقرأ كل ما في الملف . وهذا لا يأخذ بالحسبان أي كتب جديدة قد أعجب بها وأضيفها للملف . ولكن إن عشت كل هذه المدة سأكون في الخامسة والثمانين ، ولا أظنني سأكترث لأي كتّاب جدد أو روائيين صاعدين سنة ٢٠٥٤ . بالتأكيد سأكون قد قرأت ما يكفي .

ومن بين هذه الكتب التي حملتها وجدت «ضد الطبيعة» ، «مئة عام من العزلة» ، والأعمال الكاملة لتشارلز ديكنز ، جورج إليوت ، الأخوات برونتي . «المعلم ومارغريتا» ؛ دان براون . ولكن ما هي العناوين المفقودة من «قائمة الإصلاح»؟ وبدلًا من أن أقوم بأي عمل نافع ، تحديت نفسي أن أقوم بملاحقة كل تلك الكتب وتحميلها من الإنترنت ، ولأجعل الأمر أكثر تشويقًا ، أضفت كل الكتب التي أحببتها عندما كنت طفلًا . وبحلول وقت الغداء كنت

قد نجحت في إضافة العديد من الكتب، إما على صيغة ملفات كيندل AZW أو على صيغة EPUB أو MOBI. الخبر الجيد أنني دفعت سعر كتاب واحد فقط، كان هذا الكتاب «مبتدئون جدًا»، لم أمانع في الحقيقة. ولأن ما فعلته كان أمرًا غير قانوني، قمت بحذف كل ما حمّلته على جهازي عدا تلك الكتب التي جاءت من مشروع غوتنبرغ، و«مبتدئون جدًا». لذلك أرجوكم لا أريد لأحد أن يرسل لي أي رسائل متعلقة بهذا الشأن.

بينما كنت أكتب هذا الكتاب، تغيّر العالم. كانت الثورة الرقمية قيد التنفيذ لبعض الوقت، ولكن التسويق الكبير لأجهزة القراءة الكفيّة لم يبدأ بشكل جدّي. المستهلكون في الغرب الذين أصبحوا على علاقة عاطفية بأجهزتهم المحمولة وكاميراتهم، استجابوا بلهفة إلى فكرة الكتاب الإلكتروني الذي يمكنه أن يغنيك عن مكتبة كبيرة. في المستقبل لن تجد أحدًا يقرأ «كبرياء وتحامل» من الغلاف للغلاف، قال رئيس أقدم دار نشر في بريطانيا مؤخرًا؛ سوف ينقرون على شاشات أجهزتهم المحمولة للبحث عن ما يثير اهتمامهم، أو للبحث عن بعض العادات والتقاليد، أو وصفات الطعام. في الفترة ذاتها، ما تسمى بكتب «الشجرة الميتة» استمرت في الاختفاء من المجتمع. بائعو الكتب تعرضوا لخسارات كبيرة مؤخرًا، وسلاسل المتاجر الضخمة قد تكون المكان الوحيد الذي نجد فيه الكتب، والتي قد تتحول أيضًا إلى محلات للصدقة والتبرعات. أصبحت أهم الكتب في التاريخ تباع بأسعار زهيدة في كل مكان؛ وفي المناسبات السنوية مثل ليلة الكتاب العالمية، توزع ملايين الكتب مجانًا. وبالتأكيد، إن كنت تعلم أين تبحث، لا أظن أنك بحاجة لدفع أي مقابل مادي لأي كتاب بعد الآن -

يجب علي أن أذكركم بأن السرقة عمل غير أخلاقي ، وتعتبر جريمة ضد الإنسانية .

وفي الوقت نفسه ، يبدو أن رغبة العامة تجاه قراءة الكتب نهمة . تنتشر أندية القراءة في المنازل وفي موقع الإنترنت ؛ المهرجانات الأدبية تجذب العديد من الزوار ؛ التلفاز والراديو يقومان بدور كبير في جعل الكتّاب مشهورين ؛ مواقع التواصل الاجتماعية مليئة بالتعليقات والمقالات حول الكتب . الكل يحب التحدث عن الكتب ، أو الاستماع إلى أحد يتحدث عن الكتب . ولكل أولئك الذين يريدون الكتابة ، لم يكن هنالك عصر أسهل للكتابة من عصرنا ، بأدوات معاصرة مثل Calibre أو Mobipocket بإمكان أي أحد أن ينشر كتابه بنفسه .(١)

باختصار ، أصبحت لدينا الفرصة لاختيار الطريقة التي نريد القراءة بها ، والكتب التي نريد قراءتها - وإن كنا نريد أن ندفع مقابل القراءة . لم نعد بحاجة للاعتماد على وسطاء الثقافة والذوق : الوكلاء ، دور النشر ، النقّاد ، بائعو الكتب . بإمكاننا أن نتجول في الفضاء والتاريخ ، لنختار فقط ما يعجبنا ونتجاهل كل ما يبدو مملًا . وإن لم يعجبنا شيء ، بإمكاننا أن نكتب كتبًا خاصة بنا ، ونطلقها للعالم . بإمكاننا أن نبيع كتبنا مقابل أكياس من الفول السوداني ، وبإمكاننا أن نوزعها مجانًا ؛ ولنقلل من تكاليف الإنتاج والتوزيع ، سنتكفل نحن بكل مهام التحرير والطباعة والتوزيع .

(١) لا أعلم لماذا قد يندهش أي أحد من حجم مبيعات خمسون ظلًا من غراي . الأمر أشبه بحتميّة يقتضيها التطور ، بعد الإختراعات التكنولوجية الهائلة ، توصّل الإنسان لطريقة لجعلها أكثر إباحية ، هذا كل ما في الأمر .

ولكن لماذا نطبع الكتب من الأساس؟ إن كنا شجعانًا ، ونملك رؤية عميقة وقراءة للمستقبل ، فإننا سنتخلص أنفسنا من تكبّد عنائها للأبد ، تلك الأشياء القذرة المليئة بالغبار . حسب آراء بعض الخبراء ، سوف تنقرض الكتب بعد جيل واحد من الآن . وستصبح صناديق الكتب أشبه بأعراض لتوعك صحي غريب في عصر بعيد من الآن ، وقد يكون وجودها طريفًا على أفضل تقدير . حتى امتلاك الكتب المطبوعة ، وتقديرها ، سوف ينقرض ؛ وهذا يحدث الآن . سوف يكون مستقبلنا مليئًا بالخطوط البيضاء اللامعة والفضاء الفارغ ، وكل الأشياء سوف تتصل إلكترونيًا .

«أعلم ،» قال مارڤن ، «مازلت تستمر بالحديث عن هذا . يبدو أن شيء شنيع للغاية .»

قد لا يندهش القارئ عندما أخبره أنني تراجعت عن شراء قارئ كتب إلكتروني . لقد كنت في علاقة طويلة الأمد مع الكتب . عندما كانت الشركات المنتجة لقارئ الكتب الإلكتروني تتحدث عن أنه سوف يتم التخلص من وزن الكتاب الورقي الثقيل في الحقيبة ، تجاهلتهم على الفور . عم كانوا يتحدثون؟ لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بعدم الارتياح لأخذي كتابًا معي حين أخرج من المنزل ؛ على العكس ، أعتبر أن حمل الكتاب معي يهديني واحدة من أفضل اللحظات التي أستخدم فيها يديّ لغرض مفيد .[1] في كل مرة يأتي إلي أحدهم ليخبرني أنه لم يكن ليقرأ ،

(١) أفضل الاستخدامات ليدي هي – الشرب ، – الأكل ، – الإمساك بالكتب بغض النظر عن حجمها ، – تركيب نماذج Play-Doh™ ، – تحية بول ماكارثي بإبهامي لعمله الجيّد .

لنقل رواية مثل «كونفدرالية البلداء» ، لولا جهازه الإلكتروني من نوع كيندل أو نووك ، فإنني أعتبره أنه جاء ليخبرني بأنه كونفدرالي بليد . هل كان هذا لطيفًا مني؟ هل كان عادلًا؟ لا ، والحياة ليست عادلة ؛ وإن كانت عادلة ، فإن مدننا وبلداتنا ستحتوي على مكتبات عامة أكبر وأكثر ، وستنتشر متاجر الكتب ، وستكون الأشجار مليئة بالأوراق الخضراء وليس بأكياس قاذورات الكلاب . ولكني مازلت أملك بعض الأمل في إرادة الناس .(١)

ولكني رغم كل هذا قررت أن أصبح شجاعًا وأشتري قارئًا إلكترونيًا من نوع كيندل ، لم أكن أريد أن أصبح الرجل المتخلف الذي يخشى تجربة كل جديد . بعد عدة أسابيع ، وصلت إلى هذا الاستنتاج : إن كنت تحب القراءة ، فإن هذا الجهاز هو ما تحتاجه بالضبط ، ولكن إن كنت تحب القراءة كما أحبها أنا ، قد تجد صعوبة في اكتشاف السر الذي سبب شهرة هذا الجهاز من الأساس . هل أصبحت القراءة بسبب هذا الجهاز أفضل؟ بالتأكيد لا . إنه إضافة مفيدة لمكتبتنا ، ولكنه ليس بديلًا لها . أصبحت آخذ القارئ الإلكتروني معي أينما ذهبت ، ولكني آخذ الكتاب الورقي أيضًا .

وهكذا نعود إلى رواية «أسفل البركان» لمالكولم لوري ، القصة المليئة بالمسكال واللعنات أسفل السماوات المكسيكية . اخترت قراءة هذا الكتاب باستخدام القارئ الإلكتروني لأنه أكثر الكتب

---

(١) رفض التكنولوجيا يعتبر جيدًا في حالة واحدة ، وهي عندما يتم عن طريق الفهم والإدراك . أما رفضها بسبب الجهل أو الإيمان بأفضلية الطرق القديمة ، فإنه سيء تمامًا كقبول الحداثة بأكملها . جوليان كوپ .

التي أردت العودة لها من «قائمة الإصلاح» . لقد كتبت عنه في المدونة خلال الصيف . وبرغم أن هذا الكتاب أثر فيّ كثيرًا ، إلا أنني لم أكن واثقًا أنني قبضت على معناه العميق بشكل كامل . كانت مادته تنزلق من بين أصابعي . ولهذا السبب لم أكتب عنه كثيرًا في تلك الفترة . أيًا يكن ، بعد أن وصلت «قائمة الإصلاح» إلى نهايتها ، بقي شبح «أسفل البركان» يحاصرني ، حتى شعرت بضرورة العودة إليها . في القراءة الثانية ، شعرت أنني فهمتها بشكل أفضل ؛ بدأ صوت الرواي أكثر وضوحًا ، وكانت سلسلة الصور تتوالى بشكل متسق ومشرق : الحصان دون فارس ، الحديقة ، هلوسات المسكال ، لاس مانوس دي أورلاك (الحب المجنون) ، الكلب المسكين الميت . شعرت حين وصلت إلى الفصل الأخير للمرة الثانية أنه ربما أقرأ الرواية لمرة إضافية . لم أدرك هذا منذ البداية ، ولكن يبدو أن «أسفل البركان» واحدة من أعظم الروايات على الإطلاق . [(١)]

إنها رواية غامضة عن قصد . يصفها كاتبها لوري في رسالة إلى ناشره قائلًا : «إنها كاتدرائيتي المكسيكية!» . وبالرغم من أن ناشره جوناثان كيپ يدرك بناء الرواية المعقد جدًا ، إلا أنه اقترح إجراء تعديل كبير على الرواية قبل نشرها . رد عليه لوري بدفاع مستميت عن الرواية التي ظل يكتبها لمدة سبع سنوات . لينجح أخيرًا في نشرها دون أي تعديل ، ويعترف لاحقًا أنه لا يمكن لقارئ

(١) قد يكون هذا أفضل اختبار صعب لما يمثله الأدب وما لا يمثله . إن لم يستطع القارئ الاستمتاع بالكتاب مرة بعد أخرى ، فلا فائدة من قراءته من الأساس . أوسكار وايلد .

أن يهضم كل معانيها من القراءة الأولى أو حتى الرابعة ، ولكن أثرها العميق قد ينتقل بطريقة غير واعية للقارئ . «لقد صممت حبكة الرواية بشكل مستدير كالعجلة . كي تتمكن عند وصولك لنهاية الرواية ، من العودة إلى البداية وقراءتها من جديد ، وهكذا كان الكتاب مصممًا بطريقة حذرة جدًا ، تجعل القارئ يعيد قراءته لعدد غير محدود من المرات دون أن يقبض على كل معانيه الدرامية والشعرية .» وهكذا وصلت أخيرًا إلى تقدير التصميم المعماري والثوري لرواية «أسفل البركان» . لقد كانت كاتدرائية وعجلة ؛ كما قال لوري ، أشبه بالآلة .

لا أظن أنني بحاجة للقول أن «أسفل البركان» قد لا تناسب جميع القرّاء . إنها رواية مليئة بالشظايا والهلوسات ، تتكثف فيها اللمحات ، بينما الحبكة يمكن أن توصف بدقة على أنها بيضاوية الشكل . بعض القراء بإمكانهم أخذ جولة في القطار ويذهبوا في دورة كاملة مستمتعين بوقتهم . والبعض الآخر قد يوجهون الانتقاد إلى آلة لوري باعتبارها كالطائر الميتافيزيقي ، تختفي تمامًا ثم تولد من جديد . وكما قال دان براون بحكمة ، ربما يجب عليهم أن يذهبوا لقراءة شيء آخر .

أيًا يكن ، يبدو أنه من الملائم افتتاح نوع جديد من الآلات باستخدام نوع قديم ، وهكذا قرأت «أسفل البركان» للمرة الثالثة على جهاز كيندل . أو على الأقل ، حاولت . القارئ الإلكتروني لم يتمكن من التأقلم مع الرواية ، أو بالأصح ، لم أستطع التأقلم مع القارئ الإلكتروني . افتقدت السعادة البسيطة في الشعور بالصفحات المتراكمة في يدي اليسرى عند إمساكي بالكتاب . وبعد ثلاثة فصول ، عدت إلى كتابي الورقي الحبيب . لم يكن

هنالك أي هواء لتنفسه عند القراءة من القارئ الإلكتروني ؛ كانت الأسطر كثيفة ومتصلبة . إن كانت الرواية مليئة بالأحداث المشوقة التي تجعلنا نتوق لقلب الصفحة التالية وقراءتها قد يكون القارئ الإلكتروني خيار مناسب لهذا النوع من الروايات ، ولكن «أسفل البركان» ليست مثل «شفرة دافنشي» ؛ إنها رواية يجب أن تفكر في معانيها ، تضعها جانبًا ، تفكر مرة أخرى ، ثم تعود لها . وهذا ، للتذكير فقط ، كتاب قد قمت بقراءته من قبل . وبرغم أنه سيكون إنجازًا رائعًا ، أشك أن أي قارئ انتهى من رواية على القارئ الإلكتروني سيرغب بقراءتها مجددًا بالطريقة ذاتها .

وبشكل مصيري ، سوف يأتي الزمن الذي تصبح فيه التكنولوجيا قادرة على استبدال كتاب ورقي مثل «أسفل البركان» . الأجهزة اللوحية تتطور بشكل مستمر . في هذه اللحظة ، هنالك شخص دون شك يعمل على تطوير تطبيق لاستخدام محتوى كريس آكيرلي وديفيد لارج لإدخاله في الرواية .[1] عندما أصدر ناشر قصيدة ت . س . إليوت «الأرض اليباب» دليلًا على جهاز آيباد يحتوي على جميع التفاصيل والوصفات والمراجع الخاصة بالقصيدة ، لقي هذا الدليل ترحيبًا واسعًا من قبل المستخدمين . ولكن كي نتحدث بشكل منصف ، القراءة عن «أسفل البركان» ليس كقراءتها .

ورغم كل هذا ، أبقيت على «أسفل البركان» في القارئ الإلكتروني . ودون سبب منطقي ، أحب حمله معي أينما أذهب . إنه على مكتبي الآن ، انظر إنه يحتوي على كل كتب «قائمة

---

(١) أسفل البركان : www.otago.ac.nz/english/lowry

الإصلاح» . ولكن لنتحدث بصراحة ، مَن يحتاج إلى قراءة ٤٠٠١ كتاب في حياة واحدة؟ بالنسبة لي ، أؤمن أنني أستطيع أعيش كل أيام بحياتي بهذه الخمسين كتابًا فقط ، وسأكون سعيدًا . أعدت قراءة بعضها خلال فترة كتابتي لهذا الكتاب ، ولم أشعر بالملل أو الخيبة . أندي ميلر الذي وُلد في «سنة القراءة الخطرة» ، والذي سيبقى لاجئًا داخلها حين تنتهي القصة ، سيقضي الأبدية وهو يقرأ ويعيد قراءة هذه القائمة .

في قارئ الكتب الإلكتروني ، حملت معي أكثر الكتب التي قرأتها في حياتي «دليل المسافر إلى المجرة» وبقية أجزائه . كم هو رائع أن أمتلك هذا كله في كتاب إلكتروني . أظن أن دوغلاس آدمز سيعجب بهذه الفكرة . على عكسي ، كان رجلًا يتبنّى التكنولوجيا الحديثة . بدأ مهنته الكتابية بكتابة المقالات ضد التكنولوجيا - «إنني أحصل على المال بسبب سخريتي من التكنولوجيا» - ولكنه تحوّل فجأة ، وتبنّى التكنولوجيا بشكل كامل . ويُقال أنه امتلك أول جهاز آبل ماكنتوش في بريطانيا . هل كان هذا الجهاز الذي استخدمه لكتابة الكتاب الرابع والأسوأ من سلسلة المسافر؟ لنتحدث من ناحية إبداعيّة ، ربما يكون آدمز قد اتخذ قرارًا خاطئًا باستخدام آبل ماكنتوش لكتابة الرواية ، وربما كانت الآلة الكاتبة التقليدية أفضل بكثير ، أو ربما بعض الأوراق والأقلام . الأجهزة والحواسيب قدّمت فرصًا لا نهائية للتعديل وإعادة التعديل ، وكما نعرف جميعًا فإن آدمز لم يكن بحاجة للمزيد من التعديل على الإطلاق .

كان آدمز يبلغ من العمر ٤٩ عامًا عندما توفي سنة ٢٠٠١ ، أكبر بقليل مني عمري الآن . كانت هذه مأساة شخصية بالنسبة

لزوجته جين وابنته پولي . موته المبكر سرقه وسرق فكاهته وإبداعه من العالم . وكما قال صديقه ستيفن فري ، ما معنى جهاز آيباد والإنترنت وكل هذه التقنية إن لم تكن دليل المسافر إلى المجرة ، بنك من المعرفة التي تم جمعها بمساعدتنا جميعًا؟ «دليل المسافر إلى المجرة» هو كتاب «تم تعديله مرارًا وتكرارًا بشكل غير متساو ، ويحتوي على العديد من المقاطع التي بدت للمحررين على أنها جيدة في ذلك الوقت .» يقول آدمز .

التقيت بدوغلاس آدمز في عدد من المناسبات ، آخرها كان في حفلة عيد ميلاده الستين الافتراضي . أريد أن أتحدث في الصفحات التالية باختصار عن هذه اللقاءات . لقد تم نشر عدة سير ذاتية لآدمز ، وأحد معارفه القدامى يعمل على مجموعة كاملة يصف فيها تجربة العيش مع آدمز في شقة واحدة . ولكن على أية حال ، هذه هي تجاربي مع آدمز :

الحلقة الأولى - متجر كتب وبسترز، كرويدون، ١٩٨٢

في ظهيرة يوم سبت حار ، انتظرت في الصف ثلاث ساعات كي يوقع لي آدمز على نسخة من كتابه ، «الحياة ، الكون ، وكل شيء» . الانتظار الطويل لم يكن بسبب أعداد الناس الهائلة أمام متجر الكتب ، ولكنه لأن آدمز كان متأخرًا بشكل لا يصدق .

لا أقصد أنني غاضب . ولكنني كنت في سن الثالثة عشرة حينها ، وكانت تلك المرحلة هي أكثر المراحل التي أعجبت فيها بكتب آدمز ، وحلقات مسلسله ، وكل شيء متعلق به . في تلك الظهيرة جلبت معي منشفتي . لم يقترح علي أحد أن أفعل هذا ، ولكنها كانت لفتة تلقائية وفكاهية اعتقدت أن آدمز سوف يحبها .

وفي النهاية ، من الباب الخلفي للمتجر ، ظهر رجل طويل غاضب وجلس على طاولة التوقيع دون أن ينظر إلي أي أحد من الموجودين ، وبدأ بتوقيع الكتب . من خلال مهنتي كمحرر ، لقد التقيت بالعديد من الكتّاب الغاضبين ، ولكن لم يسبق لي أن رأيت كاتبًا كآدمز في غضبه . وكلما بدأ الصف بالتقدم ، سألت نفسي ، أي رسالة تلقائية وفكاهية أريد لبطلي أن يكتبها ويوقعها لي . ثم تذكرت كيف وقع زافود بيبلبروكس صورًا لنفسه في الجزء الثاني من سلسلة الراديو الثانية من المسافر .

«أهلًا ،» قلت لآدمز ، عندما وصلت إلى طاولته . «فضلًا هل بإمكانك أن تكتب لي (إلى آندي ، مع إعجابي الشديد)؟»

ودون أن يقول كلمة واحدة ، أو حتى نظرة خاطفة ، التقط آدمز نسخة من الكتاب ، كتب ما قلت له حرفيًا ، ودفع بالكتاب ناحيتي . لم يقل أي شيء بعدها ، وهكذا انتهى أول لقاء جمعني به .

مازلت أملك الكتاب بالتأكيد . بالنظر إلى توقيعه الآن بعد مرور ثلاثين سنة ، أدركت أن «الإعجاب الشديد» هو الوصف المعاكس تمامًا لما كان يشعر به آدمز تجاهنا ، أنا وجميع المعجبين الذين جعلوه يغادر من آيسلنغتون إلى كرويدون في ظهيرة يوم سبت حار . ولكني لا أشعر بالأسف لأنني طلبته منه ذلك .

الحلقة الثانية - مؤسسة الفن المعاصر، لندن، ٢٩ يوليو ١٩٨٧

مرت خمس سنوات . أصبحت طالبًا في الجامعة الآن في برايتون ، حيث أدرس الأدب الإنجليزي . لقد أنهيت للتو سنتي الأولى من الدراسة وأنا عائد الآن لقضاء عطلة الصيف مع عائلتي .

قرأت في مجلة تايم آوت أن دوغلاس آدمز سيتواجد في مؤسسة الفن المعاصر في لندن للحديث عن روايته الجديدة «وكالة مباحث ديرك جينتلي الشاملة» . قبل عدة أسابيع كنت في مؤسسة الفن المعاصر لحضور محاضرة لإيان ماك إيوان وسألته من أين يأتي بأفكاره . لذلك قررت أنني سأسدي خدمة لآدمز وسأحضر جلسته النقاشية .

في مؤسسة الفن المعاصر ، كان آدمز في حوار مع صديقه وشريكه في الكتابة أحيانًا ، المنتج التلفزيوني ، جون لويد . كان هنالك ما يقارب ٧٠ أو ٨٠ شخص من بين الحضور ، ويبدو أن أغلبهم قد أحضروا معهم مناشفهم . للأسف! يبدو آدمز أكثر سعادة وارتياحًا عن آخر مرة التقينا فيها . اندهشت لحجم التفاوت الكبير بين نظرتي لأعمال آدمز - خيال علمي فكاهي - وبين نظرة الموجودين هنا له - فن ، فلسفة ، علم طبيعي - أدب . ولكنهم جميعًا على خطأ . إنني أعرف الأدب ؛ لقد درسته لما يقارب السنة ، إن الأدب هو ما ينتجه إيان ماك إيوان . آدمز لا يكتب الأدب ، علي أن أخبر الجميع بذلك .

عندما جاء الوقت لطرح الأسئلة ، رفعت يدي . وقلت لدوغلاس آدمز «هل أنت متفاجئ مثلي أن الجميع هنا يأخذ أعمالك على محمل الجد؟»

بالمقابل ، كانت إجابة آدمز عميقة ومليئة بالفكاهة ، ولقد كانت الإجابة أقصر من السؤال حتى : «نعم . ولا .»

في مقعدي جلست ، وكان الجميع من حولي يبتسمون ويتحدثون . أتمنى لو استطعت تغطية رأسي الآن . أشعر بالحر وبدأت بالتعرق الشديد . لقد كنت وقحًا مع دوغلاس آدمز ،

وأخبرته في وجهه أن عمله لا يستحق أن يُؤخذ على محمل الجد، في الوقت الذي كانت أعماله تعني لي أكثر من أغلب الأدب الجاد الذي درسته في الجامعة طوال الأشهر التسعة الماضية. باختصار، لقد تصرفت بوقاحة. وفي نهاية الجلسة، وقفت في الصف لشراء نسخة من كتابه. وهذه المرة كنت الشخص الذي يتجنب النظر في عينيه.(١)

إن أردت أفكارًا كبيرة عن الفن، العلم، والفلسفة، إنك ستجدها حتمًا لدى آدمز. إن أردت قصة الرجل الباحث عن وطنه، فإنك ستجدها لديه أيضًا. وإن أردت أن تضحك فإنه قادر على جعلك تضحك بسخريته من أجهزة الكمبيوتر، الساعات الرقمية، ولم يستطع أحد أن يفعل ذلك كما فعل آدمز. وإن لم يكن كل هذا أدبًا، فلا أعلم ما هو الأدب.

الحلقة الثالثة - لندن ١٩٩٢

بعد خمس سنوات من لقائنا الأخير. كنت مدججًا بشهادة في الأدب الإنجليزي، وببعض الآراء، واستطعت الحصول على عمل في متجر لندن للكتب. أصبحت مسؤولًا عن فعاليات

---

(١) لقد استغرقني هذا السؤال دقيقتين وثلاثًا وعشرين ثانية لطرحه على دوغلاس آدمز، ولكنني شعرت أنه أطول من ذلك بكثير، لأنني أدركت مؤخرًا أن هذه المقابلة كاملة متاحة للاستماع لها على شبكة الإنترنت، بالإضافة إلى أسئلة الجمهور، بما فيهم سؤالي. بعد خمسة وعشرين سنة، يبدو الأمر أكثر شناعة مما أتذكر. إن كان أحدكم يملك آلة زمن، وأراد العودة في الماضي لقتل هتلر، هل يمكن له أن يتوقف أيضًا سنة ١٩٨٧ ويقوم بقتلي أولًا؟ شكرًا.

استضافة الكتّاب . كان دوغلاس آدمز على وشك أن ينشر كتابه الخامس في سلسلة المسافر . لدي نسخة قد قرأتها مرتين . أتصل بالناشر لأرى إن كان آدمز سيوافق على المجيء للمتجر وقراءة بعض المقاطع منها ، ربما ظهيرة يوم الأحد . وافق الناشر على الفور . أضع الهاتف وأشعر بالتوتر .

برغم أن هذا الكتاب الخامس أفضل من سابقه ، ولكنه ليس عظيمًا . لم يكن قويًا مثل «آخر فرصة للرؤية» . أيًا يكن ، لم يكن هذا سبب توتري . إن كنت قد تعلمت درسًا من السنوات الخمس الماضية ، هو أن أحتفظ برأيي لنفسي . إنني متوتر لأنني سألتقي بدوغلاس آدمز للمرة الثالثة ، ولم ينجح أي لقاء لنا حتى الآن . مازلت أتضايق كلما أتذكر ما حدث في مؤسسة الفن المعاصر . عندما اقترب يوم الفعالية ، لم أكن أريد خاتمة سعيدة أو لحظة تفاهم عميق بيني وبينه ؛ كنت فقط لا أريد للفعالية أن تفشل .

«هذا آندي ،» قالت امرأة من مكتب الدعاية . «إنه المسؤول اليوم .»

«أهلًا آندي ،» قال دوغلاس آدمز الذي ، برغم الشيب في رأسه إلى أنه مازال طويلًا . ثم نظر إلي بحدة وقال : «ألست ذلك الأحمق من مؤسسة الفن المعاصر؟»

هذا ما خشيت حدوثه ، ولكنه بالتأكيد لم يحدث .

«لقد أحببت كتابك الجديد ،» أخبرت آدمز عند وصوله الفعلي للمتجر . «بارع جدًا .» وآخذه إلى الطابق العلوي حيث عدد من المعجبين ينتظرون قدومه ، وأغلبهم حجزوا مقاعدهم في الأمام وأحضروا المناشف معهم .

كانت الفعالية ناجحة جدًا ، وبعنا العديد من الكتب . وبدا

آدمز سعيدًا وكان يضحك كثيرًا . لذلك فكرت وأنا أراقبه من الخلف أنه قد تعلم الكثير خلال السنوات الماضية ، أو على الأقل كيف يتظاهر بأنه سعيد أمام الغرباء والمعجبين .

بعد انتهاء التوقيع ومغادرة الناس ، قررنا في المتجر أن نقدم هدية لآدمز فأخبرناه أنه بإمكانه اختيار أي كتاب في المتجر وأخذه معه . نزلت مع دوغلاس آدمز إلى الدور الأول من المتجر حيث الإصدارات الجديدة ، في الفلسفة والتاريخ والعلوم . كنت متحمسًا جدًا في تلك اللحظة ، وأردت أن أعوض عن أخطائي السابقة معه .

«اختر ما تشاء ،» قلت له . «بالكمية التي تريدها .»

وتبعت آدمز بينما كان يحمل عددًا كبيرًا من الكتب في سلّة ، بالتأكيد لن يدفع ثمن هذه الكتب ، وبالتأكيد فإنني لا أملك الصلاحية لمنحها له . استشارني في اختيار بعض الكتب ، ثم سألني إن كنت متأكدًا من أن هذه الكتب مجانية ، وكنت أشير له بأن لا مشكلة ، بإمكانك أن تأخذ ما تريد . وعندما أفكر في هذا الخطأ الذي ارتكبته ، أكتشف أنه ليس بالأمر السيء ، لقد تمكنت من الحديث مع دوغلاس آدمز عن الكتب لمدة نصف ساعة .

بينما كان آدمز يغادر ليركب التاكسي ، وبعد أن ساعدته في دفع عربة مليئة بالكتب تزن مئات الكيلوغرامات ، التفت وشكرني على الوقت الممتع الذي قضاه هنا . صافحته وقلت الجملة التي فشلت في قولها قبل خمس سنوات ، وقبل عشر سنوات أيضًا .

«شكرًا لك .»

الحلقة الرابعة - قاعة الملكة إليزابيث، مركز ساوث بانك، لندن، مارس ١٩٩٨

القرن العشرون على وشك أن ينتهي . وأصبحت الآن محررًا مكلفًا ؛ وبدأت بالعمل على كتاب جديد خاص بي . المحرر الشاب الذي يعمل معي في المكتب أخبرني أن دوغلاس آدمز سيلقي محاضرة في ساوث بانك الليلة ، وأن لديه تذكرة إضافية ، إن كنت أريد الذهاب معه .

يعيش آدمز في لوس أنجلوس ، حيث يحاول أن يعمل على فيلم لسلسلة رواياته المسافر ، ولكنه حاليًا في لندن لينسق لحملة دعائية لمشروع لعبة فيديو عمل عليه Starship Titanic . على المسرح ، يبدو آدمز متحمسًا للعبة ، ليس فقط لأنها لعبة ، ولكن لما تحمله في المستقبل من وعود ، عندما يتحسن أداء المعالج ، ويستخدمها عدد أكبر من المستخدمين للإنترنت حول العالم ، وعندما يبدأ شيء يسمى «برودباند» بالعمل ، فإنها ستكون رائعة جدًا .

«دليل المسافر إلى المجرة» كان عملًا رائدًا بمعنى الكلمة . لقد عمل آدمز على تطويرها من مجرد رواية ، ونقلها إلى الراديو ، التلفاز ، الكتب الصوتية ، المسرح ؛ وكان مايزال بعد عشرين سنة من كتابتها يعيد صياغة السيناريو لإنتاج فيلم كان يأمل أن ديزني سوف تقوم بتبنيه . حتى وصل إلى Starship Titanic ، لعبة من وحي الرواية سنة ١٩٨٤ ، ولكن الأجهزة في ذلك الوقت لم تكن متطورة بما يكفي لدعم اللعبة . كان بعض هذه الخيارات التي عمل آدمز على تطويرها أكثر نجاحًا من البعض الآخر ، ولكن بشكل عام كان آدمز دائمًا مؤمنًا بجدوى هذه الوسائل وجدوى التكنولوجيا .

كان آخر مشروع عمل عليه آدمز قبل أن يموت هو سلسلة حلقات على راديو بي بي سي . كانت هذه السلسلة تتحدث عن تأثير العلم على حياتنا في الألفية الجديدة . السلسلة الثانية التي أذيعت في إبريل من سنة ٢٠٠١ والتي كانت تتحدث عن الكتب في العصر الإلكتروني . كان آدمز متحمسًا للكتب الإلكترونية وللنشر الرقمي .

«عندما يتحدث الناس عن حبهم للكتب ، أتساءل إن كانوا يتحدثون عن حبهم للقراءة أيضًا . يبدو الأمر مثل الخلط بين حب الطبق وحب الطعام . أعني أنني أحب كتابًا مطبوعًا بطريقة جميلة ، ولكني لا أحتاج منزلًا مليئًا بالكتب ، كما أنني لا أحتاج منزلًا مليئًا بالأطباق الجميلة . ربما ١٢ طبقًا ستكون كافية ؛ بالإضافة إلى كتاب طبخ جيد .»

لقد كان محقًا ، بالتأكيد . ولكن رغم هذا أشعر أن بعض الأطعمة تصبح ألذ بسبب وضعها على طبق جميل ؛ وفقط لأن العلم بإمكانه أن يمنحنا وجبة كاملة على جهاز لوحي ، هذا لا يعني أنه يجب علينا ابتلاعها . قد تصبح الكتب المطبوعة الجميلة في المستقبل أشبه بالنمور المعرضة للإنقراض أو أشبه بطائر الكاكابو . بالتأكيد هذا ليس ما أراده دوغلاس .

في القاعة التي كان يحاضر فيها آدمز ، ذهبت وزميلي المحرر الشاب إلى المصعد . يُفتح باب المصعد ، ندخل إليه ، أجد نفسي ثانية إلى جانب العملاق آدمز ، لا يبدو أن آدمز ينوي أن يصبح أقصر على الإطلاق . يبتسم ، بالرغم من أنني متأكد أنه لن يتذكرني . ولماذا يتذكرني من الأساس؟ كان يتحدث إلى شخص آخر ؛ ربما كانت ابنته عن اختراع تكنولوجي جديد . أتذكر أنه كان

يضحك . وصلنا إلى الطابق الأرضي . عندما انفتح باب المصعد ، أقف جانبًا لأدعه يعبر ومن معه أيضًا .

«تفضل ،» أقول له .

آخر مرة رأيته حيًا كانت هذه المرة وهو يسير إلى جسر هنغرفورد ، بينما هو مشغول في محادثة عميقة ، وقلبه مبتسم . وبعدها لن تتحد خطوطنا الزمنية لنلتقي لثلاثة عشر عامًا .

الحلقة الخامسة - مسرح هامرسميث أبولو، لندن، الأحد، ١١ مارس ٢٠١٢

ربما لا يكون دوغلاس آدمز الآن طويلًا كما كان ولا حتى حيًا كما كان ولكنه يظل مشهورًا بشكل ملحوظ . في حفلة عيد الستين ميلاده الافتراضي في مسرح هامرسميث أبولو في لندن ، كانت المناشف في كل مكان . كنت في المرحلة الأخيرة من كتابي الثالث . كنت قد استحممت لآلاف المرات ، وأكلت الكثير من السندويشات ، ولهذا تأخر كتابي كثيرًا إلى درجة قد يجدها آدمز غير مقبولة . وكان هذا أول يوم عطلة آخذه منذ الكريسمس .

كان الجميع حاضرًا في تلك الليلة ، العديد من أصدقائه وأفراد عائلته ، وعلى المسرح عدد من الممثلين والكتّاب والعلماء ، يحكون قصصهم مع آدمز ، أو يتحدثون عمّا كان يعنيه لهم وتأثيره على حيواتهم وعلى قراراتهم . بالنسبة للبعض كان كتابه «المسافر» هو أكثر ما جعلهم يعشقون الفيزياء وعلم الفضاء . بالنسبة لآخرين كان كتابه «الفرصة الأخيرة للرؤية» هو الأكثر تأثيرًا . وبالرغم من أن كل هؤلاء الحضور يحملون نوايا طيبة تجاه آدمز ولكن ما يفعلونه ممل وغير مضحك . وأنا أجلس في مكاني وأفكر : لا أكترث

للفيزياء ولا لعلم الفضاء ، يبدو أن دوغلاس آدمز الذي يتحدثون عنه مختلف تمامًا عن الكاتب الذي أحببته . لقد أحببته فيه حس فكاهته ، موسيقى وإيقاع جمله ، الدقة اللغوية البالغة لعباراته . إنني أقرأ آدمز لأجل الكلمة .

في المقدمة التي كتبها آدمز لإحدى روايات ودهاوس يقول عنه : «موسيقى الكلمة الصافية . إنه أعظم موسيقي في اللغة الإنجليزية .» وكان يقارنه بموزارت ، آينشتاين ولويس آرمسترونغ . هذا ما أشعر به تمامًا تجاه آدمز . قد تكون كتبه مليئة بالأفكار العلمية الكبيرة حول الكون والفضاء ، ولكنه يعزف مثل لويس آرمسترونغ ، عندما يثني الكلمات والألحان للتعبير عن سعادة العزف . لم أصادف دوغلاس في حفلة عيد ميلاده الافتراضي . ولم أره مرة أخرى . كان هذا آدمز الذي عرفته خلال السنوات ، والذي توفي سنة ٢٠٠١ . دوغلاس آدمز الذي يعني لي الكثير عاش -ومازال يعيش- في هذه المساحات الموسيقية الصافية .

في الصباح التالي قبل أن أبدأ بالعمل ، جلست على جهازي وقمت بتحميل ٦٠ لعبة فيديو من الثمانينات بطريقة غير قانونية كي ألعبها . أما اللعبة القديمة التي كنت أبحث عنها «دليل المسافر إلى المجرة» كانت متاحة بشكل قانوني ومجاني على موقع دوغلاس آدمز douglasadams.com ، وعلى موقع بي بي سي ، وعدة مواقع أخرى . ولأن العادات السيئة لا تموت إلا بصعوبة . قمت بتحميل البرنامج ، وقمت بتشغيل اللعبة ، وهناك اكتشفت دوغلاس آدمز المتأخر حي يرزق أمامي . لقد شعرت بسعادة غامرة لسماعي صوت آدمز بعد غياب طويل - لقد كان هنالك عدد من التسجيلات في اللعبة بصوته وهو يلقي بعض النكات ويتحدث عن بعض القضايا

العلمية ؛ إنه يتحدث عن مكونات الحياة الأساسية . لقد كان من الرائع سماع صوته مرة أخرى .

الأدب التفاعلي ، كما يطلق عليه آدمز ، إنه نوع من الأدب يسمح للقارئ اتخاذ قرار نهائي بشأن خلاصة القصة . لقد كان آدمز سعيدًا بالمسؤوليات الجديدة التي كان عليه أن يقوم بها ككاتب ؛ وبالمقابل لم يكن يقلل أبدًا من أهمية الكلمة القديمة في القرن السابق . لقد كان رجلًا يحب ودهاوس ، ديكنز ، أوستن . لم يفقد إيمانه أبدًا بالتأثير الساحر للكتب والقراءة على البشر . لذلك كان دائمًا يقول : ابحث عن شيء يثير اهتمامك أو يجعلك تقلب الصفحة بشغف ، كي ترفع رأسك حين انتهائك من القراءة لترى أن العالم قد تغيّر من حولك

هذه هي معجزة الكتاب المستمرة . إننا مَن يقرر ماذا سيحدث لاحقًا .

الملحقات ١

قائمة الإصلاح

(«النجمة تدل على الكتاب الأسهل للقراءة إن كنت ستبدأ من الصفر . وإن لم أضع أحد كتبك المفضلة ، فأنا أعتذر .» جوليان كوپ ، كراوتروكسامپلر .)

١- المعلم ومارغريتا - ميخائيل بولغاكوف
٢- مدل مارش - جورج إليوت
٣- مكتب البريد - تشارلز بوكوفسكي
٤- البيان الشيوعي - كارل ماركس وفريدريش إنجلز
٥- المحسنون أصحاب البناطيل المهترئة - روبرت تريسل
٦- البحر ، البحر - آريس مردوخ
٧- كونفدرالية البلداء - جون كينيدي توول
٨- اللامسمّى - صامويل بيكيت
٩- عشرون ألف شارعًا أسفل السماء - پاتريك هاميلتون
١٠- موبي-ديك - هرمان ملڤل
١١- آنا كارنينا - ليو تولستوي*
١٢- عن عبودية الإنسان - دبليو سومرست موم
١٣- كبرياء وتحامل - جين أوستن
١٤- كاتش ٢٢- جوزف هيلر
١٥- أمير الذباب - ويليام غولدينق
١٦- فرانكنشتاين - ماري شيلر

١٧- الأوديسة - هومر
١٨- الجريمة والعقاب - فيودور دوستويفسكي
١٩- التعساء - ب . س . جونسون
٢٠- خوف واشمئزاز في لاس ڤيغاس - هنتر س . تومسون
٢١- القلب صيّاد وحيد - كارسون ماك كولرز
٢٢- سوق الأضاليل - ويليام ميكبس ثاكري
٢٣- جين اير - تشارلوت برونتي*
٢٤- ايڤري مان - فيليب روث
٢٥- مبتدئون جدًا - كولن ماكينيس*
٢٦- مئة عام من العزلة - غابريل غارسيا ماركيز
٢٧- دون كيشوت - ميغيل دي سرفانتس
٢٨- ما بعد السواد - هيلاري مانتيل
٢٩- مذكرات نكرة - جورج وويدون غروسميث
٣٠- ملحمة جلجامش - غير معروف
٣١- سر إيدون دروود - تشارلز ديكنز
٣٢- المطار - ريكس وارنر
٣٣- أنا ألتقط القلعة - دودي سميث*
٣٤- الفهد - جوزيبي توماسي دي لامبيدوزا
٣٥- أسفل البركان - مالكولم لوري
٣٦- بحر سارغاسو الواسع - جين ريز
٣٧- على الطريق - جاك كيرواك
٣٨- الفردوس المفقود - جون ميلتون
٣٩- مجنون أمريكي - بريت إيستون إيليز
٤٠- رجل النرد - لوك راينهارت

٤١- سيلڤر سيرفر الأساسي ، المجلد الأول - ستان لي ، جون بوسكيما ، جاك كيربي*

٤٢- كراوتروكسامپلر - جوليان كوپ*

٤٣- حبيب - توني موريسون*

٤٤- ضد الطبيعة - يوريس-كارل هويزمانز*

٤٥- الجسيمات الأولية - ميشيل ويلبك*

٤٦- حكاية الخادمة - مارغريت آتوود

٤٧- بورتريه سيدة - هنري جيمس

٤٨- بيولف - ترجمة سيموس هيني

٤٩- الحرب والسلام - ليو تولستوي

٥٠- شفرة ووسترز - بي . جي ودهاوس

الملحقات ٢

مئة كتاب كان لها تأثير كبير عليَّ

هذه القائمة والقائمة التالية (الملحقات ٣) وضعتهما بسبب إلهام هنري ميلر لي في قوائمه التي أنهى بها كتابه «الكتب في حياتي» . تشير النجمة إلى الكتّاب الذين قرأت معظم أعمالهم إن لم يكن جميعها .

كتابي عني - دكتور سوس*
ويني ذا بووه والمنزل في زاوية بووه - أ .أ . ميلني
مغامرات تينتن : السلطعون بمخالبه الذهبية - هيرجي*
أستريكس والمرجل السحري - رينيه غوسكيني وآلبرت أوديرزو*
مومنبابا على البحر - توف جانسون*
يا للحزن ، تشارلي براون! - تشارلز م . شولز*
الطوارئ الثامنة عشر - بيتسي بيارز
بلاك جاك - ليون غارفيلد
دكتور هو وعقل موربيوس - ترينس ديكس*
لودو حصان النجم - ماري ستيوارت
كيف تصبح مثل توپ - غيوفري ويلانس وورونالد سيرل*
تقويم البشر ، الطبعة الأولى - ديڤيد وولتشنسكي وإرفنغ والاس
آلفريد هيتشكوك والمحققون الثلاثة في سر البغبغاء المتمتم - روبرت آرثر*
كتاب مونتي پيثن الجديد - مونتي پيثن*
القزم - ج . ر . ر . تولكين

دليل المسافر إلى المجرة – دوغلاس آدمز*
موت ريغنالد پيرن – ديڤيد نوبس*
عودة شيرلوك هولمز – آرثر كونان دويل*
سيّد الخواتم – ج . ر . ر . تولكين
الصعود إلى الهواء – جورج أورويل*
ذا بيتلز : سيرة ذاتية مصرّحة – هنتر ديڤيس
من الحافة إلى سيرك محلّق – روجر ويلموت
الإنجيل
هاملت – ويليام شكسبير*
أن تقتل طائرًا بريئًا – هاربر لي
أفلام الكالت – داني پيري
عن برودواي – دامون رنيان
صخرة برايتون – غراهام غرين
غاتسبي العظيم – ف . سكوت فيتزجيرالد*
مبتدئون جدًا – كولن ماكينيس*
شرح أليس – لويس كارول ، مارتن غاردنر
عصبي : قصة فرقة The Velvet Underground – ڤيكتور بوكريس وجيرارد مالانغا
المسرحيات الكاملة – جو أورتن
ستانلي سبنسر ر . أ . – ريتشارد كارلاين ، آندرو كوزي ، كيث بيل
نهاية العلاقة – غراهام غرين*
حياة وآراء تريسترام شاندي – لاورينس ستيرن
ديالكتيك التنوير – ثيودور دبليو . أدورنو وماكس هوركهايمر
إلى المنارة – ڤيرجينيا وولف*

شارع غرب الجديد – جورج غيسنق
في رمز الثأر – آلان مور* وديڤيد لويد
حياة السيارة – إليا إيهرنبرغ
بغبغاء فلوبير – جوليان بارنز*
كلمات ١٩٦٢–١٩٨٥ بوب ديلان
قصائد مختارة ١٩٠٩–٦٢ – ت . س . إليوت*
قصائد مختارة – فيليب لاركن*
منزل كئيب – تشارلز ديكنز*
الطفل في الوقت – إيان ماك إيوان*
نار باهتة – ڤلاديمير نابوكوف*
مذكرات فرانز كافكا – فرانز كافكا*
أوليس – جيمس جويس*
البحث عن الزمن الضائع ، المجلد الأول – مارسيل بروست
الكوميديا الإلهية – دانتي أليغيري
حقول لندن – مارتن آميس*
جود الغريب – توماس هاردي
القارة الضائعة – بيل بريسون*
العمل جحيم – مات غروننق*
ماسح مظلم – فيليب ك . ديك*جيم المحظوظ – كنغسلي آميس
أيها الأرنب ، اهرب – جون أبدايك*
أنت وأنا : قصة حقيقية – نيكلسون بيكر*
ردود أفعال نفسية وسماد مكربن – ليستر بانقز
مدام بوڤاري – غوستاڤ فلوبير
لندن من A إلى Z أطلس الشارع – شركة الجغرافيين المحدودة

ألما كوغان – غوردون برن
الخال ڤانيا – أنتون تشيخوف*
التاريخ السري – دونا تارت
مرتفاع وذرينغ – إيملي برونتي
Mon propre rôle – سيرج غاينسبورغ
المثقفون والحشود – جون كيري
حمّى الملعب – نيك هورنبي*
ترينسبوتنغ – إرڤاين ويلش*
حياة وموت پيتر سيلير – روجر لويس
القاموس الشخصي للسينما – ديڤيد تومسون
وطن الكتابة – آلان بينيت*
كيف يمكن لمارسيل بروست أن يغير حياتك – آلان دي بوتون
ثورة في الرأس : أغاني ذا بيتلز والستينات – إيان ماك دونالد*
سيف الشرف – إڤيلين وو*
لماذا طُردنا من المتحف – ديڤيد شريغلي*
أنثروبولوجيا – دان رودس*
بطاقات بريدية مملة – مارتن پار*
مباني إنجلترا – نيكولاس پڤسنر ، إيان نايرن ، بريدجت تشيري*
خواتم زحل – دبليو . جي . سيبالد*
المملكة بجوار البحر – پول ثيرو
هاري پوتر وحجر الفيلسوف – ج . ك . رولينغ*
البداية السيئة – ليموني سنيكت*
الوصمة الإنسانية – فيليب روث*
مستقبل النوستالجيا – سڤيتلانا بويم

سيدة مع كلب وقصص أخرى - آنتون تشيخوف*
مجموعة بينتس الكاملة : ١٩٥٠-١٩٥٢ تشارلز م . شولز*
مهزوز : سيرة نيل يونغ الذاتية - جيمي ماك دونو
مثل فيل ناري : قصة ب . س . جونسون - جوناثان كو*
فعل البشر للحب - جيمس ميك
كل الشياطين هنا - ديڤيد سيبروك
اتصال كثولو وقصص غريبة أخرى - إتش . بي . لفكرافت
أنغام سيئة - لوك هاينز
نهاية هاورد - إي . إم . فورستر*
إحساس النهاية - جوليان بارنز*
ثم وصلنا إلى النهاية - جوشوا فيريس
نحن في كتاب! - مو ويليمز*

بالإضافة إلى ذلك، بالرغم من أن هذه الكتب نشرت بعد الفترة التي يحكي عنها الكتاب، ولكن علي أن أذكر كتاب ستيفن سوندهايم «إنهاء القبعات : أغانٍ مختارة (١٩٥٤-١٩٨١)» وكتاب، «انظر، لقد صنعت قبعة : أغانٍ مختارة (١٩٨١-٢٠١١)» . بعيدًا عن الإصلاح، لقد منحني هذانً الكتابان أكثر متعة حصلت عليها في هذا القرن حتى الآن .

الملحقات ٣

كتب مازلت أنوي قراءتها

مازلت أنوي قراءة هذه الكتب والكتابة عنها .
أرجو منكم زيارة موقعي mill-i-am.com للأخبار والتحديثات .

ذكرى الأشياء الماضية - مارسيل بروست
أحدهم طار فوق عش الوقواق - كين كيسي
دعابة لانهائية - ديڤيد فوستر ولاس
المذكرة الذهبية - دوريس ليسنغ
المغامرات الرائعة لكاڤالير وكلاي - مايكل تشابون
الحب في مناخ بارد - نانسي ميتفورد
منزل للسيد بيسواز - ڤ .س . نايپول
غداء عاري - ويليام بورروز
مذكرات فتاة صغيرة - آن فرانك
أسنان بيضاء - زيدي سميث
عمل محطم للقلب لعبقري مذهل - ديڤ إيغرز
كتاب الصيف - توڤ جانسون
حفلة تنكرية - كيت ويليامز
أسفار غوليڤر - جوناثان سويفت
الغريب الصغير - سارا واترز
رحلة إلى نهاية الليلة - لويس-فريديناند سيلين

عنكبوت - بوب ديلان
جنس متوسط - جيفري يوجنايدس
خفة الكائن التي لا تحتمل - ميلان كونديرا
المرأة في البياض - ويلكي كولنز
ستونر - جون ويليامز
تاريخ مختصر للزمن - ستيفن هاوكنغ
قوس قزح الجاذبية - توماس پينتشون
الجزء الثاني من دانيل ديروندا - جورج إليوت
رجل بلا مميزات - روبرت موسيل
الصبي في البيجاما المخططة - جون بوين
بينما أستلقي لأموت - ويليام فولكنر
وولفهول - هيلاري مانتيل
ستالينغراد - أنتوني بيڤور
حياة وقدر - ڤيسلي غروسمان
العالم كإرادة وتصوّر - آرثر شوبنهاور
سيرة ذاتية - موريسي
الجحيم - دان براون

بيبلوغرافيا

Every effort has been made to contact copyright holders, where appropriate. Any errors or omissions will be corrected in future editions.

The book's epigraphs are taken from The odyssey by Homer, translated by E v. Rieu, Penguin Classics 1946; and from 'Scenes from the Class Struggle in Springfield', an episode of The Simpsons written by Jennifer Crittenden, first broadcast on 4 February 1996.

The Introduction A Word of Explanation) contains an excerpt from Malcolm Lowry's letter to Jonathan Cape, 2 January 1946, reproduced in the introduction to Under the Volcano, Penguin Modern classics 1985, copyright c Margerie Bonner Lowry 1965.

The Part I are taken from whatever by Michel Houellebecq, e to erpent's Tail, 1999, copyright Maurice Nadeau 1994, translation copy- right Paul Hammond 1999 and from vladimirNabokov Lectures on Russian Literature, Picador 1983, copyright Estate of vladimir Nabokov 1981.

Book One' contains extracts from I start counting' Basil Kirchin/Jack Nathan/James Coleman/Patrick Ryan), copyright © United Artists Music Lid 1969; from Mr Small by Roger Hargreaves, world International Ltd. 1998 copyright Hargreaves 1972; and from The Master and Margarita by © Mrs Roger Michael Glenny, vintage Mikhail Bulgakov, translated by Michael Glenny, Vintage 2003. Copyright in the English translation the Harvill Press and Harper and Row Publishers 1967.

'Book Two' contains extracts from Middlemarch by George Eliot, Penguin

Books 1965, edited by W J. Harvey: from The Bedsitter by Ray Galton and Alan Simpson, an episode of the BBC television series Hancock first broadcast on 26 May 1961, copyright © Galton & Simpson 1961; and from 'on Reading and Books' by Arthur Schopenhauer, reproduced in Essays of Schopenhauer, translated by Mrs Rudolf Dircks.

'Books Three to Five' contains extracts from The Communist Manifesto, Penguin Books 2004, and The Holy Family by Karl Marx and Friedrich Engels, Penguin Books 1967; from The Ragged Trousered Philanthropists by Robert Tressell, Flamingo 1993; from Post Office by Charles Bukowski, Virgin Books 1992, copyright Charles Bukowski 1971; and from Uncle Vanya by Anton Chekhov, translated by Pam Gems, Nick Hern Books 1992, translation copyright © Pam Gems 1992.

'Book Six' contains extracts from The Sea, The Sea by Iris Murdoch, Vintage 1999, copyright Iris Murdoch 1978; and from Cooking with Pomiane by Edouard de Pomiane, translated by Peggie Benton, Modern Library 2001, copyright © 1976 by Faber and Faber. The quote from Charles Monteith is taken from the BBC Arena documentary Joe orton: A Genius Like Us, first broadcast on BBC2 on 9 November 1982.

'Books Seven to Nine' contains extracts from A Confederacy of Dunas John Kennedy Toole, Penguin Books 1981, copyright © Thelma D. Toole 1980; from Twenty Thousand streets der the sky by Patrick Hamilton, vintage 1998, copyright © The Estate of the late Patrick Hamilton i from The Unnamable by Samuel Beckett, in the Samuel Beckett Tilway, Calder 1994, copyright © The Samuel Beckett Estate 1994; from notes by Jo

Calder accompanying the Naxos audio of The Unnamable by recording Samuel Beckett, copyright © John Caldes 2005; from No Place Like London' by Stephen Sondheim, reproduced in Finishing The Hat: Collected lyris 1954-1981), Alfred A. copyright © 2010 by Stephen Sondheim; Knopf, from Love Letter to London' by Luke Haines, from the album 21" Century Man (Fantastic Plastic Records), copyright © Luke Haines 2009; and from Unhappy Hour" by Dan Rhodes, the Guardian, 13 March 2004.

Book Ten' contains extracts from Moby Dick; or, The Whale by Herman Melville, edited by Harold Beaver, Penguin Classics 1972; from The Da Vinci Code by Dan Brown, Corgi 2004, copyright © Dan Brown 2003 and from '976-LOVE' by Dan Brown, from the album Dan Brown, copyright © DBG Records 1993. The quote from Brian Eno is taken from on some Faraway Beach: The Life and Times of Brian Eno by David Sheppard, orion 2008. The quote from Stephen Fry is taken from Combustion', an episode of QI first broadcast on BBC2 on 16 December 2005.

'Book Eleven' contains extracts from Anna Karenina by Leo Tolstoy translated by Louise and Aylmer Maude, Wordsworth Classics 1995.

'Books Twelve and Thirteen' contains extracts from Pride and Prejudice by Jane Austen, edited by Tony Tanner, Penguin Classics 1972; from of Human Bondage by W. Somerset Maugham, Mandarin Paperbacks 1990, copyright © by The Royal Literary Fund; and from 'Bookshop Memories' by George orwell, reprinted in Shooting an Elephant and other Essays,

Penguin Books 1964, copyright © George orwell 1936.

The epigraphs to Part II are taken from 'Riding Down from Bangor' by George orwell, reprinted in Essays, Penguin Books 2000, copyright © George orwell 1946, reprinted by permission of Bill Hamilton as the terary Executor of the Estate of the Late Sonia Brownell orwell; and rom "And I was A Boy From school' by Hot Chip, from the album The Warning (EMI), copyright Hot Chip 2006, reprinted by permission.

Part II contains extracts from One Hundred Years of Solitude by Gabriel Garcia Marquez, translated by Gregory Rabassa, Penguin Books 1973 translation copyright © Harper and Row Publishers, Inc. 1970; from The Tiger Who Came to Ted by Judith Kerr, PictureLions 1992, copyright Judith Kerr 1968; from H.P Lovecraft: Against the World, Against Life by Michel Houellebecq, translated by Dorna Khazeni, Weidenfeld & Nicolson 2006, copyright Michel Houellebecq 1991, translation Dorna Khazeni 2005; from Moominpappa at Sea by Tove Jansson, translated by Kingsley Hart, Puffin Books 1974, copyright © Tove Jansson 1965, translation Ernest Benn Limited 1966; and from Absolute Beginners by Colin MacInnes, Allison & Busby Limited 1980, copyright © 1959 The Colin MacInnes Estate. The quote from Scott Walker is taken from an inter- view with Mojo magazine, May 2006.

The e to Part ILI are taken from Correspondance by Gustave Flaubert, Folio-classique 1998, translated by the author; and from Little Gidding' by T. S. Eliot (1942, from Four Quartets), reprinted by permission of Faber & Faber for the UK and Houghton Mifflin Harcourt for the USA copyright

© the Estate of T. S. Elliot.

Books 28, 29 and 31' contains extracts from The Diary of a Nobody by George and weedon Grossmith, edited by Kate Flint, oxford University Press 1995; from Beyond Black by Hilary Mantel, Fourth Estate 2005: and from The Mystery of Edwin Drood by Charles Dickens, edited by Peter Preston, Wordsworth Classics 1998.

'Books 41 and 42' contains extracts from The Dice Man by Luke Rhinehart, HarperCollins 1999, copyright © George Cockcroft 1971; from The Essential Silver Surfer Vol. by Stan Lee, Jack Kirby, John Buscema, Marvel Comics 2005, copyright © 1967, 1968, 1969, 1970 and 2005 Marvel Characters Inc; from Krautrocksampler: One Head's Guide to the Great Kosmische Musik 1968 onwards by Julian Cope, Head Heritage 1995, copyright © Julian Cope 1995; from Repossessed by Julian Cope, Thorsons 1999, copyright Lave ittle sion USA, dy by ersity 5; an Peter mehart, cters Julian Cope 1999; from "I Have Always Been Here Before' by Julian Cope, from the album Where The Pyramid Meets The Eye: A Tribute to Roky Erickson, copyright © Julian Cope 1990; and from The Stages of Life' by Carl Jung, from Modern Man in Search of a Soul, Routledge Classics 2001 Unless noted, other quotes from Julian Cope are taken from his website at headheritage.co.uk; from an interview with Jon Savage (Stone Mel' observer, 10 August 2008); and from The Modern Antiquarian, a docu- mentary first broadcast on BBC2 on 24 June 2000.

'Book 45' contains extracts from Public Enemies by Michel Houellebecq and Bernard-Henri Lé translated by Frank wynne, Atlantic Books 2011,

copyright © Flammarion/Grasset & Fasquelle, Paris 2008, transla- tion Frank Wynne 2011; from Atomised by Michel Houellebecq, trans- lated by Frank Wynne, William Heinemann 2000, copyright © Flammarion 1999, translation copyright Frank Wynne 2000; from 'Neil Young' by Michel Houellebecq and Michka Assayas, from Dictionnaire du Rock, Bouquins/Robert Laffont 2000, translated by the author, copyright Michel Houellebecq and Michka Assayas 2000: from Against Nature by Joris-Karl Huysmans, translated by Robert Baldick, Penguin Classics 2003, translation copyright O Robert Baldick 1956: from The Restaurant at the End of the Universe by Douglas Adams, Pan Books 1980, copyright O Macmillan Publishers for the UK, Random House Ltd for the USA; and from Vladimir Nabokov s introduction to The Vane Sisters', The Stories of Vladimir Nabokov, Weidenfeld & Nicolson 1996, copyright O Estate of Vladimir Nabokov. The quote from Mark E. Smith is taken from John Peel's Record Box, a documentary first broadcast on Channel 4 on 14 November 2005.

Books 49 and 50' contains extracts from The Code of the Woosters by PG. Wodehouse, Penguin classics 2001, copyright o PG. Wodehouse 937: from The Buildings of England: North East and East Kent Third Edition) by John Newman, founding editor Nikolaus Pcvsner, Penguin 1983, copyright o John Newman, 1969, 1976, 1983; from 'on Noise' by Arthur Schopenhauer, reproduced in Essays of scho by Leo Tolstoy translated by Mrs Rudolf Dircks; from War and Peace translated by Louise and Aylmer Maude, Everyman's Library 1992, and from Public Enemies by Michcl

Houellebecq and Bernard-Henri Lévy, translated by Frank Wynne, Atlantic Books 2011, copyright Flammarion/Grasset & Fasquelle, Paris 2008, translation Frank wynne 2011.

The epigraphs preceding the Epilogue are taken from The Books in My Life by Henry Miller, Peter owen 1961, copyright e Estate of Henry Miller; from The Hitchhiker's Guide to the Galaxy by Douglas Adams, Pan Books 1979, copyright o Macmillan Publishers for the UK, Random House Ltd for the USA, reprinted by kind permission of the Estate of Douglas Adams; and from Under the volcano by Malcolm Lowry, Penguin Modern Classics 1985, copyright o Malcolm Lowry 1947. The Epilogue itself contains extracts from Repossessed by Julian Cope, Thorsons 19 copyright © Julian Cope 1999; from Malcolm Lowry's letter to Jonathan Cape, 2 January 1946, reproduced in the introduction to Under the Vol Penguin Modern classics 1985, copyright o Margerie Bonner Lowry 1965; and from 'Publishing', an episode of Hitchhiker's Guide to the Future, presented by Douglas Adams, first broadcast on BBc Radio 4 on 21 April 2001.

شكر وتقدير

هذا الكتاب لم يكن ليُكتب من الأساس لولا مساعدة الأشخاص الذين سأذكرهم هنا .

في دار النشر Fourth Estate ، المحرر نيكولاس بيرسون كان صديقًا لي ، مساعدًا ، وطبيبًا نفسيًا أيضًا . وكان عليه أيضًا أن يكون صبورًا للغاية للعمل معي . وعدته ألا أتأخّر في تسليم الكتاب ، ولكنني تأخرت . أريد أن أشكر أيضًا ڤيكتوريا بارنسلي لإيمانها بي ، كمحرر وككاتب . شكرًا لريبيكا ماك إيوان ، ميشيل كين ، أولاي روزي ، مينا فري ، پول إردبريسير ، كيت تولي ، إيزي كوسينز ، لاورا روبرتس ، جوليان همفريز ، كلير رايهيل ، لويزي هاينز ، وخاصةً إلى جو والكر ، الذي لم يكتف بتصميم الغلاف ، بل أيضا وضع فيه العدد الصحيح من الكتب دون أن يُطلب منه ذلك .

وفي هاربر پيرينيال ، حصل جون ويليامز على حقوق الكتاب ، وكان مصدر إلهام مبكر بالنسبة لي ؛ لقد شجعني أيضًا على كتابة مقالين طويلين لنشرهما في مجلته The Second Pass ، وتمكنت من خلال هذه التجربة أن أتمرن على الطريقة التي أرد كتابة الكتاب بها ؛ شكرًا ، جون . نعود إلى هاربر پيرينيال ، هناك انتقل الكتاب إلى أيدي جينيت پيريز ، ثم مايكل سغنوريلي ، لينتهي على مكتب المحررة التي عملت معها ، الرائعة هانا وود . كانت هي والناشر كال مورغان ، من تعامل مع الكتاب وكأنه كتابهما ، وأشعر بالامتنان العميق لهما للجهد ، الاهتمام ، والالتزام الذي رأيته منهما .

وفي مؤسسة كيرتس براون ، وكيل أعمالي جوني غيلير كان

مصدرًا للفكاهة اللطيفة ، والنصيحة الجيدة في أي وقت احتجتها ، شكرًا أيضا لدوغ كين وكريستين فوستر .

جميع أصدقائي من كانونغيت ، خاصةً جيمي باينغ - الشخص الوحيد الذي أعرفه ويقول بأنه لا يكذب بشأن قراءة الكتب وأصدقه تمامًا - والرقمي دان فرانكلين .

جميع أصدقائي في فيبر آند فيبر ، خاصةً ستيفن بيج ، هانا غريفيذس ، بريدجت لاتيمير-جونز ، جوليان لوز ، وجون غريندرود .
CroydonTillWeDie#

في أوقات مختلفة ، وبطرق مختلفة ، الأشخاص الذين سأذكر أسماءهم الآن ألهموني أو ساعدوني بشكل أو بآخر : ميتزي آنجل ؛ ديڤيد بيركر ، ريتشارد بيدسر ، ألكس كلارك ؛ جيني كولغان ؛ بيتر وپولي ؛ كولينغريدج ؛ ديك كوبروايت ؛ جاكي كوبروايت ؛ ستيڤ ديلاني ؛ پيتير دوغيت ؛ پاتريك دفي ؛ ترافيس إلبورو ؛ ڤيكتوريا فالكونر ؛ تيم غروڤر ؛ روپرت هيث ؛ سوريل هيرشبرغ ؛ إدي وريوبن ؛ توم هودجكينسون ؛ كيت هولدن ؛ ليو هوليس ؛ توني ليسي ؛ ستيوارت لي ؛ سام ليث ؛ عائلة ليونز ؛ دومينيك ماكسويل ؛ إيما پيري ؛ پولي وفلورا ؛ جيرمي ميلار ؛ ديڤيد ميلر ؛ ديڤيد ماونفيلد ؛ پول پوتنر ؛ دان رودس ؛ پرو رولاندسون ؛ ويليام رولاندسون ؛ آندرو ساندوڤال ؛ عائلة ماك سويني ؛ كل زملائي السابقين في نادي إسبارطة للكتاب .

شكر خاص للاستثنائية جينا رسل .

العديد من كتب «قائمة الإصلاح» اشتريتها من دار هاربر للكتب . شكرًا كيث وإيما ديكنسون ، ڤيكي هيغمان ، ماثيو كروكات ، إليزابيث والر وكريستين بويسن للسماح لي للدخول إلى

المكتبة ، لأتأكد من الإملاء الصحيح لاسم كنوت هامسون ، والخروج منها . الشكر لمتجر كتب أوكسفورد ستريت ، وواترستونز ، الذي يديره مارتن لاثام ، وفرعي ألبيون في برودستيرز . الشكر لكل المكتبات العامة التي زرتها خلال هذه السنة .

لقد أنهيت أغلب أجزاء هذا الكتاب في مكانين اثنين : جزء كبير من المسودة الأولى تمت كتابته في دوت كوتيج ، قرب ونتشيلسي ، حيث تعلمت كيف أقطع الأشجار بمحور قطع جيّد ، وكيف أعمل على آلة حرق أخشاب ، والشكر لمايكل كروسبي-جونز ومارغوت پرو ، لاستضافتهما لكاتب يعاني مثلي - وعلى عكس منزلي ، لم يكن هنالك أي أجهزة اتصالات ولا حتى هاتف ، لا إنترنت ، ولا تلفاز . قد أبالغ قليلًا إن قلت أن هذا الكتاب لم يكن ليوجد دون كرم وضيافة آنتوني وجولي روبنسون .

أريد أن أهدي بطاقة بقيمة ١٠ باوند لشراء الكتب لكل من الأشخاص التالية أسماؤهم .

لقرابة قرن من الصداقة ، ماثيو فريدمان ، مايكل كين وپول رايت .

للحب السماوي وما فوقه الذي كان ضروريًا جدًا ، بين تومسون ونيكولا باركر .

للغناء ، وعزف القيتار معي ، زميلي تيم دونكن ؛ والمقدسة إيليز برنز .

هل أنهيت كتابك بعد؟ لابتدائه كل مكالماته التيلفونية معي بهذه الجملة ، كلينتون هايلن .

لضحكهم ، ولجعلي أضحك معهم ، نيل ، سو ، ونيكول پيريمان .

شكرًا أمي ، شكرًا أبي ، لمنحي حب الكتب ولتركي ألحق به أينما قادني .

فليحفظ الرب فرقة The Kinks .

أخيرًا ، زوجتي تينا ، وابني ألكس ، لم يكونا بطلين سريين لهذا الكتاب ، ومغامراته التي تم سردها في الصفحات السابقة من حياتي . كان عليهما أن يخوضا كل هذه المغامرات معي ، في الواقع . دون حس فكاهتهما ، صبرهما ، صحبتهما وحبهما لي ، لم يكن لهذا الكتاب ولا لحياتي أي وجود . شكرًا .

أ . م .

ملاحظات لأندية القراءة

* كم عدد الكتب التي قرأتها من «قائمة الإصلاح»؟ ما هي كتبك المفضلة من بينها؟
* «من حق أي شخص إبداء رأيه .» تتفق أم تختلف؟
* هل يجب عليك إنهاء كتاب قبل أن تكتب عنه مراجعة على الإنترنت أو تناقشه مع نادي القراءة؟
* هل تصف نادي القراءة الذي تنتمي إليه بأنه متوسط الثقافة؟
* خلال رحلة سنة القراءة الخطرة ، قام آندي ميلر بتوظيف رموز مثل النمر والقرد . إلى ماذا يرمز النمر وإلى ماذا يرمز القرد؟
* في إحدى صفحات الكتاب يصف زميل سابق آندي ميلر بأنه أحد أكثر الرجال الذين التقاهم في حياته غضبًا . لماذا تعتقد آندي ميلر كان غاضبًا لهذه الدرجة؟
* خلال صفحات الكتاب قام آندي ميلر بسرد العديد من صور الازدواجية والتي تكبد الكثير من العناء لوضعها والمقارنة بينها ، برأيك هل كان هذا يستحق العناء؟
* هل فهمت ماذا كان يحاول آندي ميلر إنجازه خلال سنة القراءة؟ وإن لم تفهم ، على من الخطأ؟ عليك أم عليه؟
* مثل مالكولم لوري ، أعلن آندي ميلر أنه يأمل من القراء أن يعودوا لقراءة الكتاب مرتين على الأقل كي يتمكنوا من تقدير معماره وتصميمه بشكل كامل . هل ستتكبد هذا العناء وتعود له مرة ثانية؟
* بعد قراءة المسودة الأولى من «سنة القراءة الخطرة» قام أحد زملاء آندي ميلر في نادي القراءة بالتعليق عليه قائلًا : «تبدو

على آندي ميلر أعراض اكتئاب، مثلية كامنة، ومتلازمة أسبرجر.» هل تتفق معه؟

* يبدو على آندي ميلر أنه شخصية مميزة ويملك ذكاءً عنيفًا. ولكن هل تظن أنك تريد قضاء الوقت معه؟
* أي آندي ميلر تفضل؟ كاتب «سنة القراءة الخطرة» ؛ آندرو ميلر، الفائز بعدة جوائز روائية ؛ آندي ميلر، عازف القيتار مع فرقة Dodgy ؛ أو آندي ميلر الذي يحب أن تحضر له النساء السندويشات؟
* لا شيء يهم على الإطلاق، لن كل شيء عبارة عن هراء. هل تتفق؟
* هل تعتقد أن هذه الملاحظات بالأعلى جادة أم كتبت لأجل السخرية؟



"كتاب مجنون، مضحك، لطيف. إن كنت تحب القراءة، يجب عليك قراءته."

تشارلوت ميندیلسون، "إنجليزي تقريبًا"

كم هي الكتب التي طالما أردت قراءتها؟
شعرت أنك يجب أن تقرأها؟ تظاهرت بأنك قرأتها؟

كان آندي ميلر يملك وظيفته التي أعجبته وعائلته التي أحبها. ولكن شيئًا ما كان مفقودًا: الكتب. لذلك قرر بداية سنة كاملة من القراءة، غيّرت حياته تمامًا.

من موبي-ديك إلى شفرة دافنشي، من جين أوستن إلى دوغلاس آدمز، يستكشف آندي ميلر كيف نقرأ وماذا نقرأ - ولماذا يجب علينا إيجاد الوقت لفعل هذا. ملهم، شخصي بشكل عميق، ومضحك إلى درجة عالية، سنة القراءة الخطرة أوديسة القارئ التي تبدأ بفتح هذا الكتاب.

"خليط من النقد والمذكرات يتميز بالدقة والذكاء، حسّاس، ومضحك وغالبًا ما يكون مثيرًا للسخرية"

بيتر كونراد، Observer

"جريء بطريقة تجلب السعادة، مضحك جدًا ... بحث ميلر كوني: بإمكاننا جميعًا أن نتحسّن بنسيان أنفسنا بين أرفف الكتب"

كريستيان هاوس، Daily Telegraph


ISBN-13: 978-99966-92-68-0
9 789996 692680

